تاريخ الحروب الصليبية

الأستاذة الدكتورة

إسمت غنيم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

ورئيس قسم العلوم الإجتماعية

جامعة الإسكندرية

١٩٩٦

تاريخ الحروب الصليبية

الأستاذة الدكتورة

إسمت غنيم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

ورئيس قسم العلوم الإجتماعية

جامعة الإسكندرية

١٩٩٦

المحتوى

===

المقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما دعى البابا ايربان الثانى فى مؤتمر كلير مونت بجنوب فرنسا فى عام ١٠٩٥م. الغرب الأوربى لحمل شارة الصليب والتوجه إلى الشرق لتخليص الاراضى المقدسة المسيحية فى فلسطين من يد المسلمين، كانت الاستجابة لدعوته تلك استجابة هائلة وانخرطت جموع البشر من امراء وعامة للاشتراك فى هذه الحركة، وقامت الحملة الصليبية الأولى بشقيها الشعبى والنظامى واتجهت إلى الشرق ونجحت فى تأسيس إمارة الرها، إمارة انطاكية، مملكة بيت المقدس الصليبية، وإمارة طرابلس.

وفى البداية أصيب المسلمون فى منطقة الشرق الأدنى بالارتباك والفزع بعد أن رأوا ما فعله هؤلاء الصليبيون الغربيون من وحشية وعنف اثناء فتوحاتهم لاراضى المسلمين وخاصة ما فعلوه حينما اقتحموا مدينة بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م. والمذبحة الوحشية التى اقترفوها مما جعل بعض المؤرخين الغربيين أنفسهم يعتبرون هذه المذبحة وصمة وعار فى تاريخ الحروب الصليبية[١].

ثم بدأ المسلمون يفيقون من غفوتهم ويدركون مدى الخطر الذى يتهددهم من جانب هؤلاء الصليبيون وبدأوا فى رفع راية الجهاد ضدهم وبرزت أسماء لامعة خلدها التاريخ أبلت بلاء حسناً فى الجهاد ضد الصليبيين ومن أشهرهم عماد الدين زنكى. وقد اثمرت جهود هؤلاء المجاهدين واستطاع المسلمون التغلب على الحملة الصليبية الثانية التى تولى قيادتها اثنين من اكبر ملوك

---

[1] Grousset : Histoire des Croissades, vol 1,p. 161.
Runciman : A History of the Crusades, vol 5,p. 278.

الغرب الاوروبى وهما كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا، وقد جاء فشل هذه الحملة إيذانا بترنح البناء الصليبى فى الشرق.

وشاء القدر أن تظهر الدولة الايوبية فى هذه المرحلة من مراحل الصراع الصليبى الاسلامى، وان يقع على عاتقها مواجهة هؤلاء الصليبيون الذين لم يقنعوا بالاستقرار فى اراضى الشام وفلسطين وتهديد ممتلكاتها هناك، وانما اتجهت اطماعهم نحو مصر، مركز هذه الدولة وقلبها النابض، وذلك بهدف ضمها واحتوائها بامكانياتها البشرية والمادية الهائلة ضمن مناطق نفوذهم.

ولتحقيق هذا الهدف تم التخطيط والتنفيذ لحملتين كبيرتين اتجهتا ضد مصر، وكان على رأس حملتهم الثانية وهى المعروفة باسم الحملة الصليبية السابعة لويس التاسع ملك فرنسا الذى تم أسره وقضى فترة الاسر فى دار ابن لقمان بمدينة المنصورة. وقد باءت الحملتان بالفشل الذريع وكان فشلهما هذا جزاء طبيا لما اقترفت ايديهم وتطاولت إليه احلامهم.

وقد أكملت دولة المماليك الدور الذى بدأته الدولة الأيوبية وتم تطهير بلاد المسلمين على يد المماليك من هؤلاء الغزاة الغربيون الذين قاموا بأول حركة استعمار قام بها الغرب الاوروبى ضد بلاد المشرق الاسلامى والذين اتخذوا من الدين ستارا لها.

والله الموفق

أ. د. بسمت غنيم

لوران

يناير ١٩٩٦.

الفصل الأول

الحركـة الصليبية

التعريف ، الدعوة ، الحملة الصليبية الأولى

التعريف بالحركة الصليبية:

يعرف الكونت ريان Riant الحركة الصليبية بأنها (حروب دينية خالصة، دوافعها دينية، وترمى إلى استرداد بيت المقدس عن طريق مباشر أو غير مباشر).

اذن فهذا المؤرخ يرى ان هذه الحركة الصليبية هى حركة دينية خالصة، وهذا الرأى الذى جعل من الحركة الصليبية (حركة دينية خالصة) سيطر على افكار وأراء المدرسة القديمة من المؤرخين، فنرى المؤرخ اللاتينى المعاصر روبرت الراهب يقول: (وأى حدث وقع فى انحاء المعمورة منذ بدئ الخليقة يفوق اعجازاً ماحدث فى هذا الزمن، هذا الحدث الذى تمثل فى حملة رجالنا إلى بيت المقدس وان المرء كلما دقق فى دراسة هذا الحدث كلما تمددت خلايا مخه وزاد ذهوله فان هذه الحملة كانت من عمل الرب وليست من عمل البشر).

وقد أخذت قلة من المؤرخين المحدثين بهذا الرأى ولعل أبرزهم المؤرخ الفرنسى روسيه Rousset [1] .

على أن المدرسة الحديثة من المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ الالمانى هاجنماير Hagenmeyer بعد دراسات وابحاث مستفيضة لهذه الحركة قد أوضحت ان هناك اسباب ودوافع اخرى إلى جانب الدافع الدينى، منها دوافع اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة بالغرب الاوروبى كانت وراء قيام هذه الحركة، وان الدافع الدينى ليس الدافع الوحيد كما أدعت المدرسة القديمة من مؤرخى الحروب الصليبية.

---

[1] Rousset P.: Les Origins et les Characteres de la Premier Croisades, Neuchatel, 1945.

فبالنسبة للدافع الاجتماعى فاننا نجد أن المجتمع الاوروبى الوسيط قد تكون من طبقة النبلاء والفرسان المحاربين، وطبقة رجال الكنيسة والديريين، وكانت هاتان الطبقتان تمثلان اقلية ارستقراطية أما الاغلبية السائدة فقد كانت طبقة رقيق الارض (الأقنان) المرتبطين بالارض الزراعية الذين يقومون بفلاحتها ويعيشون عيشة هى أقرب إلى الموت منها إلى الحياة حيث كان القن محروما من الملكية الشخصية وكان كل ما يملكه يعتبر ملكا خاصا للسيد الاقطاعى، وهكذا عاشت هذه الطبقة حياة قاسية تفتقر للاستقرار والأمان، وكثيرا ما تعرضوا لهجمات العناصر الشمالية (الفيكنج) الذين خربوا الجسور فغطت مياه البحار والانهار الاراضى، كما كانت القرى غير محمية بالاسوار فاصبحت عرضة للسلب والنهب.

وقد وجدت هذه الطبقة البائسة من الفلاحين من رقيق الارض فى الاشتراك فى الحروب الصليبية، المخرج الوحيد لأزمتها وحياتها القاسية، فاندفعوا فى الانخراط فى هذه الحروب فراراً من جحيم الحياه فى ظل النظام الاقطاعى، فاذا عاشوا فقد فازوا بخيرات الشرق ورغد العيش فيه، واذا ماتوا فقد كانوا يعيشون حياه هى أقرب إلى الموت، فضلاً عن فوزهم بالجنة ونعيمها فى الآخرة كما وعدتهم البابوية بذلك.

أما عن الدافع الاقتصادى وراء هذه الحروب فقد أوضحه المؤرخ ثومبسون Thompson حين عرّف الحروب الصليبية بانها (أول تجربة فى الاستعمار الغربى قامت بها الأمم الاوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق) [1].

---

(1) Thampson: Economic and Social History, 1, P. 397.

فقد عانى الغرب الاوروبى وخاصة فى الفترة السابقة مباشرة لقيام الحروب الصليبية من القحط والمجاعات وعمت الفيضانات الكبرى البلاد فى عام ١٠٩٤م. ثم اعقبها انتشار الاوبئة. وفى عام ١٠٩٥م. حدثت مجاعة كبيرة، واشار المؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت Glubert Nogent إلى وجود مجاعة شاملة فى فرنسا، فندر وجود الغلال، ولجأ الناس إلى أكل الاعشاب والحشائش، وقد اشار البابا اربان الثانى نفسه إلى تلك الظروف فى خطابه فى مجلس كلير مونت فى ١٠٩٥م. الذى دعى فيه إلى قيام الحروب الصليبية.

كذلك فقد وجدت المدن البحرية الايطالية مثل البندقية وجنوا وبيزا فى تلك الحروب فرصتها الذهبية للاثراء وجنى المكاسب والاموال عن طريق نقل الصليبيين إلى الشرق، ولدينا مثال لذلك اثناء الحملة الصليبية الرابعة، فقد تم الاتفاق بين الصليبيين والبندقية على أن يدفعوا لها ٨٥ ألف مارك من الفضة مقابل نقلهم هم وخيولهم إلى الشرق، وتقديم التموين والأغذية لهم خلال مدة السفر وهى تسعة شهور، كما أعلن دوج البندقية انريكو داندولو انه (حبا فى الله سنضيف إلى الاسطول خمسين غاليا حربية بشرط ان نكون شركاء فى كل المكاسب التى تحققها الحملة من فتوحات أو أموال، فى البر أو فى البحر بحيث تأخذون النصف ونأخذ نحن النصف الأخر).

ولم تكتف البندقية بذلك، وانما غررت بهؤلاء الصليبيين واقنعتهم بمساعدتها فى الاستيلاء على مدينة زارا على ساحل البحر الادرياتيكى، وهى مدينة مسيحية كانت تابعة لملك هنغاريا، وقد استولوا عليها بالفعل وذبحوا اهاليها المسيحيين[1]. فهل كان الصليبيون والبنادقة مدفوعين بدافع الدين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين أم بدافع الجشع والبحث عن المصالح

---

[1] احمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢، ص ص ٦٦-٧٢

الاقتصادية البحته؟ ولم يخفى البنادقة شعورهم هذا بل اعلنوه صراحة فى تلك العبارة التى اذاعوها وهى (نحن أولاً بنادقة، وبعد ذلك مسيحيون).

والواقع أن الاساطيل البحرية الاوروبية قد قامت بدور هام فى ربط الصليبيين فى الشام وفلسطين بالغرب الاوروبى لدرجة أنه كان لا يمكن الاستغناء عن هذه الاساطيل بحال من الاحوال، وقد حصلت مقابل ذلك على اعفاءات جمركية خاصة بالاضافة إلى الامتيازات الاخرى مثل شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الاوروبية التى قدمت خدماتها لحاكم الامارة الصليبية التى يتبعها الميناء.

أما عن الدافع السياسى فقد وضح منذ البداية، فان طموحات البابوية دفعتها إلى الرغبة فى حكم المجتمع المسيحى روحياً وسياسياً، وقد ظل البابوات طوال العصور الوسطى يلوحون بهبة قسطنطين Donation of Constantin وهى وثيقة ثبت تزويرها فى عصر النهضة، وادعت البابوية ان هذه الوثيقة قد منحها لها الامبراطور قسطنطين الاكبر (٣٠٦-٣٣٧م) حين ترك روما فى عام ٣٣٠م وانتقل إلى العاصمة الجديدة القسطنطينية، وانه منحها فى هذه الوثيقة حكم الغرب الاوروبى سياسياً، وقد ظلت البابوية تستند إلى هذه الوثيقة وتطالب بالحكم السياسى للغرب، حتى وجدت فى الحروب الصليبية الفرصة للتخلص من ملوك وأباطرة الغرب الاوروبى عن طريق ارسالهم للحرب فى الشرق واستخلاص الاراضى المقدسة فى فلسطين، وقد دأبت البابوية على حثهم وارسال السفارات العديدة لهم للخروج على رأس جيوشهم ومحاربة المسلمين، وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان، تلك العقوبة التى اوقعتها بالفعل على الامبراطور فردريك الثانى حين أخذ يماطل فى الخروج للشرق.

كذلك فان النظام الاقطاعي الذي ساد في الغرب الاوروبي في تلك الفترة كان يورث الاقطاع بكامله إلى الإبن الأكبر فقط، أما باقي الابناء فقد ظلوا بدون اقطاع وبالتالي بدون نفوذ وسلطان، لذلك فقد وجدت فئة كبيرة من فرسان الغرب الاوروبي في الحروب الصليبية فرصتهم لتكوين اقطاعات لهم في الشرق تمنحهم القوة والنفوذ والسلطان، وليس أدل على ذلك من انه اثناء الحملة الاولى فان كل من استطاع ان يكون لنفسه اقطاعا انفصل عن باقي الجيش الصليبي وتفرغ لادراة إقطاعه وترك باقي اخوانه الصليبيين يعانون الأمرين للوصول إلى الاراضي المقدسة في فلسطين. كذلك فان الدارس للحركة الصليبية يلاحظ أن الامراء الصليبيين بالشرق قد أخذ كل منهم يبحث عن مصلحته الشخصية ومصلحة اقطاعه دون نظر للمصلحة العامة، وليس أدل على ذلك مما حدث اثناء الحملة الصليبية الثانية التي وجد أحد زعمائها وهو لويس السابع ملك فرنسا، نفسه تتجاذبه المصالح المختلفة للصليبيين في الشام وفلسطين حتى المسئولين عن مملكة بيت المقدس الصليبية وجهوا حملته لحصار دمشق، وكان حاكمها معين الدين إنر الحليف المسلم الوحيد لهم بالشام، وتركوا الهدف الاساسي للحمله وهو استرجاع امارة الرها من يد المسلمين.

هل معنى وجود دوافع اجتماعية واقتصادية وسياسية دفعت الغرب الاوروبي للقيام بهذه الحركة الصليبية انتفاء العامل الديني منها؟

لا يمكن اغفال العامل الديني من هذه الحركة، ولكن هذا العامل الديني خاص باحوال المسيحيين والبابوية بالغرب الاوروبي، وليس كما اذاع الصليبيون ان هذا العامل الديني خاص بمعاملة المسلمين السيئة للمسيحيين في البلاد الخاضعة لهم وعرقلة زيارة المسيحيين للاماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، وقد اعتبر الغرب الاوروبي ان سيطرة المسلمين على هذه الاماكن المسيحية يعتبر عارا على المسيحية وانه ينبغي عليهم رفع (عار المسيح) بمحاولة تخليص هذه الاماكن من سيطرة المسلمين.

وهذه كلها ادعاءات لا أساس لها من الصحة، فلم يعرف عن المسلمين ممارسة أى نوع من انواع الاضطهاد الدينى ضد أهل الذمة (المسيحيون واليهود)، بل لقد تمتع هؤلاء بحرّية ممارسة عقائدهم الدينية دون أى ضغط ودون أى اضطهاد، والتاريخ الاسلامى ملئ بما يثبت ذلك، ويكفى للتدليل على هذا أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى اتخذ وزيرين له احدهما مسيحى والآخر يهودى. لكن هذا العامل الدينى يرتبط باحوال المسيحيين والبابوية فى الغرب الاوروبى، فقد كان هناك ارتباط روحى بين مسيحىّ غرب اوروبا والاراضى المقدسة فى فلسطين التى شرفت بميلاد المسيح بها، والتى بشر برسالته فى ربوعها، إلى جانب وجود آثاره فيها. ونتيجة لذلك تطورت حركة الحج إلى هذه الاماكن ونمت، ولم تمنع مشقة السفر الحجاج حتى من السيدات عن المجئ إلى هذه الاراضى.

هذا عن الارتباط الروحى بين المسيحيين فى غرب اوروبا والاماكن المقدسة فى فلسطين، يضاف لذلك احوال البابوية التى كانت قد بلغت درجة كبيرة من القوة والنفوذ فى القرن الحادى عشر الميلادى، وقد رغبت البابوية فى مد سلطانها إلى جميع انحاء العالم المسيحى، وقد رغب البابا الذى هو خليفة المسيح والقديس بطرس، فى أن يكون الزعيم الروحى لكافة المسيحيين فى الشرق والغرب على حد سواء. كذلك فمن المعروف ان حلم البابوية كان هو اخضاع الكنيسة الشرقية صاحبة المذهب الارثوذكسى Ortho - Dox ، إلى سطان ونفوذ الكنيسة الغربية الكاثوليكية Catholico ، ولكن النزاع الذى استحكم بين البابوية من ناحية والاباطرة البيزنطيين من الناحية الاخرى، جعل توحيد الكنيستين الشرقية والغربية أو بمعنى أصح اخضاع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما، وإزالة ما بينهما من شقاق شبه مستحيل فى ذلك الوقت على الأقل، لذلك فقد وجدت البابوية فى لجوء الامبراطور اليكسيوس كومنينوس إليها والاستنجاد بها ضد الاتراك السلاجقة، الفرصة الذهبية لتحقيق آمال

واحتلال البابوية فى الزعامة والسيطرة وظهور البابا فى صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحى فى الشرق والغرب، وان يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين واسترداد الاماكن المقدسة فى فلسطين، وحماية الشعب البيزنطى من خطر المسلمين. ولكن الدارس لهذه الحركة يجد أن طمع الصليبيين فى الدولة البيزنطية فاق كافة الاخطار التى واجهتها من جانب المسلمين، وليس أدل على ذلك مما فعله صليبيّ الحملة الصليبية الرابعة من اتجاههم ضد القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م. واسقاط الحكم البيزنطى وإقامة مملكة لاتينية على اشلاء الامبراطورية البيزنطية، والفظائع التى ارتكبها هؤلاء الصليبيون ضد اخوانهم المسيحيين الشرقيين لدرجة دفعت المؤرخ البيزنطى المعاصر نقيتاس خونياتس (توفى ١٢١٣م) إلى القول انه كان يتمنى لو ان عاصمتهم القسطنطينية كانت قد وقعت فى يد المسلمين (الذين كانوا لطفاء ورحماء) حين فتحوا بيت المقدس فى ١١٨٧م، على يد صلاح الدين الايوبى، ولم يفعلوا بها مثلما فعله (هؤلاء المخلوقات الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم)[1].

وقد ظلت هذه الدوافع كلها من اجتماعية واقتصادية وسياسية موجودة فى الغرب الاوروبى إلى ان جاءت استغاثة الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس لتفجر هذه الدوافع وتجعلها تعبر عن نفسها تعبيراً عملياً.

ذلك أن اليكسيوس كومنينوس تولى عرش الامبراطورية البيزنطية فى ١٠٨١م، ليجد أن احوال الامبراطورية منهارة داخلياً وخارجياً، فالخزينة خاوية والجيش والاسطول فى حالة انهيار، وكان ذلك نتيجة لفترة الفوضى والصراع على العرش التى اعقبت نهاية الاسرة المقدونية فى ١٠٥٤م، وبمجرد أن تولى اليكسيوس العرش خاض صراعاً مريراً ضد روبرت

---

(1) عن الفظائع التى ارتكبها الصليبيون حينما فتحوا القسطنطينية راجع:

اسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، ص ص ٩٧-١٠٠

جويسكارد زعيم النورمان فى جنوب ايطاليا الذى عبر البحر الادرياتيكى ونزل على ساحل دالماشيا مهاجما اراضى الامبراطورية البيزنطية، وكان هدفه الوصول إلى القسطنطينية ذاتها، وقد اضطر اليكسيوس لمواجهة هذا الصراع، ولما كان لا يملك اسطولا، فقد استغل الاتفاقية التجارية التى بينه وبين البنادقة وحول بعض اسطولهم التجارى إلى مراكب حربية خاض بها حرب بحرية ضد جويسكارد، كما لعبت المؤامرات البيزنطية دورها فى اشعال نيران الفتنة ضد جويسكارد فى جنوب ايطاليا، فعاد هذا لكى يخمدها، وانتهى الأمر بوفاته وتخلص اليكسيوس من خطره.

وقد خاض اليكسيوس صراعاً آخر ضد عناصر الاتراك البجناك على الحدود الشمالية للامبراطورية على أن خطر الاتراك السلاجقة المسلمين على الحدود الشرقية للامبراطورية كان لا يزال قائماً، فعقب معركة منزيكرت فى ١٠٧١م[١] ، التى هزم فيها الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجنيس، وتم اسره على يد السلاجقة، أصبحت آسيا الصغرى مفتوحة على مصراعيها للسلاجقة الذين توغلوا فيها حتى وصلوا إلى كريسو بوليس على الضفة الآسيوية للبسفور وأصبحوا فى مواجهة القسطنطينية.

البابا ايربان الثانى والدعوة للحروب الصليبية:

فى ظل الظروف السابق شرحها التى احاطت بالامبراطورية البيزنطية فقد توجه الامبراطور اليكسيوس كومنينوس الى البابا ايربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م.) وارسل له سفارة قابلته وسمح لها البابا بحضور المجلس

---

[١] عن كل ما يتعلق بمعركة منزيكرت راجع:

اسمت غنيم: معركة منزيكرت فى ضوء وثائق بسيللوس، بحث نشر فى مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية عام ١٩٨١.

الدينى الذى عقده فى مدينة بياكنزا فى شمال ايطاليا فى مارس ١٠٩٥م، وعرض طلباتهم على المجتمعين. وقد انتهى مجلس بياكنزا وواصل البابا طريقه إلى جنوب فرنسا، ويبدو أن فكرة المناداة بالحروب الصليبية كانت قد اختمرت فى رأسه اثناء رحلته هذه، وتقرر عقد مجلس دينى آخر فى مدينة كليرمونت فى جنوب فرنسا، وقد استمر اجتماع المجلس فى الفترة من ١٨ إلى ٢٦ نوفمبر ١٠٩٥م واشترك فيه عدد كبير من رجال الدين وشمل جدول اعماله عدة موضوعات كنسية وصدرت قرارات مثلما حدث فى مجلس بياكنزا، ثم أعلن البابا عن اجتماع عام يعقد فى ٢٧نوفمبر، وقد حضر ذلك الاجتماع اعداد كبيرة من رجال الدين والعلمانيين، وألقى البابا ايربان الثانى خطابه الشهير الذى وصل الينا عن طريق أربعة من المؤرخين المعاصرين هم: فولشير اوف شارتر Fulcher of Charter ، وروبرت الراهب Robert the Monk ، وبودرى اوف دولز Baudri of Dols ، وجيبرت اوف نوجنت Guibert of Nogent ، وقد بدأ البابا ايربان خطابه حاثاً المسيحيين على مساعدة اهالى الدولة البيزنطية ونجدتهم، وقال بان الاتراك السلاجقة كانوا يتقدمون فى قلب الاراضى المسيحية مسيئين إلى الاهالى ومدنسين الاماكن المسيحية، كما أشاد بأهمية مدينة بيت المقدس، ووصف الصعوبات التى يلقاها الحجاج المسيحيين إلى الاراضى المقدسة فى فلسطين، وبالغ فى ذلك بطبيعة الحال حتى يثير شعور الغرب الاوروبى ضد المسلمين، ثم أخذ يحض الناس على تقديم المساعدة ووعد بالغفران التام لمن مات فى هذه الحرب، واشار إلى بؤس الحياه فى الغرب وأن الناس هناك يدفعون بانفسهم إلى مواطن التهلكة جسمانيا وروحيا، فى حين انهم بذهابهم إلى الشرق فانهم سوف يحصلون على السعادة والرخاء فى دنياهم ورضاء الله فى آخرتهم.

وقد كان البابا ايربان بليغا فى اسلوبه، عذب قوى ومؤثر فى كلماته، وفور انتهائه من ندائه استجاب له الحاضرون وتعالت صيحاتهم، هذه ارادة الله. (Deus Vult).

وقد أعقب ذلك دعاية واسعة للحروب الصليبية، وأخذ البابا ايربان فى ارسال الرسائل لرجال الكنيسة والملوك والامراء وكبار رجال الاقطاع يدعوهم جميعاً للاشتراك فى الحركة والتبشير بها، وقد لقيت دعوة البابا ايربان الثانى استجابة عظيمة واخذت الرسائل تتوالى عليه من اقصى انحاء اوروبا، من شمالها إلى جنوبها طالبة الاشتراك فى هذه الحروب. وقد وضع البابا ايربان، من خلال مجمع دينى، عدة تنظيمات لهذه الحركة، ومنح المشتركين فيها امتيازات روحية اضفت عليها صفة الحرب المقدسة وكان أهم هذه الامتيازات ان كل من يشترك فى هذه الحرب تغفر له ذنوبه، كما أن ممتلكات المشتركين فى هذه الحرب سوف توضع تحت رعاية الكنيسة وحمايتها طوال مدة غيابهم وانها سوف ترد إليهم بعد عودتهم. كما نص كذلك على ان كل من يشترك فى هذه الحرب عليه أن يحيك صليبا باللون الاحمر على ردائه الخارجى من ناحية الكتف، رمزاً للحركة التى اشترك فيها وخرج للقتال من أجلها، وان كل من اتخذ شارة الصليب عليه ان يتجه فوراً إلى الشرق، فاذا أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ولم يذهب إلى الشرق فأنه يتعرض لعقوبة الحرمان. وتقرر أن يترك كل محارب موطنه فى ١٥أغسطس بعد جمع المحصول، وان تجتمع كل هذه القوات فى العاصمة البيزنطية القسطنطينية، كما عين البابا ايربان مندوباً بابوياً ينوب عنه فى الحملة هو أدهيمار Adhemar اسقف كنيسة بوى Puy وهو فرنسى الأصل وكان قد سبق له الحج إلى الاراضى المقدسة فى فلسطين، كما كان أول من استجاب لنداء البابا فى مجمع كلير مونت. والواقع أن تعيين مندوب بابوى للاشراف على الحملة انما اراد به البابا ايربان ان يظهر بجلاء ان هذه الحروب تحت إمرة الكنيسة مباشرة.

وهكذا وضعت اسس الخلاف ومنذ البداية بين الصليبيين والدولة البيزنطية، هذا الخلاف الذى استمر بين الطرفين طوال عصر الحروب الصليبية، ذلك ان الامبراطور اليكسيوس كومنينوس حينما ارسل سفارته إلى

البابا ايربان الثانى طالبا مساعدة الغرب الاوروبى له فى نضاله ضد السلاجقة المسلمين انما كان يريد أن يرسل له البابا جيشا منظما من الفرسان يكون تحت إمرة الامبراطور ويخوض به حرب عسكرية من أجل تحقيق هدف سياسى ألا وهو استرداد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية للامبراطورية البيزنطية، فاذا بالبابا ايربان يحوّل الموضوع الى حرب دينية ضد المسلمين تحت إشراف الكنيسة الغربية ومن أجل تحقيق هدف دينى (ظاهريا) ألا وهو الاستيلاء على الاراضى المسيحية المقدسة فى فلسطين. ومعنى ذلك ان الامبراطورية البيزنطية استبدلت عدو بعدو آخر، وان ممتلكاتها قد ضاعت، وانتقلت من يد المسلمين إلى يد الصليبيين، وهذا ما سوف يحاول الامبراطور اليكسيوس كومنينوس ان يتفاداه فى اتفاقية القسطنطينية فى ابريل ١٠٩٧م بينه وبين الحملات المنظمة فى الحرب الصليبية الاولى فهل سينجح فى هذا؟

الحملة الصليبية الأولى

الملاحظ ان الحملة الصليبية الأولى قد تكونت من شقين الشق الأول ما عرف باسم (صليبية الفلاحين) أو (الحملة الشعبية) مثل حملة بطرس الناسك ووالتر المفلس وإميخ وفولكمار وجوتشوك وغيرهم، والشق الثانى كان من الحملات المنظمة المكونة من الفرسان وهو ما عرف باسم (صليبية الأمراء).

وتعتبر حملة بطرس الناسك هى اشهر الحملات الشعبية وقد اطلقت عليه الاميرة آنا كومنينا Anna Comnena إبنة الامبراطور اليكسيوس كومنينوس التى أرخت لعصر والدها فى سيرة ذاتية اسمتها اليكسياس، اسم كوكو بطرس Cucupetrus ، ومعناها بطرس الواقواق نسبة إلى طائر الواقواق الذى يكرر وقوقته بشكل رتيب حيث كان بطرس يكرر نفس كلامه مرارا وتكرارا. وبطرس هذا كان رجلا متقدما فى العمر حاول أن يقوم

بالحج إلى بيت المقدس، ولكنه تعرض فى الطريق لمشاكل خاصة بالحرب التى كانت مشتعلة بين الاتراك السلاجقة المسلمين والدولة البيزنطية، والتى كان مسرحها منطقة آسيا الصغرى، فعاد بطرس إلى وطنه دون أن يحقق أمنيته، مما ترك أثرا سيئاً فى نفسه. وكان بطرس هذا لا يملك من حطام الدنيا سوى حمار أعرج، وبمجرد ان سمع بطرس بدعوة البابا ايربان الثانى للحروب الصليبية تلقف الخبر وأخذ يذرع أقاليم فرنسا داعياً الجماهير للاشتراك فى هذه الحرب، ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء فى فرنسا، بحيث انهم كانوا لا يكادون يستمعون إلى حديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيجتمعون فى سرعة غريبة ويشرعون فى الزحف صوب الشرق دون إعطاء البابا والأمراء فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيماً جدياً من الناحيتين السياسية والعسكرية.

ونظراً لهذا كله فان عدد من المؤرخين يرجعون قيام الحروب الصليبية إلى شخصية بطرس الناسك، ولعل أول من حمل بطرس الناسك مسئولية قيام الحروب الصليبية هى الأميرة أنا كومنينا التى ذكرت فى كتابها (اليكسياس) ان السبب فى قيام الحركة الصليبية التى اشترك فيها الغرب اللاتينى كله وقبائل البرابرة يرجع إلى بطرس الذى يعرف باسم بطرس الواقواق، الذى حاول القيام بزيارة القبر المقدس، ولكن حال الاتراك المسلمين بينه وبين هذه الزيارة، فدبر خطة ماكره تتيح له زيارة هذه الاماكن المقدسة مع غيره من جموع اللاتين، وأخذ يبشر فى المدن اللاتينية مدعيا بان صوت الله هو الذى يأمره بدعوة جميع نبلاء فرنسا لهجر ديارهم والتوجه لاداء فروض العبادة عند القبر المقدس وتخليص أورشليم من سيطرة المسلمين[1].

---

[1] Anna Comnena: Alexias , in C.S.H.B. ed. Bonnae, vol 11, liberx, pp. 29-30 in Greek.

وذكرت آنا فى موضع أخر من كتابها، ان بوهيمند النورماني والعديد ممن على شاكلته من اللاتين الذين كانوا يطمعون فى الامبراطورية الرومانية، ويريدون الاستيلاء عليها، وجدوا فى دعوة بطرس حجة يتعللون بها للاشتراك فى هذه الحروب، وخدعوا السذج وكانوا سببا فى قيام هذا التحرك العظيم، وباعوا اراضيهم متذرعين بأنهم متوجهون لتخليص القبر المقدس من يد الاتراك[١] .

على أية حال فقد أخذ بطرس جموعه هذه من الاقنان الذين هجروا حياتهم فى الغرب الاوروبى من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يكونوا على دراية بالقتال، كما انهم لم يكونوا مسلحين بأكثر من فأس أو بلطة أو عصى، وقد غادر بهم مدينة كولونيا مشيا على الاقدام فى ابريل ١٠٩٦م. مخترقا ألمانيا ثم هنغاريا حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية فى شرق اوروبا، وقد تعرضت بعض البلاد الهنغارية للسلب والنهب من جانب هؤلاء الرعاع، وخاصة بلدة سملين Semlin فى هنغاريا التى طالب الصليبيون اهاليها بتزويدهم بالمؤن اللازمة لهم، فرفض الاهالى، فما كان من الصليبيين إلا أن أجروا مذبحة مروعة لأهالى هذه البلدة المسيحية، وكان لابد لهذا الحادث أن يكون له رد فعل لدى السلطات البيزنطية التى شعرت بالارتياب والشك فى نوايا هذه الجموع التى جاءت إلى الشرق لتحارب من أجل المسيح والمسيحية فاذا بها تذبح الألاف من المسيحيين الأبرياء من سكان هذه البلده الأمنة، كما انه دفع الامبراطور اليكسيوس كومنينوس إلى اتخاذ سياسة معينة تجاه هذه الجموع، هدف من ورائها إلى حماية شعبه وممتلكاته فى منطقة البلقان من شرور هذه الأقوام، فأرسل بعض الموظفين البيزنطيين اشرفوا على قيادة هذه الجموع، والحيلولة بينهم وبين نشر الفوضى واعمال

---

(1) Anna Comnena, p.36

السلب والنهب ضد رعايا الامبراطور، ورغم عدم سيطرتهم الكاملة على هذه الجموع إلا أنهم تمكنوا من الوصول بهم امام اسوار القسطنطينية.

وقد أصيب الامبراطور اليكسيوس وشعبه بخيبة أمل كبيرة، بعد ما رأوا هذه الجموع البائسة امام عاصمتهم، الذين سببوا متاعب جمة للامبراطور اثناء تواجدهم امام العاصمة البيزنطية، اذ لم يكفوا عن نهب القرى والضياع المجاورة، والاعتداء على الأهالى وسلبهم قوتهم وامتعتهم، بل وامتد أذى هذه الجموع إلى الكنائس والأديرة. وأمام هذه الظروف الصعبة التى تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية من جانب هذا الطوفان الهادر الآتى من الغرب، أصدر الامبراطور اوامره بنقل هذه الجموع إلى مدينة قزيقوس على الساحل الآسيوى للبسفور ونصحهم الامبراطور بالتزام الهدوء وعدم الاشتباك مع الاتراك السلاجقة، حتى تصلهم الامدادات العسكرية والحملات النظامية من الغرب الاوروبى، غير أن هذه الجموع لم تخلد إلى السكينة وانما استمرت فى النهب والسلب من الأماكن المجاورة لهم، وانتهزوا فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور فى اكتوبر ١٠٩٦م. وزحفوا على أقرب مركز للاتراك السلاجقة وهو مدينة نيقية مركز السلطان قليج ارسلان بن سليمان بن قتلمش، والتى كانت تبعد عنهم عدة كيلو مترات فقط، وقد أحرز الصليبيون الذين كان عددهم يقرب من الخمسة والعشرون ألف منهم حوالى الخمسمائة فارس فقط، والباقى من المشاة المعدمين، بعض الانتصارات المبدئية مما شجعهم على المضى فى طريقهم إلى نيقية، ولكن السلاجقة اطبقوا عليهم وحولوهم إلى كوم من الاشلاء، ولم ينج منهم سوى حوالى الثلاثة آلاف فقط، حملتهم السفن البيزنطية وعادت بهم إلى القسطنطينية ليشملهم الامبراطور اليكسيوس بعطفه ورعايته، وظلوا هناك حتى وصول الحملات النظامية.

كان هذا هو المصير الذى آلت إليه حملة بطرس الناسك، ولم تصادف الحملات الشعبية الاخرى نجاحا، ولم يكن حظها أفضل من ذلك، حتى أن المؤرخ جروسيه Grousset اعتبر هذه الحملات الشعبية وصمة سوداء فى تاريخ الحركة الصليبية[1].

ولم تلبث الحملات النظامية من الفرسان أو ما أطلق عليه اسم حملات الامراء، ان وصلت امام العاصمة البيزنطية واحدة تلو الاخرى، وبلغ عددهم أربع حملات، وكان أول من وصل منهم هى الحملة التى تولى قيادتها جودفرى دي بوايون امير لوثرنجيا الذى كان شخصا أمينا تقيا ومحاربا شجاعا محبوبا من رجاله، وقد تمتع بمكانه سامية داخل الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكان الطابع العام لحمله جودفرى طابعا فرنسيا، حيث أن معظم المشتركين كانوا من القطاع الفرنسى، ولم يشترك من القطاع الالمانى سوى عدد قليل من الفرسان وقد اتخذت الحملة طريق شرق اوروبا ومرت بهنغاريا حتى وصلت إلى حدود الامبراطورية البيزنطية.

وكان ثانى الحملات التى وصلت امام القسطنطينية هى الحملة النورماندية بقيادة بوهيمند النورمانى، وهو الابن الاكبر لروبرت جويسكارد، ذلك الداهية الذى دوّخ الامبراطورية البيزنطية بأطماعه فيها، وكان روبرت قد أوصى بملكه فى جنوب ايطاليا (ابوليا وكالابريا) لابنه الأصغر روجير، لذلك أصبح بوهيمند بدون ملك او اقطاع إلا اليسير، وقد أراد استقطاع بعض الممتلكات بالقوة فى ايطاليا، فنزل محاصرا لأمالفى، وظل أمامها حتى رأى جموع الصليبيين فى طريقهم إلى الشرق وسمع بالحركة الصليبية، فترك حصار أمالفى ووجد فى هذه الحروب فرصته الذهبية لتحقيق طموحاته فى الغزو والفتح وتكوين امارة خاصة به فى الشرق، وقد صحبه ابن اخته

---

[1] Grousset: Histoire des Croisades, vol 1, p. 9.

تانكرد. وقد سببت حملة بوهيمند فزعا هائلا للامبراطور البيزنطى لدى سماعه بها، فلم يكن اليكسيوس قد نسى بعد ما سببه له روبرت جويسكارد من متاعب، لكن بوهيمند كان حريصا على محو أية شكوك لدى الامبراطور، وأظهر مرونه وطاعة لاوامر الامبراطور ازالت من نفسه الشك.

أما ثالث هذه الحملات النظامية، فكانت بقيادة الامير الفرنسى ريموند الرابع دى سان جيل أمير تولوز وبروفانس، الذى وصفه أحد الكتاب المعاصرين بقوله: (كان فى تعصب الرهبان أما فى حب امتلاك البلاد فكان فى جشع النورمان). وقد خصه البابا بشرف مصاحبة المندوب البابوى أدهيمار لحملته، وهو شرف لم تنله باقى الحملات الصليبية التى خرجت إلى الشرق. وقد سبب ريموند بعض المتاعب للامبراطور اليكسيوس لكن الأمر انتهى بتصفية الأجواء بينهما.

وأخيراً وصلت الحملة الفرنسية التى اشترك فيها ثلاثة من القادة لهم أهميتهم، هم الكونت روبرت أوف فلاندرز، وكان والده قد زار الاراضى المقدسة فى فلسطين، كما كان على اتصال بالامبراطور اليكسيوس، وروبرت دوق نورمانديا، وهوشقيق وليم الفاتح أول ملوك انجلترا من النورمان، وستيفن اوف بلوا وشارتر، وهو صهر وليم الفاتح، ويعد أحد كبار الاثرياء فى اوروبا، ويقال انه كان يمتلك ٣٦٥حصناً، واحد لكل يوم من أيام السنة، وقد حضر هؤلاء الثلاثة سويا عن طريق ايطاليا، وصحبهم كاتب الحوليات فولشير اوف شارتر Fulcher of Charter .

وقد اجتمعت كل هذه الحملات مع بقايا حملات العامة على شاطئ البسفور، وبلغت اعدادهم من الضخامة بحيث انه كان من الصعب تقدير عددهم على وجه الدقة، وقد قالت المؤرخة المعاصرة الاميرة آنا كومنينا ان اعدادهم فاقت نجوم السماء، ورمال الشاطئ واوراق الشجر.

ومنذ وصول أول حملة نظامية، وهى حملة جودفرى دى بوايون بدأت تظهر السياسة البيزنطية تجاه (المسألة الصليبية) تلك السياسة التى ارساها ووضع قواعدها الامبراطور اليكسيوس كومنينوس، والتى سار عليها خلفاؤه من بعده حتى نهاية الحروب الصليبية.

وأول شق فى هذه السياسة، هى المحافظة على املاك الامبراطورية فى منطقة البلقان من عبث وتخريب هذه الجموع الصليبية، وحماية أرواح المواطنين من رعايا الامبراطور الآمنين فى هذه المناطق. وقد بنى الامبراطور سياسته هذه على مبادئ معينة لجأ إليها بالترتيب وهى الترغيب، التهديد، ثم الردع.

والشق الثانى فى سياسته تجاه هؤلاء الصليبيين هى انه ان لم يكن من الممكن وقف تدفق هذا الطوفان البشرى المتجه إلى الشرق، فلا أقل من الاستفادة بهم فى استرجاع ممتلكات الامبراطورية البيزنطية التى استولى عليها الاتراك السلاجقة فى منطقة آسيا الصغرى. وتنفيذاً لهذه السياسة طلب اليكسيوس من قادة الحملات الصليبية النظامية، وأولهم جودفرى دى بوايون أن يقسموا له يمين الولاء والتبعية، بمعنى أن يكونوا قادة فى جيشه تحت إمرته يحارب بهم ويسترجع ممتلكاته، ولم يكن تحقيق هذا القسم بالشئ السهل الهين، وانما لقى معارضة ومقاومة من جانب القادة الصليبيين، ولم ييأس الامبراطور من جانبه، وانما لجأ إلى الترغيب عن طريق بذل الهدايا والاموال الكثيرة، فلم يستجيبوا، فامتنع عن تقديم المؤن والاغذية لهم، كنوع من الضغط عليهم، ولم تأت هذه السياسة ثمارها المرجوة، فاضطر لانزال الجيش البيزنطى إلى الساحة وقتالهم، وعن طريق هذه السياسة انتهى الأمر برضوخهم لمطالبه، وتم ابرام اتفاقية القسطنطينية فى ابريل ١٠٩٧م. وفيها اقسم زعماء هذه الحملات النظامية يمين الولاء والطاعة للامبراطور

البيزنطى، باستثناء ريموند الرابع الذى اقسم على احترام حياة الامبراطور وشرفه وألا يقوم هو أو رجاله بعمل يسئ إليه، كما تعهد قادة هذه الحملات بوضع قواتهم الصليبية فى خدمة الامبراطور لاسترداد الاراضى التى اغتصبت من الامبراطورية وكانت فيما مضى من ممتلكاتها.

وهذا التعهد على جانب كبير من الخطورة، لان الامبراطورية البيزنطية اختارت الا تفسر هذا التعهد فى ضوء الاراضى التى استولى عليها السلاجقة فى آسيا الصغرى، وانما هدفت إلى استرداد كل املاكها التى فتحها المسلمون فى الشام وفلسطين، وان تتمسك بهذا التفسير والمطالبة بحقها هذا طوال القرن الثانى عشر الميلادى، مما أوقعها فى مشاكل جمه مع الصليبيين الذين أرادوا بحركتهم هذه تكوين اقطاعات لهم وامارات خاصة بهم.

ولم يكتب لهذه الاتفاقية ان تعمر طويلاً، وذلك بسبب تضارب مصالح كل طرف من الطرفين مع الطرف الآخر، وقد عبرت القوات الصليبية مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى، وحاصرت مدينة نيقية التابعة للسلاجقة، والملاحظ أن الامبراطور اليكسيوس لم يصاحب الصليبيين اثناء زحفهم على نيقية ولا اثناء حصارهم لها، وانما أرسل قوة صغيرة صاحبت الصليبيين، كما زودهم بالمؤن والأغذية اللازمة لهم، وكان حاكم نيقية السلطان السلجوقى قليج أرسلان متغيبا عنها، فنزل الصليبيون محاصرين لها فى مايو ١٠٩٧م. واستمروا فى حصارهم حوالى الشهر، وعندما ادرك أهالى نيقية عدم جدوى المقاومة لتأخر وصول النجدة التى ارسلها إليهم قليج أرسلان قرروا أن يسلموها للامبراطور البيزنطى خوفاً من بطش الصليبيين بهم وانتقامهم منهم، فأخذوا يتصلون سراً برجال الامبراطور ولم يضيع هذا الفرصة فتدخل بسرعة وفاوض الحامية على اساس استسلام المدينة مقابل تأمين أرواح أهلها. وهكذا فوجئ الصليبيون بارتفاع الاعلام البيزنطية فوق نيقية فى ٢٦ يونيو ١٠٩٧م. وكانوا بطبيعة الحال لا يعلمون شيئاً عن المحادثات السرية

التى دارت بين حامية نيقية والامبراطور البيزنطى، ولم يخفى الصليبيون استيائهم من مسلك الامبراطور الذى حرمهم من الغنائم والاسلاب التى كانوا يطمعون فى الحصول عليها من هذه المدينة، ولكى يتغلب اليكسيوس على خيبة أمل الصليبيين، ويتجنب عداءهم له، أخذ يفرق على كبار قادتهم هدايا قيمة وثمينة، لدرجة أن ستيفن اوف بلوا وشارتر أرسل خطابا إلى زوجته فى الغرب الاوروبى يقول لها فيه انه تسلم من الامبراطور هدايا تفوق قيمتها البائنة الكبيرة التى تسلمها منها عند الزواج، كما وزع الامبراطور على الصليبيين من العامة نقوداً نحاسية لم ترضيهم بطبيعة الحال، مما دفع أحد المؤرخين المعاصرين إلى القول (لقد اظهر الامبراطور اليكسيوس من الاعتراف بالجميل للصليبيين ما سوف يجعلهم ينزلون عليه اللعنة دائما ويتذكرونه كخائن)[1].

هذا وقد أخذ سوء التفاهم والعداء يتزايد بين البيزنطيين والصليبيين منذ حادثة نيقية هذه، مما كان له أثر كبير على العلاقات بينهما فيما تلى من أحداث. وعلى أية حال فقد اتخذ الصليبيون طريقهم إلى بيت المقدس وكانوا يأملون فى الوصول إليها بعد عدة اسابيع، فقد قال ستيفن اوف بلوا وشارتر فى خطابه لزوجته السالف الذكر (اننا سوف نكون فى بيت المقدس فى غضون خمسة اسابيع، ما لم تقاومنا انطاكية). ولكن خاب ظنهم وامتدت الخمسة اسابيع هذه إلى اكثر من عامين وذلك بسبب الاخطار والصعاب التى عرضت لهم، كما دب الخلاف بين زعماء الحملة بسبب الصراع على امتلاك البلاد، بدلا من ان يتفرغوا جميعا لخدمة القضية الكبرى التى خرجوا من أجلها. ومما ساعد على المعاناة الكبيرة التى عاناها الصليبيون ان الاتراك السلاجقة اثناء انسحابهم امامهم خربوا البلاد حتى يعيقوا تقدم اعدائهم مما ادى إلى نقص كبير فى الطعام والماء، كما عانوا ايضا من ارتفاع درجة

---

(1) Runciman: The Crusades, vol 1, p.p. 81-82.

الحرارة فى شهور الصيف. ومما يؤكد ذلك ما جاء فى احد الحوليات اللاتينية المعاصرة التى ذكرت (كان تقدم قواتنا عبر صحراوات واراضى جرداء لا يقيم بها أحد ولم نتمكن من الهرب منها احياء إلا بصعوبة كبرى، وقد عانينا فيها الكثير من الجوع والعطش، فلم يكن هناك أى شئ يؤكل سوى تلك الحبوب التى كنا احيانا نعثر عليها، وكنا نقوم بسحقها على اكفنا ونقتات منها، وقد اختفى اغلب فرساننا، اذ أنهم على اثر موت خيولهم قد اصبحوا من المشاة، ولحاجة رجالنا إلى الركائب اضطر الكثير من الفرسان لان يمتطوا الثيران، كما حمل المتاع على الماعز والاغنام والكلاب).

ورغم هذه الصعاب التى عانى منها الصليبيون فى الحملة الصليبية الاولى إلا انها كانت أنجح الحملات الصليبية على الاطلاق، اذ تمكنت من تكوين ثلاث امارات هى امارة الرها، أمارة انطاكية، امارة طرابلس، كما تمكنت من فتح بيت المقدس وتكوين مملكة صليبية بها. ولن نخوض فى تفاصيل فتح الامارات الثلاثة، ولكن من الأهمية بمكان ان نعرض لفتح بيت المقدس، وكيفية استيلاء الصليبيين على هذه المدينة المقدسة.

كانت بيت المقدس فى هذه الفترة تحت سلطان الخلافة الفاطمية المسيطرة على مصر، وكانت هذه الخلافة فى أواخر ايامها حيث ضعفت سلطة الخلفاء وتحكم الوزراء فى شئون الحكم. وكان حاكم مصر الفعلى فى هذه الأونة الوزير الأفضل شاهنشاه (١٠٩٥-١١٢١م)، وقد علم الافضل بنزول الصليبيين فى بلاد السلاجقة فى آسيا الصغرى وشمال الشام وانهم يحاربونهم، ولما كان هناك عداء بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة، بالاضافة إلى استيلاء السلاجقة على املاك الفاطميين فى الشام وفلسطين، لذلك فقد هداه تفكيره إلى التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة، فارسل إليهم فى اوائل عام ١٠٩٨م. وكانوا يحاصرون انطاكية رسلا من طرفه، عرضت عليهم عرضا غريبا ان دل على شئ فانما يدل على مدى جهله بهدف الحركة

الصليبية، وكان مضمون هذا العرض ان يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة وتقسيم املاكهم بحيث يأخذ الصليبيون الشام (سوريا) ويأخذ الفاطميون فلسطين. وهذا العرض فى غاية السذاجة لان الصليبيين لم يقوموا بحركتهم هذه ويغادرون اوطانهم ويتحملون كل المصاعب التى مرت بهم إلا من أجل الوصول إلى فلسطين وما بها من آثار مسيحية مقدسة، وخاصة مدينة بيت المقدس.

وقد تميز رد الصليبيين على هذا العرض بالمكر والدهاء فردوا بسفارة مماثلة إلى القاهرة أكدت للوزير الأفضل حرصهم على التعاون معه للقضاء على العدو المشترك لكليهما وهم السلاجقة[1].

على ان السلطات الفاطمية لم تلبث ان وجدت ان الصليبيين يواصلون زحفهم نحو الجنوب، فادركت ان بيت المقدس هى هدفهم، فارسلت لهم سفارة وصلتهم وهم بالقرب من طرابلس، وقدمت لزعمائهم الكثير من الهدايا الثمينة والاموال الضخمة، واخبرتهم ان السلطات الفاطمية تسمح لهم بزيارة بيت المقدس ولكن فى مجموعات لا تزيد عن المائتين أو الثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين، فرد عليهم الصليبيون بانهم سيتمكنون من زيارة بيت المقدس ولكن بعون الله وليس بمساعدة من الفاطميين[2].

واصل الصليبيون تقدمهم حتى وصلوا إلى الرملة فى اوائل يونيو ١٠٩٩م. وهناك عقدوا مجلسا للحرب ناقشوا فيه عدة موضوعات لعل اهمها هو: هل يواصلون تقدمهم ويحاصرون بيت المقدس، ام يتوجهون إلى مصر للاستيلاء عليها، على اساس ان مفاتيح بيت المقدس موجودة فى القاهرة وانهم

---

[1] Michaud: 1, p. 362.
[2] *Guilleume de Tyr* 1. pp 305-306.

[illegible] لأنفسهم حياة آمنة [illegible] فلسطين فعليهم الاستيلاء على مصر أولاً(1).

وهكذا نجد أن فكرة رغبة الصليبيين فى الاستيلاء على مصر قد راودتهم منذ بداية حركتهم، وقد حاولوا فيما بعد تحقيق هذه الرغبة اكثر من مرة، مرة اثناء حكم عمورى الأول لمملكة بيت المقدس الصليبية، والصراع الذى قام بينه وبين نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى حول مصر هذا الصراع الذى خسره الصليبيون ونجت مصر من ايديهم، كما نجت فيما بعد اثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر، ثم اثناء الحملة السابعة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

واذا كان الصليبيون لم يستطيعوا تنفيذ هذه الفكرة بعد تكوين مملكة بيت المقدس الصليبية وتثبيت اقدامهم فى الشام وفلسطين، ورغم جحافل الصليبيين وأساطيلهم التى أتت من الغرب الاوروبى قاصدة مصر فى الحملتين الخامسة والسابعة، وفشلوا فى الاستيلاء عليها، فقد كان من الطبيعى ألا يجرؤ صليبيّ الحملة الأولى مع ضعف امكانياتهم العسكرية وعدم تثبيت اقدامهم بعد فى الشام وفلسطين على محاولة تنفيذ هذه الفكرة التى راودتهم بخصوص الاستيلاء على مصر.

لذلك، فقد اتجهوا صوب بيت المقدس، وبدأوا فى حصار المدينة يوم ٧يونيو ١٠٩٩م. وأخذوا فى الهجوم عليها بعدد كبير من آلات الحصار والهدم، وحوالى منتصف يونيو وصلت إلى ميناء يافا بعض سفن من اسطول جنوا وتمكنت هذه السفن من الاستيلاء على المدينة، وكانت هذه خطوة هامة

---

(1) Raymond d'Agiles, p.299.

[illegible] الصليبيين المحاصرين لبيت المقدس لانها أمدتهم بما يلزمهم من آلات الحصار ومواد التموين بشكل مكنهم من مواصلة الحصار، فى الوقت الذى كانت فيه الحامية الفاطمية محصورة داخل اسوار بيت المقدس دون أية مساعدة خارجية.

وقد ظل الصليبيون محاصرين لبيت المقدس حوالى الاربعين يوما، عانوا خلالها من شدة حرارة الجو، ثم انتشرت اشاعة مؤداها ان جيش فاطمى كبير فى طريقه لتخليص بيت المقدس من حصار الصليبيين لها، مما جعل الصليبيين يقومون بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة، وكان ذلك ليلة ١٤ يوليو ١٠٩٩م. وقد عمل الصليبيون برجين يطلان بهما على سور المدينة، احدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود، فقام المسلمون باحراق البرج الأول، أما البرج الثانى فقد ألصقه الصليبيون بالسور (وحكموا به البلد، وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد فانهزم المسلمون)[1].

وفى صباح اليوم التالى اى يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م. اشتد الهجوم واتخذ طابعا عنيفاً، مما اسفر عن اقتحام الصليبيين لبيت المقدس، واجروا به مذبحة عامة رهيبة قتلوا فيها اعداد كبيرة من المسلمين المحاربين وغير المحاربين من الاطفال والنساء والشيوخ، وقد احتمى عدد كبير من المحاربين واهالى المدينة وزوارها بالمسجد الاقصى، ولكن لم تثنى حرمة هذا المسجد هؤلاء الغزاة الاجلاف عن اقتحامه، واجروا به مذبحة مروعة حتى بلغ عدد القتلى داخل المسجد حوالى السبعين ألف قتيل كما ذكر ابن

---

[1] ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥ ، ص ١٤٨.

الاثير[١] وعدد من المؤرخين الشرقيين مثل ابن العبرى الذى قال (ولبث الفرنج فى البلد اسبوعا يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفا)[٢].

وقد اعترف بهذه الحقيقة المؤرخون الصليبيون انفسهم، فذكر وليم الصورى ان بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى اصبحت المدينة (مخاضة واسعة من دماء المسلمين اثارت خوف جنودنا واشمئزازهم)[٣]. وقد كتب قادة الصليبيين إلى البابا يفتخرون بهذا العمل الوحشى فقال ريموند دى سان جيل (وكانت ترى فى شوارع المدينة اكداس من الرؤوس والأيدى والأقدام، وكان من الضرورى ان يشق المرؤ طريقه فوق جثث الرجال والخيل .. وفى محراب سليمان مر فرساننا ودماء المسلمين تصل إلى ركب خيلهم)[٤].

ولم ينكر المؤرخون الاوربيون المحدثون هذه المذبحة ،بل ان المؤرخ رينيه جروسيه Grousset اعترف صراحة بان هذه المذبحة تعتبر وصمة عار فى تاريخ الحملة الصليبية الاولى[٥]. وقد ظلت هذه المذبحة تثير الأسى والألم فى نفوس المسلمين حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من الشام وفلسطين.

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ .

(٢) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٧.

(3) Guillume de Tyr, 1, p. 354.
(4) Krey: The First Crusade, p.261

راجع ايضا عن فتح بيت المقدس

Runciman: The Crusades, 1, pp. 265-314.
Grousset: Les Croisades, 1, pp. 116-163.
Stevenson: The Crusades in the East, pp. 30-34.

(5) Grousset: Histoire de Croisades, 1, p. 161.
Runciman: 1, p. 278.

وبعد هذه المذبحة الانتقامية، أخذ الصليبيون فى تنظيف مدينة بيت المقدس وتنظيم عملية الفتح واختيار ملك يحكمهم وبطريرك لكنيسة بيت المقدس، ولم يكن تبقى مع الصليبيين من زعماء الحملة سوى ريموند الرابع دى سان جيل، وجودفرى دى بوايون، وكان الأول يتمتع بقوة الشخصية، كما كان أوفر ثروة وجاها من الثانى، وهذا ما جعل الامراء يتخوفون منه ويختارون جودفرى دى بوايون ملكا على بيت المقدس. وقد رفض جودفرى لقب (ملك) كما رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى نفس المكان الذى ارتدى فيه المسيح تاجا من الشوك ، واتخذ لقب (حامى بيت المقدس).
Avocatus Sancti Spulchri

وكان يخاطب اثناء حكمه بلقب (الدوق) نسبه إلى مركزه فى الغرب الاوروبى كدوق لاقليم اللورين ولم يطل الوقت بجودفرى دى بوايون فتوفى فى ١٨ يوليو ١١٠٠م. وخلفه شقيقه بلدوين البولونى فى حكم بيت المقدس فى ١٠نوفمبر ١١٠٠م وأصبح أول (ملك) يحكم مملكة بيت المقدس الصليبية.

أما بالنسبة لمنصب بطريرك بيت المقدس فقد كان من المتوقع ان يتولاه المندوب البابوى ادهيمار، لكنه كان قد توفى قبل فتح بيت المقدس لذلك فقد تم اختيار ارنولف مالكورن رئيسا للكنيسة الكاثوليكية فى بيت المقدس، وكان رجلاً ذا مقدرة وعلى حظ وافر من العلم، ولكنه لم يستمر فى منصبه وقتا طويلا، حيث حل محله دايمبرت رئيس اساقفة بيزا الذى ارسله البابا مندوبا عنه خلفا لادهيمار.

لكن ما هو موقف أولى الأمر فى المشرق وهما الخلافتين الفاطمية والعباسية؟

فيما يتعلق بالخلافة الفاطمية فقد ظلت تغط فى سباتها العميق، ولم تفق منه إلا فى عام ١١٠١م. حين أرسل الوزير الأفضل المسيطر على الأمور

فى مصر، حملة كبيرة إلى فلسطين تقابلت مع الصليبيين فى موقعة الرملة الأولى، واستطاع الصليبيون الانتصار على هذه الحملة، كما انتصروا ايضا على الحملتين الأخرتين اللتين ارسلتهما فى موقعتىّ الرملة الثانية فى ١١٠٢م والرملة الثالثة فى ١١٠٥م.

أما بالنسبة للخلافة العباسية فقد كانت فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية دون أن يكون للخليفة العباسى أى ظل من السلطان والنفوذ، وكان الاتراك السلاجقة يسيطرون على الامور فى بغداد وكان محور اهتمامهم بلاد فارس، وقد ذهب إلى بغداد قاضى دمشق زين الدين ابو سعد الهروى وأخبر الخليفة العباسى بالكارثة التى حلت بالمسلمين فى الشام وفلسطين، واجتمع قاضى دمشق ووجهائها فى ديوان الخليفة (وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا، وقام القاضى فى الديوان وأورد كلاماً أبكى الحاضرين)[١].

ولم يحرك كل ذلك ساكنا لدى الخليفة العباسى أو السلطان السلجوقى بركيا روق، ووقع التقاعد.

وهكذا ضمن الصليبيون فى الشام قسطا من الاستقرار والأمان فى اوائل القرن الثانى عشر الميلادى، امام تدهور واضمحلال نفوذ الخلافة الفاطمية فى مصر والخلافة العباسية فى العراق.

---

[١] ابن الجوزى: مرآة الزمان ، حوادث سنة٤٩٢هـ .

الفصل الثانى

الحملة الصليبية الثانية

وبداية هزائم الصليبيين

رأينا في الفصل السابق الانجازات التي حققتها الحملة الصليبية الأولى على حساب المسلمين وممتلكاتهم في الشام وفلسطين، وما فعله صليبيّ هذه الحملة عند فتحهم لبيت المقدس، وتقاعس الخلافتين الفاطمية والعباسية.

على أن ظهور عماد الدين زنكى على مسرح الاحداث السياسية فى المنطقة، كان بشيرا ببداية عصر جديد من الصحوة الاسلامية والجهاد ضد الصليبيين لم ينتهى إلا بطرد هؤلاء الغزاه الغربيين من الشام وفلسطين إلى الأبد.

وينتمى عماد الدين زنكى[1] بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان إلى قبائل (الساب يو) التركمانية، التى اغفلت المصادر تحديد موطنها، وطبيعة علاقتها بالسلاجقة والدور الذى لعبته إلى جانبهم، وقد حظى والده ابو سعيد آق سنقر، الملقب بقسيم الدولة والمعروف بالحاجب، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذى لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية، فقد كان مملوكا للسلطان السلجوقى ملك شاه بن ألب ارسلان ومن المقربين إليه، وقد تربى معه ورافقه فى عهدى الطفولة والصبا، وعندما تولى ملك شاه السلطنه، اصبح آق سنقر (من اعيان دولته واكابر امرائه، واخص اوليائه، واعتمد عليه فى اموره كلها)[2]. وقد كافأه ملك شاه بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢م.، ولم يلبث أن قتل آق سنقر فى ١٠٩٤م. فنشأ عماد الدين بعد مقتل ابيه نشأة بعيده عن السلطان والنفوذ، وانخرط فى خدمة الامراء السلاجقة

---

[1] عن كل ما يتعلق بعماد الدين زنكي منذ نشأته وحتى مقتله راجع:

عماد الدين خليل: عماد الدين زنكى، رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد، ونشرتها الدار العلمية، بيروت، ١٩٧١.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب، جـ١ ، ص ١١

ابن العديم : زبن الحلبى ،جـ١ ، ص ص ١٠٣ - ١٠٤

ابو شامة: الروضتين ،جـ١ ص ٥٩.

حتى وصل إلى حكم الموصل سنة ١١٢٧م. وبدأ حكمه لهذه المدينة بتعميرها وتقويتها وفرض النظام والأمن بها، ومنذ البداية كان عماد الدين يؤمن ايمانا عميقا ان قيام وحدة للامارات الاسلامية فى الشام من الامور الضرورية لمواجهة الصليبيين،لذلك اخذ يستولى على ممتلكات جيرانه من المسلمين بهدف توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين، حتى تم له الاستيلاء على حلب فى ١٨ يونيو ١١٢٨م، حيث استقبله الأهالى بها استقبالا رائعا واظهروا من الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، واستولى كذلك على حماه فى سنة ١١٢٩م. كما استولى من الصليبيين على مدينة مرعش وكانوا قد استولوا عليها فى ١٠٩٨م. وبعد استرداد زنكى لها قام بارجاع الاراضى إلى كل من استطاع اثبات ملكيتها قبل الغزو الصليبى لها. وبينما زنكى فى الموصل مشغولا بالخلافات التى كانت مستمرة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، إذا بنائبه فى حلب سيف الدين سوار ينتهز فرصة الاضطرابات التى كانت تعانيها امارة انطاكية الصليبية، وقام بغزو الاراضى التابعة لها حتى وصل إلى اللاذقية، وقد بلغ عدد القرى الصليبية التى أغار عليها سيف الدين سوار حوالى المائة قرية، وعاد إلى بلاده ومعه (ما يزيد على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وأمرأة وصبى وصبية، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير)[1].

ولم يلبث زنكى ان استأنف جهوده لتوحيد الجبهة الاسلامية، فنزل على حمص محاصراً لها، وكان يحكمها معين الدين إنر، وفى ١١ يوليو سنة ١١٣٧م علم زنكى ان الصليبيين أتوا لنجدة حليفهم أنر وكانت هذه الجيوش الصليبية بقيادة الملك فولك نفسه ملك بيت المقدس، والامير ريموند الثانى امير طرابلس، فاضطر زنكى أن يرفع الحصار عن حمص وذهب لمقابلة الصليبيين، وانزل بهم هزيمة ساحقة وقتل منهم اكثر من ألفين، وأسر

---

[1] ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .

الكثيرين وكان من بينهم ريموند الثانى امير طرابلس، ويصف ذلك ان الاثير في عبارة موجزة فيقول: (وحمل عليهم عسكر عماد الدين ،فكسرهم ومحقهم قتلا واسرا وحصل لهم من الغنائم الشئ الكثير)[1] .

أما الملك فولك فقد تمكن من الفرار والاحتماء فى قلعة بعرين فتبعه زنكى وحاصره بها، فارسل الملك فولك يستنجد ببطريرك بيت المقدس وجوسلين الثانى امير الرها، وريموند دى بواتييه امير انطاكية، وحينما علم زنكى باقتراب وصول النجدات إلى قلعة بعرين، وافق على عقد الصلح مع الصليبيين في اغسطس ١١٣٧م. ونص هذا الصلح على ان يدفع الصليبيون للمسلمين خمسين ألف دينار مقابل اطلاق سراح الملك فولك، وباقى الاسرى الصليبيين. كما نص ايضا على ان يسلم الصليبيون قلعة بعرين للمسلمين، واعترف الصليبيون بامتلاك زنكى لما استولى عليه بالفعل فى عام ١١٣٥م. من مراكز صليبية وهى زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب[2] .

وهكذا أخذ زنكى يواصل جهوده لتوحيد الجبهة الاسلامية، وفى نفس الوقت منازلة الصليبيين حتى توجت جهوده ضدهم فى ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م. بالاستيلاء على مدينة الرها وهى أول امارة اقامها الصليبيون فى الشرق اثناء الحملة الصليبية الأولى.

وقد عامل زنكى اهالى الرها المسيحيين بمنتهى الرحمة والرأفة، وشملهم بحمايته ولم يسمح لأحد من جنوده بالاعتداء عليهم، بل أكثر من ذلك

---

[1] ابن الاثير: الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ

[2] ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٣١ هـ

Guillaume de Tyr, pp. 650-651.

امر جنوده (برد ما اخذوه من الرجال و الاطفال إلى بيوتهم، واعادة ما غنموه من اثاثهم وامتعتهم فردوا الجميع عن آخره)[1].

وفي منتصف سبتمبر ١١٤٦م. قتل عماد الدين زنكى اثناء حصاره لقلعة جعبر التابعة للمسلمين، وهىعلى نهر الفرات بين بالس والرقة، قتله أحد خصيانه ويدعى يرنقش، وقد كانت خسارة المسلمين بقتله فادحة لدرجة ان حامية قلعة جعبر انفسهم صاحوا فى القاتل (لقد قتلت المسلمين جميعاً بقتله).

وبعد اختفاء زنكى نجح جوسلين الثانى حاكم امارة الرها السابق بمساعدة أهاليها، من استعادة المدينة وكان ذلك فى أواخر اكتوبر ١١٤٦م. لكن قلعتها استعصت عليه، وظلت بيد حاميتها من الاتراك السلاجقة الشديدى البأس، مما دفع جوسلين الثانى إلى طلب النجدة من أمير انطاكية ريموند دى بواتييه، وامير طرابلس ريموند الثانى، ومليزاند الوصية على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية. لكن نور الدين ابن عماد الدين زنكى كان اسرع من كل هؤلاء فى الوصول إلى الرها، وقد وجد جوسلين الثانى نفسه فى موقف حرج نتيجة وقوعه بين فكى الكماشة فالحامية السلجوقية محتمية بالقلعة داخل الرها، ونور الدين محمود يحاصر المدينة من الخارج وبصعوبة تمكن جوسلين الثانى من الفرار من المدينة بعد أن أصيب بجرح فى رقبته، أما أهالى المدينة من السريان والأرمن والصليبيين فقد لقوا شر الجزاء على سابق

---

(1) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٢٩ هـ

ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٩

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ، ص ٩٤

تعاونهم مع جوسلين الثانى، وسيق الجميع اسرى إلى مقر نور الدين محمود فى حلب[1].

وقد كان لسقوط الرها فى يد المسلمين وللمرة الثانية رد فعل عنيف ودوىّ هائل فى الغرب الاوروبى، نظراً لما لحق بمختلف العناصر بها من قتل وتنكيل وتشريد على يد المسلمين، مما أثار غضب الغرب الاوروبى ودفعهم إلى المناداة بحملة صليبية جديدة، هى الحملة التى عرفت بالحملة الصليبية الثانية، للثأر مما لحق بأهالى الرها المسيحيين، واستعادة تلك المدينة ليد الصليبيين من جديد.

ولما كان البابا ايوجينيوس الثالث Eujenius III يعانى من بعض المشاكل التى اضطرته لمغادرة روما لبعض الوقت، لذلك فقد اضطلع ملك فرنسا لويس السابع بهذه المهمة، وافتتح قائمة المشتركين فى الحملة فى ٢٥ ديسمبر ١١٤٥م، وقام الراهب الفرنسى برنارد اوف كليرفو St. Bernard of Clairvaux بدور فعال فى الدعوة لهذه الحملة، وعن طريق خطبة الحماسية، استطاع ان يكسب مشتركون كثيرون فى فرنسا، ثم عبر الحدود وذهب إلى المانيا وحث ملكها كونراد الثالث والالمان على اتخاذ الصليب، وقد استجاب له الملك كونراد ووافق على الاشتراك فى هذه الحملة[2].

---

(1) Guillaume de Tyr, 1,pp 731-732
Michel le Syrien : Liber 111, p. 270

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤١

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٨

(2) Chalandon : Les Commene, Etudes sur l'Empire Byzantine au x1 et x11 Siecles, vol 11, paris 1912, p. 265
C. Med. H. ed. Bruy, p.307
Vasiliev : 11, p. 418-419.

وقد نعت المؤرخ الروسى اسبنسكى Uspensky هذه الحملة بأنها "الخطوة المشئومة، والخطأ الاكبر للقديس برنارد" أما المؤرخ الالمانى كوجلر Kugler فقد رأى أن فكرة الحملة الصليبية الثانية كانت "فكرة تعسة إلى ابعد الحدود"[1].

وقد أراد كل من لويس السابع وكونراد الثالث ان يشترك معهم فى هذه الحملة امبراطور الدولة البيزنطية مانويل كومنينوس، فجرت اتصالات بينهما وبينه وانتهت بالاتفاق بان يقدم مانويل للجيوش الصليبية المشتركة فى هذه الحملة المؤن والاغذية الضرورية، والأدلاء لارشادهم للطريق البرى، بشرط أن يقسم الصليبيون له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل صليبيو الحملة الأولى لجده اليكسيوس كومنينوس كذلك تضمن الاتفاق بان يعيد الصليبيون إليه أية أراضى يستولون عليها من الاتراك وتكون فيما سبق من ممتلكات الامبراطورية البيزنطية[2].

وقد قرر الملكان لويس وكونراد ان يسلكا الطريق البرى عبر منطقة البلقان التابعة للامبراطورية البيزنطية وتقرر ان يبدأ الالمان بالسير أولاً ثم بعدهم الفرنسيون، وقد امدنا المؤرخ البيزنطى المعاصر كيناموس الذى عاش خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، بتفاصيل دقيقة عن خط سير الحملة عبر منطقة البلقان والعلاقات البيزنطية الصليبية. خلال هذه المرحلة . وقد اولى كيناموس اهتماماً خاصاً للعلاقات البيزنطية

---

[1] Kugler : Studien Zur Geschichte des Zweiten Keru Zuges, Stuttgart, 1960,p. 96 .

[2] Cinnamus : Historiarum, p.80 .

الالمانيـــة[1] . لان هــذه العلاقــات كــانت ذات اهميــة خاصـــة للدولـــة البيزنطية فى هذه الفترة التاريخية نظراً لعلاقـات الـود والتحـالف والمصـاهرة التى ربطت بين الطرفين البيزنطى والالمانى ولمصالحهما السياسية المشـتركة التى كان لروجر الثانى ملك الصقليتين (صقليـة وجنـوب ايطاليـا) دوراً بـارزاً فى تشكيلها، لذلـك فقد تـم ابـرام تحـالف مشـترك بيـن الامـبراطور البـيزنطى مانويل كومنينوس والملك الالمانى كونراد الثالث ضد العدو المشـترك لكليهمـا وهو روجر الثانى، كذلك وتوثيقاً لهذا التحالف تم زواج مانويل كومنينوس من شقيقة زوجة كونراد وهى برثا اوف سلزباخ الالمانيـة فـى ١٢ ينـاير ١١٤٦م. وتعهد كونراد بالعمل على اعادة ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى ايطاليا (ابوليا وكالابريا) كصداق برثا لمانويل[2] .

وهكذا فقد اشترك الملك كونراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية وقـرر أن يسلك الطريق البرى عبر اراضى الدولة البيزنطية وهو مطمئن تماماً إلـى أنـه سـوف يلقـى كـل الـترحيب وكـل التعـاون مـن جـانب حليفـه وصهـره الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس.

ولكـن علـى عكـس مـا توقـع كونـراد، فلـم يكـد يصـل إلـى الاراضـى البيزنطية فى البلقـان، ويبـدأ فـى عبـور هـذه الاراضـى، حتـى فوجـئ بتغيير معاملة حليفه الامبراطور مانويل، الذى لجأ فى بعض الاحيـان إلـى اسـتعمال القوة العسكرية ضد حليفه وصهره الملك كونراد الثالث وجيشه من الالمان.

---

[1] راجع عن كل ما يتعلق بوثائق كيناموس فى هذا الموضوع المرجع التالى:
اسمت غنيم : العلاقات البيزنطية الالمانية خلال الحملة الصليبية الثانية فى ضوء وثائق كيناموس. الفنية للطباعة والنشر ، ١٩٨٨.

[2] إسمت غنيم : العلاقات البيزنطية الالمانية، ص ص ١٧-٢٠.

ولنا أن نتساءل عن اسباب التغيير الذى طرأ على العلاقات البيزنطية الالمانية وعكر صفو هذه العلاقات؟ ان ذلك فى الغالب يرجع إلى عاملين، **الأول:** هو ان اشتراك كونراد الثالث فى الحملة الصليبية الثانية قد أضر بالمصالح السياسية للدولة البيزنطية فى الغرب الاوروبى، ذلك ان التحالف البيزنطى الالمانى قام اساساً من أجل القضاء على روجر الثانى، وبناء على ذلك اصبح كونراد هو رجل البيزنطيين الاول فى الغرب، الذى عليه ان يراقب نشاط روجر العسكرى ويقف فى وجهه ويحول بينه وبين امتداد نفوذه وتوسيع ممتلكاته، بل والعمل على انتزاع الممتلكات البيزنطية فى ابوليا وكالبريا من يده واعادتها لبيزنطة من جديد.

وفى الوقت الذى كان فيه الامبراطور مانويل يخطط للقيام بعمل عسكرى مشترك مع الملك الالمانى كونراد ضد روجر الثانى، جاء اشتراك كونراد فى الحملة الصليبية الثانية مخيباً لآمال مانويل ومحطماً لخطته، كما ان غياب كونراد عن مسرح الاحداث فى الغرب الاوروبى، أدى إلى اطلاق يد روجر الثانى وجعله حراً فى مد نفوذه دون حسيب أو رقيب، لذلك قام فى خريف عام ١١٤٧ بشن هجوم مباشر على املاك الامبراطورية البيزنطية واستولى على كورفو Grfu وكورنث، وثيبس Thebes ، وتعتبر هذه المدن مراكز بيزنطية هامة لصناعة الحرير، وقد نهب هذه المدن وقبض على صناع الحرير البيزنطيين المهره، وحملهم معه إلى بالرمو، حيث اسسوا فيها صناعة الحرير النورمانية(١).

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى ضيق الامبراطور مانويل وتوتر العلاقات البيزنطية الالمانية.

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine Empire, pp. 382-383
Vasilier : vol 11, p. 381
Brehier : Vie et mort de Byzance, pp. 270-271

أما العامل الثانى الذى زاد من حدة التوتر بين الطرفين فهو تصرفات الجنود المنخرطين فى جيش كوبراد ضد رعايا الامبراطور البيزنطى فى منطقة البلقان وتفشى الفوضى بين صفوف جيشه، واحداث الشغب من نهب وتخريب واعتداء على حياة المواطنين البيزنطيين الآمنين فى هذه المناطق [1]. وقد اعترف كونراد فى خطابه للامبراطور مانويل بذلك صراحة، لكنه نسب ذلك إلى (الغوغاء) فى جيشه فقال مخاطبا الامبراطور:

(الباسيليوس ذو العقل الراجح، لايجب النظر فى المشكلة نفسها فحسب، ولكن البحث عن السبب الواضح الذى برزت من أجله، ان اى شخص يعتمد على الشر يفشل دائماً فى انجاز ما هو طيب من الاعمال، ولا يوبخ عادة مايبدو ظاهرياً انه عمل دنئ، وعلى عكس الاعتقاد السائد فان شخصاً ما يقابل بالترحاب فى بعض الاحيان من اعدائه، ولكن مرة اخرى يقابل بروح عدائية من جانب اصدقائه. لا تنسب إلينا الضرر الذى حدث مؤخراً فى أراضيك من جانب العامة فى جيشنا ولا تغضب لهذا السبب لاننا أنفسنا لم نقترف هذه التصرفات، لكن مبعثها كان الغوغاء الذين اندفعوا وراء شهواتهم، لقد كانوا ماهرين فى اقتراف هذه التصرفات بناء على رغبتهم الشخصية. حينما يكون هناك فى اى مكان جيش من الاجانب والغرباء يطوف ويتجول، فان بعضا منهم يحاول اكتشاف الاقليم والبعض الآخر يجمع المؤن الضرورية واعتقد انه من غير المعقول ان يكون الشر قد خطر على بال اى يد امتدت بالاذى.)

ورغم اعتراف كونراد الثالث بتصرفات جنده، فانه لم يبذل أدنى محاولة للسيطرة عليهم او كبح جماحهم وردعهم، وكأن هذا العدوان حق مشروع للصليبيين عامة ضد البيزنطيين، وقد أزعج ذلك كله الامبراطور

---

[1] عن تصرفات الالمان أثناء سيرهم فى منطقة البلقان والأذى الذى الحقوه برعايا الامبراطور البيزنطى راجع:
Cinnamus : Historiarum, pp. 70-73.

منويل واثار غضبه، ودفعه إلى الاتجاه إلى السياسة التقليدية للاباطرة البيزنطيين تجاه جموع الصليبيين وهي التي ارساها ووضع قواعدها جده الامبراطور اليكسيوس كومنينوس وهي سياسة الترغيب والتهديد ثم الردع.

وقد رد الامبراطور مانويل على رسالة كونراد في لهجة لا تخلو من السخرية والتهديد وكان رده كالتالى:

(أهواء العامة دائماً غير سهلة القيادة، ويصعب التحكم فيها، وهذا لا ينقذ بلادنا، هذا الأمر فى الواقع موضع اهتمامنا اكثر منك، الاجانب يجب ان يعبروا خلال اراضى مملكتنا دون خسائر، ودون ادعاء أو معاناة حقيقية من أى أذى يلحق بهم من جانبنا خشية ان ننال سمعة سيئة بين الجنس البشرى بسبب اقتراف ما هو ضد كرم الضيافة، حتى هذه الاشياء بالطبع ظهر بوضوح انها غير ذات اهمية بالنسبة لك. نظراً لأنك حاد الذكاء وشديد المهارة فى بحث طبيعة الاشياء على الوجه الصحيح، فنحن مدينون لك بالشكر، ونحن سوف لا ننظر بعين الاعتبار لكيفية كبح جماح الاندفاع الواسع النطاق لشعبنا ضدكم، ولكننا سوف نعزو ذلك إلى حماقة العامة، كما تعطفت واخبرتنا، لذلك لن يكون هناك فائدة كبيرة لك لسلوكك الطريق مع الجيش كله، ولا التجول كذلك فى ارض غريبة عنكم. نظراً لأن العامة يعتزمون ممارسة اهواءهم، وظهر أن ذلك هو الصواب، لذلك فان الارجح ان الغرباء سيقاسون الكثير على يد الأهالى).

ونتيجة لذلك فقد تأزم الموقف بين الطرفين الالمانى والبيزنطى، وحدث اشتباك عسكرى بينهما، وقتل من الجانب الالمانى عدد كبير، مما أدى إلى غضب كونراد، واصراره على الانتقال إلى الجانب الآسيوى، وقد طلب من

مانويل امداده بسفن من نوع الدرمونة[1] كي يستخدمها هو وجيشه في عبور البسفور والوصول إلى شاطئ آسيا الصغرى، ولما استمهله الامبراطور لبعض الوقت، ثار كونراد وهدد بفرض الحصار على العاصمة البيزنطية مما دفع الامبراطور مانويل إلى مخاطبته في رسالة جرت على النحو التالي: (من اجل هؤلاء القادرون على اجتياز الاختبار الدقيق، جرى العرف ان الامور لا يحكم عليها بالكم ولكن بالكيف، وعن طريق التفوق ومعالجة الخلل، ثمة احدهم يجب أن يبز المنافسون له في القتال لا عن طريق العدد، ولكن عن طريق التفوق والتمرينات والبراعة في هذه المسألة، حتى اذا كان هناك جيش كبير يتبعك ويفوق عدده قليلا الجيش الوطني، رغم ان الجانب الاكبر من الجيش الوطني مقسم بين مناطق كثيرة من امبراطورية الرومان. إلى جانب ذلك فهو (جيش كونراد) مجموعة من الدهماء، واعداد كبيرة من الاشخاص غير العسكريين، هل يعتد بقطيع من الخراف تزهو بكثرة عددها اذا ما صادفوا اسدا يثب وراءها؟ ام انك لا تدرى انك مثل العصفور تحت قبضتنا؟ انت لا ترغب في ان تهلك، ولا نحن نرغب في ذلك، فكر في انهم يملكون هذا الاقليم الذي جاب اجدادهم باسلحتهم انحاء المعمورة، واصبحوا سادة عليكم وعلى اى عنصر آخر تحت الشمس. يجب عليك ان تفكر ايضا انك لن تعتلى متن سفينة امبراطورية، ولن تنفذ بيننا ما تسعى إليه، لكن أرجل خيولكم سوف تحملكم عائدين على نفس الطريق، ويجب ألا تلومنا اذا نحن جعلنا انفسنا غير لطفاء مع هؤلاء الذين يقترفون الاثم والعدوان لان اقتراف الاثم والأخذ بالثأر شيئان مختلفان، الأول نشأ من قرار متخلف، بينما التحذير يقود الأخر. الاتفاق السابق بيننا يحفظ لنا حقنا، أية ارض سوف تسترجع

•

---

[1] الدرمونة هي نوع من السفن المستخدمة في الاسطول البيزنطي، وهي سفن قتال كبيرة الحجم، وهي تسير بأربعة صفوف من المجاديف وبلغ عدد مجاديفها من ٢٠٠ إلى ٢٣٠ مجدافاً، وتتسع الواحدة منها لسبعين مقاتلاً عدا المجدفين، ومنها ما هو اكبر فيتسع لمائتين وعشرين مقاتلا. راجع:

إسمت غنيم: الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ص ١٧٠-١٧١.

عما قريب من الجيران الاتراك، فان الرومان سوف يملكونها بالفعل، وبدون صعوبات، ان الذى لا نستطيع ان نتحمله هو مطالب شعبنا (مهاجمة الالمان) نحن سنجازف الآن بالعمل فوراً بوجهة نظرك).

وواضح ان هذه الرسالة قد اتسمت بلهجة التعالى، وحفلت بكلمات السخرية فجيش كونراد على كثرة عدده ما هو إلا مجموعة من الرعاع غير المدربين على الحرب بالاسلوب العلمى السليم الذى يتقنه البيزنطيون وتشبيهه الجيش الالمانى بقطيع الخراف التى تزهو بكثرة عددها، والملك الالمانى نفسه ما هو إلا عصفور تحت قبضة الامبراطور البيزنطى القوية، وهذا يوضح بجلاء ان الامبراطور البيزنطى كان مشبعا بالشعور بعظمته ومركزه السامى الرفيع الذى لا يصل اليه أى ملك من ملوك الغرب الاوروبى، اما الاباطرة الالمان فهم من وجهة النظر البيزنطية (محدثو نعمة) فأصلهم يرجع إلى البرابرة الجرمان الذين ظلوا على حدود الامبراطورية الرومانية ينظرون إليها بعين الحسد حتى واتتهم الفرصة وتمكنوا من الدخول إلى اراضيها واسسوا ممالكهم على انقاضها.

على أية حال تمكن كونراد وجيشه من استخدام بعض السفن الرديئة التى غالبا ما تكون موجودة على الشاطئ وعبر البسفور ووصل إلى ساحل آسيا الصغرى، وقد أرسل كونراد للامبراطور مانويل رسالة طلب فيها أمداده بمرشد يدلهم على الطريق عبر اراضى آسيا الصغرى فارسل إليه الامبراطور احد القادة ويدعى ستيفانوس، الذى اوضح لكونراد ان عليه ان يسلك احد طريقين، إما طريق الساحل الجنوبى لآسيا بعيداً عن الاتراك السلاجقة، وإما الطريق الآخر فى جوف البلاد مخترقاً اراضى السلاجقة، وقد اختار كونراد الطريق الثانى مما عرضه لكارثة حقيقية، ونرجع إلى كينا موس نستقى منه المعلومات عما حدث، قال: (..وإلى ان وصلوا إلى ميلانجيا

ودوريليوم[1] لم يحدث ما يعكر صفو الالمان ولكن حينما وصلوا إلى هناك فان عنصر الاتراك هاجموا المقدمة بجيش صغير ليختبروا قوتهم وليعلموا اى نوع من التنظيمات يتبعونها، حينما ظهر الاتراك امامهم، تقدم الالمان فى فوضى واندفعوا امامهم بحماس عظيم، وعندما اصبح الالمان على مقربة من معسكرهم، ولى الاتراك الادبار وتظاهروا بالفرار، ولكن حينما انهكت خيالتهم (الالمان) واصبحوا بعيدين عن معسكرهم، قام الاتراك بهجوم سريع عليهم وذبحوا الرجال والخيل، وقد تكرر حدوث نفس الشئ مراراً وتكراراً، فشعر الالمان بفزع عظيم، وهكذا يمكن ملاحظة ان هؤلاء الذين كانوا فيما سبق مفرطين فى التفاخر حينما هوجموا باسلوب همجى لا يمكن مقاومته، قد عجزوا بجبن وخسة عن فعل أو التخطيط لأى شئ، عندئذ اندفع كونراد (الذى كان جسوراً فى الحرب) ضد الاتراك، وقد فقد على الأخص الخيالة الخفيفة التى كان الامبراطور قد اهداها له واستولى البرابرة (الاتراك) عليها كلها.)

وهكذا أصيب الالمان بهذه الكارثة فى يوم ٢٦ اكتوبر ١١٤٧م. وقد اضطر كونراد إلى التراجع فى صعوبة بالغة إلى نيقية، ومعه من بقى من فلول جيشه فى حين غنم السلاجقة كميات لاحصر لها من الغنائم.

وبينما الالمان يعانون من هذه الظروف الصعبة وصل الملك لويس السابع إلى الاراضى البيزنطية فى البلقان بعد ان عبر الدانوب، (وتقدم فى سيره عازماً على انه لا ضرورة لان يصبح وقحاً مثل كونراد وقد رحب بالرسل الذين ارسلهم إليه الامبراطور، اعنى السباستوس ميخائيل باليولوجوس، وميخائيل ويسمى كذلك براناس، ووعد بالتعاون مع الامبراطور ورأى عدم الحاق اى أذى بالرومان وان كنت لا استطيع ان أرجح ايهما

---

[1] مدينة قديمة تقع فى الشمال الغربى للاناضول وتدعى حاليا (اسكى شهر) ومعناها المدينة القديمة.

الأصح، هل أخذ درساً من المصائب التى حلت بكونراد أم ان أخلاق الرجل وطباعه كانت هكذا، لذلك أنهى حديثه معبراً عن سروره للاستقبال الكبير من جانب الامبراطور. حينما اقترب من بيزنطة أرسل رسلا إلى الامبراطور، ووعد بتوطيد الصداقة، واتفق على الاشتراك معه فى بحث المسائل الهامة، وأكد على ضرورة مقابلة احدهما للآخر للاشتراك معا فى مباحثات فى القصر.) وذلك على حد تعبير كيناموس.

وقد قابله الامبراطور مانويل بالقصر الامبراطورى وتشاورا معاً، وذهب لويس لرؤية الآثار المقدسة الموجودة فى قصر بلاكرناى الذى يقع إلى الجنوب من العاصمة القسطنطينية، ثم اقسم على ان يكون صديقاً وحليفاً للامبراطور طوال حياته، وعبر البسفور إلى آسيا الصغرى، وفى نيقية التقى بكونراد وبقايا حملته الالمانية (حينما اجتمع الجيشان معاً (الالمانى والفرنسى) وضح بشكل عملى القول المأثور من قديم الزمان الذى يطلقونه على الالمان وهو (القدم الالمانية)، ولما كان الأمر يعود إلى اصله فاننى سوف اشرح ذلك على الفور، اسلوب هذه الامم فى القتال ليس على نفس النمط، الفرنسيون بصفة خاصة ماهرون فى اعتلاء ظهور خيولهم فى نظام حسن، وفى الهجوم بالرمح، وخيالتهم يبزون الالمان فى السرعة، الالمان بالطبع قادرون على القتال وهم مشاة أفضل من الفرنسيين، وهم ممتازون فى استعمال السيف الكبير، عندما يهجم الالمان على الفرنسيين فانهم يشعرون بشك فى خيالتهم ويصممون على خوض المعركة وهم مشاة، خوفاً من خوض المعركة بخيالتهم الغشيمة التى يهزمها الفرنسيون ويطاردون الجزء الاكثر مهارة من الالمان، ويردون هؤلاء المشاة الذين يسيرون على اقدامهم، مع انهم أقل عدداً بكثير، لذلك فهم يسخرون منهم بكلام معبر لانه بينما يكون ممكناً القتال وهم يعتلون ظهور خيولهم، فانهم يختارون القتال وهم مشاة) ويستطرد كيناموس قائلاً: (هذا الذى تكرر مراراً من الفرنسيين ضد الالمان اغضبهم كثيراً، بناء على ذلك ولان المجازفة بأخذ المركز الثانى خلف الفرنسيين على الطريق

يهددهم لذا فانهم ساروا معاً حتى وصلوا إلى فيلادلفيا، وهناك لم يستطع كونراد ان يتحمل استخفاف الفرنسيين به وعزم على العودة، وقد كتب إلى الامبراطور وافصح عن خطته، وكانت هذه الخطة كما تمنى (مانويل) وهى انفصال الملكان كل منهما عن الآخر وقد عطف (مانويل) على الرجل، وارسل له رسالة كانت على النحو التالي: 'الرجال المطالبون باعمال فكرهم يلاحظون ان الامور لا تعتمد على دورة الحظ، بصرف النظر عن اى تغيير فجائى، لذلك حينما كنت موفقاً، صممنا على عدم معاملتك فوق مستوى قيمتك، وانت الآن فى موقف حرج ونحن لا نتردد فى الترحيب بعودتك بنفس الاشياء التى نشتاق للقيام بها من أجل واجب الضيافة تجاه صهر هو حاكم لامم كبيرة، ولنتشاور معاً، ناظرين فى الظروف الحالية، من اجل نداء العقل ولاننا ايضا على دين واحد، اننى لا اعرف كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية لما هو مفيد لك، واخترت الشئ الأقل فائدة، طالما أنه من غير الممكن تغيير ما حدث، جئ الينا على وجه السرعة، ودعنا نفكر على الوجه الأكمل ما هو المفيد لنا، ما الذى لم تخسره حتى الآن، ان الحظ لا يقف جامداً، ولكنه يمتلك خاصية التغيير المستمر، أحدهم جنى شيئاً ما، هو حينئذ يستطيع ان يمتلك كل شئ، لكن حين يهلك فى الماضى، يكون مستحيلاً عليه ان يعود للحياة مرة اخرى، طالما انه يمكن معالجة امورك، فأسرع بالتمسك بما سوف يفيدك)، وانتهت الرسالة على هذا النحو.

كنراد الذى كان يشعر بمدى حماقته السابقة، ولكن لا يعرف ماذا يفعل، لم يكن راغباً فى اقتفاء أثر الفرنسيين وحينما وصلته رسالة الامبراطور، آمن ان الحظ قد وافاه، وتلقى النصيحة بسرور وعاد مسرعاً حتى وصل إلى الهللسبونت، وعبر المضيق إلى تراقيا، وقابل الامبراطور، الذى كان موجوداً هناك، وعاد معه إلى بيزنطة[1]، وهناك تتابعت التسلية واحدة تلو الأخرى،

---

[1] كان ذلك فى شتاء ١١٤٧-١١٤٨م.

من قصور امبراطورية، إلى عروض مسرحية متنوعة، وسباقات خيل، واستقبالات فخمة، وعن طريق ذلك استعاد حيويته ونشاطه اللذين كان قد فقدهما نتيجة ارهاقه، وقد زود بذخيرة كافية وخرج إلى فلسطين فى سفينة ثلاثية المجاديف، (مارس ١١٤٨م.) وقاد له سفينته نقفور داسبوتا وزوده بالخدمات الضرورية، هناك قابل الملوك الآخرين، وأدى الشعائر الدينية المناسبة عند مقبرة المسيح المقدسة فى فلسطين.)

أما لويس السابع فقد واصل سيره من افسوس حتى وصل إلى انطاليا فى يناير ١١٤٨م وهذه المدينة على الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت، وقد قرر لويس ان يتخذ طريق البحر، مبتعداً عن خطر الاتراك السلاجقة، ليصل إلى ميناء السويدية ومنه إلى انطاكية. ولما كان فى حاجة إلى سفن لنقله إلى هناك فقد طلب من البيزنطيين تزويده بها ولكنهم افصحوا عن عداءهم للصليبيين واثاروا امامهم العقبات، وعلى أية حال فقد نجح لويس فى تدبير بعض السفن واستقلها مع بعض حاشيته، وترك باقى الجيش فى انطاليا يعانون من عداء البيزنطيين وهجمات الاتراك السلاجقة، حتى تم نقلهم على دفعات إلى الشام، اما لويس فقد وصل إلى ميناء السويدية فى ١٩ مارس ١١٤٨م. ثم إلى انطاكية حيث قوبل بالترحيب من جانب اميرها عم زوجته اليانور، وهو ريموند دى بواتييه وقد طمع ريموند فى تأمين امارته فى انطاكية عن طريق مساعدة لويس له للقضاء على خطر الزنكيين فى شمال الشام وخاصة حلب قاعدة نور الدين محمود، وقد كان ريموند محقاً فى تفكيره هذا حيث ان الحملة الصليبية الثانية لم تقم إلا من أجل استرداد الرها والقضاء على قوة الزنكيين فى شمال الشام وبالتالى تأمين الاوضاع بالنسبة لامارتى الرها وانطاكية وهما الامارتان اللتان تعرضتا للمتاعب والهجمات من جانب الزنكيين. ولم يكن ريموند امير انطاكية هو الوحيد الذى طمع فى استغلال حملة لويس لصالحه وصالح امارته، وانما اراد جوسلين الثانى حاكم امارة الرها السابق ان يستغل حملة

لويس فى استرداد امارته، وهذا ايضا من حقه، ولم يلبث ريموند امير طرابلس الذى كان ينتمى إلى الأصول الفرنسية عن طريق والدته، ان طمع هو الآخر فى استغلال حملة لويس لاسترداد قلعة بعرين التى استولى عليها المسلمون. وهكذا وجد لويس نفسه وسط تيارات متعددة يجذبه كل منها فى اتجاه معين، وبينما هو كذلك وصل إلى انطاكية فى ابريل ١١٤٨م. بطريرك بيت المقدس الذى اخبر لويس بوصول كونراد الثالث إلى بيت المقدس ويطلب منه الرحيل إليها هو الآخر، فاعتبر لويس ذلك نجده وصلته من السماء لانتزاعه من حيرته تجاه هؤلاء الذين يطالبونه بتسخير حملته لتحقيق مصالحهم وادرك ان اسلم الطرق هو طريق بيت المقدس فرحل إليها ووصلها فى منتصف ابريل ١١٤٨م، حيث استقبل بحفاوة بالغة.

وفى ٢٤ يونيو ١١٤٨ تم عقد مجلس عسكرى كبير فى عكا، حضره لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك المانيا، وملك بيت المقدس القاصر بلدوين الثالث ووالدته والوصية عليه مليزاند، وامراء المملكة، وعدد من كبار رجال الدين، وقد تقرر فى هذا المجلس مهاجمة دمشق وحاكمها معين الدين أنر الحليف الوحيد المسلم للصليبيين فى الشام، وهكذا ضحى المسئولون فى مملكة بيت المقدس الصليبية بالصالح العام المتمثل فى مهاجمة الزنكيين فى شمال الشام ومحاولة استرداد الرها، من أجل تحقيق مصالح ثانوية للمملكة، لان العدو الحقيقى كان هو نور الدين محمود ومقره حلب فى شمال الشام حيث استولى على الرها وكان دائم التهديد للممتلكات الصليبية فى شمال الشام وخاصة امارة انطاكية، فى الوقت الذى لم يكن معين الدين انر فى دمشق يمثل اى خطر حقيقى على الصليبيين.

وهكذا اجتمعت الجيوش الصليبية فى طبرية فى اوائل يوليو ١١٤٨م، ومنها زحفوا إلى بانياس ثم إلى دمشق، وحاصروها من الجهة الغربية المعروفة باسم الغوطة، واحتلوا بعض القرى خارج سور دمشق مثل المزة

والربوة، وقد التحم المسلمون وتكا[illegible] ترك الزهاد والفقهاء في الأثناء (واجتمع عليهم من الاعمال والاجناد والاتراك واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الاعداد ...)[1] وقد استغل المسلمون وجود اشجار كثيرة في هذه الجهة واخذوا يحتمون بها ويهاجمون الصليبيين، فاشار أمراء بيت المقدس عليهم بسحب قواتهم من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية الخالية من الاشجار حتى لا يجد المسلمون ما يحتمون به عند مهاجمتهم للمعسكر الصليبي[2]، وقد استمع الصليبيون لتلك النصيحة وعملوا بها ونقلوا معسكرهم إلى الجهة الشرقية التي كانت غير مناسبة على الاطلاق نظراً لتعرضهم للشمس الحارقة وحرارة الجو دون ان يجدوا ما يحميهم، كما ان تلك الجهة كانت خالية من مياه الشرب، مما عرض الصليبيين للكثير من المتاعب والصعاب. وبينما يعانى الصليبيون من تلك المصاعب كانت النجدات تتدفق على معين الدين انر فى دمشق واستقبلها من الابواب الشمالية البعيدة عن الحصار، واخذ المسلمون فى الهجوم على الصليبيين الذين تحولوا من الهجوم إلى الدفاع، كما انقسم الصليبيون على انفسهم وهم امام دمشق، فامراء بيت المقدس كانوا يطمعون فى ان تنضم دمشق إلى المملكة الصليبية فى حال استيلائهم عليها، فى حين طمع لويس وبعض امرائه فى ان تكون دمشق امارة صليبية جديدة مستقلة. وهكذا دب الخلاف والانقسام بين الصليبيين امام دمشق على مصير الغنيمة قبل ان يفوزوا بالغنيمة بالفعل.

---

(1) ابو شامة : كتاب الروضتين، جـ١، ص ٥٢

اسامة ابن منقذ : كتاب الاعتبار، ص ص ٩٤-٩٥

(2) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص١١٢

وفي تلك الاثناء اخذ معين الدين أنر يستنجد بالأخوين نور الدين محمود في حلب، وسيف الدين غازى في الموصل، اللذان لم يرغبا في اضاعة فرصة الاستيلاء على دمشق فزحفا عليها بجيوشهما ولكنهما توقفا عند حمص وارسلا إلى معين الدين انر يخبرانه بضرورة ان يكون نوابهما في داخل دمشق فان انهزما دخلا إلى المدينة وان انتصرا فالمدينة لمعين الدين أنر، الذى لم يخفى عليه نية الاخوين في الاستيلاء على دمشق، لذلك اخذ يساوم الصليبيين ويهددهم بحضور نور الدين محمود وسيف الدين غازى لنجدة دمشق وانه سيسلمهما البلد وحينئذ لن يكون للصليبيين مقام بالشام، ثم عرض عليهم ان يسلمهم حصن بانياس، مقابل الجلاء عن دمشق[1]. ونظرا لصعوبة موقف الصليبيين وخوفهم من وصول قوات الزنكيين لنجدة دمشق، فقد قبلوا عرض معين الدين انر ورفعوا الحصار عن دمشق في نهاية يوليو ١١٤٨م، واثناء انسحابهم اخذ المسلمون يطاردونهم، مما افقدهم صوابهم واخذوا في تبادل التهم مع امراء مملكة بيت المقدس الصليبية خاصة وانهم هم الذين اشاروا عليهم بترك الجهة الغربية من دمشق والانتقال إلى الجهة الشرقية. وقد سارع كونراد الثالث بالابحار من عكا إلى سالونيك حيث قابل الامبراطور مانويل كومنينوس ثم رحل عائدا إلى بلاده[2]. أما لويس السابع فقد بقى ستة اشهر اخرى حتى تسلم الصليبيون بالفعل بانياس حسب وعد انر لهم، ثم رحل هو الآخر لبلاده.

•

[1] ابن الاثير: الكامل حوادث سنة ٥٣٣هـ ، ٥٤٣هـ

ابن واصل : مفرج الكروب ،جـ١ ص ١١٣

النويرى : نهاية الارب ، جـ٢٥، ورقة ٨٠ (مخطوط)

[2] Cinnamus, p. 87

وهكذا انتهت احداث الحملة الصليبية الثانية على هذا النحو، وفي تقييم مدى النجاح او الفشل الذي حققته، يمكن القول انها فشلت في تحقيق هدفها، حيث انها خرجت اساساً من أجل تحقيق هدف محدد وهو استرداد امارة الرها من يد نور الدين محمود وتأمين شمال الشام من خطره غير أنه بعد وصول الحملة بشقيها الالماني والفرنسي إلى الشرق نسيَ الملكان هدفهما الرئيسي وبعدا تماماً عنه وراحا يسعيان لتحقيق هدف آخر ثانوي تنفيذاً لرغبة المسئولين في بيت المقدس. وقد ترتب على فشل هذه الحملة مكاسب جمة للمسلمين لعل اهمها هو استرداد ثقتهم في انفسهم وفي امكانية إلحاق الهزيمة بهؤلاء الطغاة الذين أتوا من الغرب الاوروبي واذاقوا المسلمين الامرين خلال الحملة الصليبية الاولى، والذين نكلوا بهم وقتلوهم في مذابح رهيبة لعل اكثرها بشاعة مذبحة بيت المقدس في ١٠٩٩م، وقد ظل المسلمون في خوف دائم من ان تأتي حملة جديدة من الغرب الاوروبي تنكل بهم من جديد وتفعل بهم مثلما فعلت الحملة الأولى، فلما جاءت هذه الحملة الثانية وباءت بالفشل، تشجع المسلمون وارتفعت روحهم المعنوية، وايقنوا أنهم قادرون بعون الله على إلحاق الهزيمة بهذه الاقوام والجموع الغربية المعتدية ، فانحطت هيبة الصليبيين بالشام وفقدوا مكانتهم ، واخذ المسلمون يغيرون على الممتلكات الصليبية بالشام ويستردون ما سبق ان فقدوه.

لذلك فلم يبعد المؤرخ ستيفن رانسيمان عن الحقيقة حين قال "ان فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية وفي تاريخ الصليبيين في الشرق الادنى"[1].

---

[1] Runcuman 11, p. 291

وقد توالت الهزائم تترى على رؤوس الصليبيون، وخاصة بعد ظهور بطل الاسلام ومؤسس الاسرة الايوبية الناصر صلاح الدين الايوبى.

الفصل الثالث

ظهور صلاح الدين الأيوبى

يرجع أصل صلاح الدين الايوبى إلى الاكراد، وقد هاجر والده نجم الدين أيوب بن شادى وعمه اسد الدين شيركوه بن شادى من بلدة دفين Divin فى أرمينيا، وانخرطا فى خدمة عماد الدين زنكى أتابك الموصل.

ويعتبر صلاح الدين الايوبى مؤسس الدولة الايوبية وأشهر سلاطينها، وقد حاز صلاح الدين شهرته الكبيرة هذه فى المشرق الاسلامى والغرب الاوروبى، وعند المسلمين والمسيحيين على حد سواء نظراً للدور الكبير الذى لعبه فى الجهاد ضد الصليبيين، وقد كللت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصاره الساحق عليهم فى معركة حطين ١١٨٧م.

والواقع ان تاريخ الايوبيون فى مصر والشام يرتبط ارتباطا وثيقا بالحروب الصليبية، بل أن ظهور صلاح الدين نفسه على مسرح الاحداث السياسية ارتبط بالصراع الذى قام بين سيده نور الدين محمود والصليبيين حول مصر.

ذلك أن الدولة الفاطمية فى مصر أصبحت تعانى فى أواخر أيامها من الضعف والأضمحلال السياسى، فاصبح الخليفة الفاطمى ألعوبة فى يد الوزراء يحركونها كيفما شاؤا، بل أكثر من ذلك أصبح انوزير يستعرض الخلفاء استعراض الغنم ليختار منهم أضعفهم وأصغرهم سنا ليكون أداة طيعة فى يده، مثل الوزير طلائع بن رزيك الذى كان أرمنى الأصل، وسيطر على الوزارة لمدة سبع سنوات (١١٥٤-١١٦١م.)، فعندما أخذ أهالى القاهرة يهللون للخليفة الجديد، قال ابن رزيك "كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا، وما علموا اننى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم".

وقد تطور التنافس على الوزارة ... مصر عند نهاية العصر الفاطمي إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها. فقد انفرد بالسلطة والى الصعيد ويدعى شاور بعد أن تخلص من الوزير العادل بن طلائع بن رزيك فى المحرم ٥٥٨هـ على أن أحد قادة الجيش ويدعى ضرغام ثار عليه وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الالتجاء إلى نور الدين محمود صاحب دمشق، وهو ابن عماد الدين زنكى صاحب أول حركة جهاد ضد الصليبيين، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، ووعد بأن يتنازل له عن ثلث خراج مصر اذا عاونه فى التغلب على ضرغام وانتزع الوزارة منه. فتردد نور الدين محمود فى بداية الأمر ثم لم يلبث أن وافق بعد أن قلب الأمر وادرك مدى الضعف الذى صارت عليه الخلافة الفاطمية، واقتنع بضرورة اقتناص الفرصة وعدم تركها تفلت من بين يديه، فأعانه بحملة اسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه، وقد نجحت هذه الحملة فى التصدى لضرغام والتغلب عليه، وتمكنت من اعادة شاور لمنصبه فى الوزارة فى رجب ٥٥٩هـ.

لكن الخيانة التى اتصف بها شاور لم تلبث أن ظهرت بوضوح فلم يفى بما تعهد به لنور الدين محمود، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطلب منه مغادرة البلاد المصرية والعودة إلى الشام. بل أكثر من ذلك أرسل إلى الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى يطلب مساعدته ضد نور الدين محمود وأوضح له مدى الخطر الذى سيلحق بالصليبيين اذا استولى نورالدين محمود على مصر. لذلك فقد سارع الملك عمورى إلى تلبية طلبه وخرج على رأس جيشه خاصة بعد ان وعده شاور بمبلغ كبير من المال، ووصل إلى مصر حيث اشترك معه شاور بجيشه فى حصار شيركوه فى مدينة بلبيس وأخيرا تم الاتفاق بين هذه الاطراف على أن يغادر كل من شيركوه وعمورى أرض مصر، وكان ذلك فى أواخر عام١١٦٤م.

وقد أدت هذه الظروف إلى لفت أنظار كل من الصليبيين ونور الدين محمود إلى ضعف مصر وازدياد طمعهم فيها، ولم يلبث الخليفة الفاطمى العاضد بالله أن أرسل إلى نور الدين محمود يخبره بأن شاور قد استبد بالأمور وكثر ظلمه للناس وسفكه للدماء. أضف إلى ذلك أن نور الدين محمود كان يكن الكراهية لشاور بعد أن غدر بأسد الدين شيركوه واستعان عليه بالصليبيين فانفذ نور الدين محمود حملته الثانية إلى مصر وغادرت دمشق فى يناير ١١٦٧ فى طريقها إلى مصر، وقد صار بصحبة شيركوه بعض الامراء وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا فى هذه الحملة.

وقد عاد شاور من جديد واستنجد بالملك عمورى، الذى خرج بجيوشه على وجه السرعة وانضم إليه جيش شاور، فتقدم شيركوه إلى الصعيد فتبعه الصليبيون والتقى الفريقان فى مكان يعرف باسم البابين على مقربة من مدينة المنيا، فكان النصر حليف شيركوه الذى رأى بعد ذلك أن يسير إلى الاسكندرية، فدخلها من غير مقاومة تذكر وعين ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها.

عادت القوات الصليبية ومعها قوات شاور إلى القاهرة بعد هزيمتهم فى موقعة البابين، ثم ولوا وجوههم شطر الاسكندرية حيث قاموا بحصارها برا، فى الوقت الذى كان اسطول الصليبيين يحاصرها برا ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فاسرع أسد الدين شيركوه إلى نجدته. وقد أرسل إليه الصليبيون وشاور يطلبون الصلح فأجابهم إلى طلبهم واشترط ألا يقيم الصليبيون فى البلاد المصرية، ثم عادت قوات نور الدين محمود إلى دمشق.

على أن القوات الصليبية لم تغادر كلها مصر تنفيذا لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة، كان من أهم شروطها "أن يكون لهم بالقاهرة

شحنة ـ وهو نائب السلطان فى ضبط البلد وتصريف شئونها ـ وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر إليهم" كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنوياً من دخل مصر.

وقد علق المؤرخ أبو شامة على هذه الشروط بقوله: "هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور وأما العاضد ـ صاحب مصر ـ فليس له من الأمر شئ، ولا يعلم شيئا من ذلك، قد حكم عليه شاور وصحبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة".

على ان شاور بدأ يتخوف عندما وجد أن مساعدة الصليبيون له انقلبت إلى حماية، هذا إلى ان الضريبة السنوية التى فرضها عمورى على شاور ـ وهى مائة ألف دينار ـ أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية، فى الوقت الذى نضبت فيه مواردها. أضف إلى ذلك أن وجود (شحنة) صليبى فى القاهرة يشارك فى شئون الحكم ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة، كل ذلك أزعج المسلمون. وهكذا لم يجد شاور أمام شعور الاستياء العام فى القاهرة، إلا أن يقلب سياسته رأساً على عقب، فما كان منه ألا أن اتصل بنور الدين محمود يطلب حمايته وتخليصه من الحماية الصليبية.

لكن عمورى الأول ملك بيت المقدس عندما علم بتغيير سياسة شاور تجاه الصليبيين عزم على مهاجمة مصر والاستيلاء عليها قبل أن تصل إليها قوات نور الدين، وبالفعل فانه خرج على رأس قواته فى أكتوبر ١١٦٨م.، فوصل بلبيس فى أول نوفمبر ١١٦٨م.، وقد اغلقت المدينة أبوابها فى وجهه، ولكنه نجح فى اقتحامها واتخذ طريقه إلى القاهرة بعد أن أساء معاملة الأهالى فى بلبيس وقتل منهم أعداداً كبيرة كما احرق وخرب أكثر البلد. وقد وصل عمورى بالقرب من القاهرة وعسكر جنوبى الفسطاط، فاحرق شاور الفسطاط

بعد أن أنذر أهلها فخرجوا جميعا، وقد نقل عمورى معسكره بعد حريق الفسطاط أمام القاهرة، ولكن القاهرة قاومت الجيوش الصليبية مقاومة باسلة.

هذا فى الوقت الذى اخترق فيه شيركوه الصحراء ووصل بجيوشه ومعه صلاح الدين الايوبى إلى القاهرة، حيث ألتف حوله الاهالى، بوصفه المدافع عنهم وعن الاسلام. وقد تم القبض على شاور وقتل، وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة فى أواخر العصر الفاطمى واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من سند يؤيد وجودهم داخل مصر، فانسحبوا "عائدين إلى بلادهم بخفى حنين، خايبين مما أملوه".

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى فى البلاد بعد أن انتهى عهد شاور، فاتخذه الخليفة العاضد الفاطمى وزيرا له ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة، فجاء فى سجل تعيينه وزيراً . "وقلدك أمير المؤمنين أم وزارته وتدبير مملكته، وحياطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة امامته، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاء المؤمنين.." ثم يوصى الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه بأمر العساكر "أحمرهم وأسودهم وأقربهم وأبعدهم، وفارسهم وراجلهم، ورامحهم، ونابلهم، بتوفير الاقطاع، وأدرار النفقات.. إلخ" وكذلك يوصيه بالرعايا فيقول: "والرعايا فقد علمت ما نالهم من اجحاف الجبايات، واسراف الجنايات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات فاعمر أوطانهم التى أخربها الجور والاذى، وانف عن مواردهم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله تعالى منهم وخفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً .. ".

ومن هذا يبدو واضحاً ما قاساه الشعب المصرى من متاعب حقيقية فى السنوات القليلة التى شهدت الصراع العنيف بين قوى الصليبيين وقوى نور

الدين محمود فى سبيل الاستيلاء على مصر، والتى انتهت بهزيمة الصليبيون وانسحابهم وقتل شاور وانتصار أسد الدين شيركوه ثم تولية الوزارة فى مصر.

وقد نجح أسد الدين شيركوه فى الفترة القصيرة التى قضاها فى الوزارة أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد، كما وزع الاقطاعات على عساكره، وأعاد أهالى الفسطاط إلى بلدهم، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة، ثم توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر، فتنازع أمراء نور الدين محمود الذين كانوا بمصر فى طلب الرياسة والوزارة، لكن العاضد اراد تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب لصغر سنه بأمل أن يتمكن الخليفة من السيطرة عليه، ولكن ستظهر الاحداث التالية خيبة ظن الخليفة. وقد جاء فى سجل تولية الخليفة العاضد الوزارة لصلاح الدين ان المبررات التى دعته لاختيار صلاح الدين مكانته عند عمه شيركوه، وشجاعته الفائقة فى الحروب. ويختتم السجل بالوصية المعتادة، فهو يوصى صلاح الدين بأولياء أمير المؤمنين "وأنصاره الميامين من الامراء المطوقين والاعيان المعصبين والأماثل والأجناد أجمعين" ويقصد بهؤلاء جميعاً امراء الجيش واجناده من المغاربة، أو كما يقول النص فى خطابه لصلاح الدين: "فهم أنصاره غربا كما أن عسكرك أنصاره شرقاً". وهذا يوضح الحالة التى كان عليها الجيش فى الدولة الفاطمية، فقد اصبح يتنازع الزعامة فيه عنصران، عنصر المغاربة أولياء الدولة القدامى، وعنصر المشارقة جنود صلاح الدين وأعوانه.

ويوصى السجل صلاح الدين بالرعايا الذين هم: "ودائع الله لأمير المؤمنين وودائعة لديك، فأقبض عنهم الأيدى وابسط بالعدل فيهم يديك".

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفاً غريباً ومزدوجاً، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد بالله الفاطمى الشيعى، وهو فى الوقت

نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى، فهو موزع الولاء ومع ذلك كان يتبع فى سياسته أزاء الرجلين الحكمة والتؤدة.

على أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين القضاء على الدولة الفاطمية، وقطع الخطبة لأخر خلفائها العاضد، ثم إقامة الخطبة للخليفة العباسى، وكان نور الدين مدفوعاً فى هذا بسنيته وكرهه للشيعة، وبرغبته فى اجابة الخليفة العباسى إلى طلبه، فقد كان دائم الالحاح عليه أن يقيم له الخطبة فى مصر، ولكن صلاح الدين كان أعلم من نور الدين محمود بأحوال مصر. لهذا فقد آثر صلاح الدين التمهل، وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة، فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه، وليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب، وكان صلاح الدين يخشى أن هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينجح هؤلاء فى الثورة عليه، يقول ابن واصل فى كتابه "مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب" : "كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية، وانه لم يبق لهم منعه كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة من بنى العباس، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب لخوفه من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل يلزمه به إلزاماً لا فسحه فيه".

وقد بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فابعد هؤلاء القواد عن القاهرة، واستولى على اقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولاءهم واخلاصهم له ثم ارسل إلى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل اليه أباه نجم الدين أيوب وأهله، فارسلهم إليه، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين، فقد كان ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة.

وأخذ صلاح الدين كذلك فى تدعيم حركة انشاء المدارس فى مصر، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الاتابكة، هو محاربة المذهب الشيعى، والدعوة للمذهب السنى وتدريسه، وقد كانت أول مدرسة انشأها صلاح الدين فى مصر هى المدرسة الناصرية التى انشئت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكى، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة فى مختلف المدن المصرية.

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى، فعين صدرالدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضياً للقضاة، فجعل القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية، ويقول المؤرخ ابن واصل معلقاً على حركة انشاء المدارس وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعى الاسماعيلى إلى المذهب الشافعى: " فاشتهر مذهب الشافعية، واندثر مذهب الاسماعيلية بالكلية، وانمحى أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به".

وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التى كان يخطوها صلاح الدين فى حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسى ونور الدين محمود بقطع الخطبة للعاضد الفاطمى.

على أن صلاح الدين لم يلبث أن لقى معارضة شديدة من قبل بعض الفئات لاسيما قادة الجيش الفاطمى الذين اتخذوا لهم زعيماً من بين طواشية القصر، وهو مؤتمن الخلافة وساد السخط بينهم على اساس أن صلاح الدين يعمل على اضعاف مركز الخليفة ويحاول ان ينفرد بالسلطان، وكرهوا ان يخضعوا لسلطان صلاح الدين، وما حدث من القاء القبض على عدد كبير من رجال القصر لم يترك عندهم أى أثر للشك فى نوايا الوزير الجديد

صلاح الدين. وكان مؤتمن الخلافة موطن ثقة الخليفة العاضد، ولم يتردد في أن يستنجد بقوة الصليبيون مثلما فعل شاور من قبل.

غير أن صلاح الدين أمر بقتل زعيم الثائرين في اغسطس ١١٦٩م. وترتب على ذلك أن تظاهر عدد كبير من الرعاع والجند عند دار الوزارة بالقاهرة، فبادر صلاح الدين بحشد قواته التي جعل عليها أخاه توران شاه، ووقع بين الترك والسودان معارك دامية في الشوارع، انتهت بهزيمة المتظاهرين ومطاردتهم في شوارع القاهرة، واشعال النيران في الدور التي ينزلها السودان. ثم أوقف صلاح الدين القتل وأخرج من القاهرة عدد كبير منهم، وما تبقى الزمهم بعدم مغادرة دورهم، وعدم الظهور بشوارع القاهرة. وترتب على القضاء على هذه الفتنة أن هيبة الفاطميون وسلطانهم أخذ في الزوال بسبب سوء تصرف الخليفة، فما لحق السودان من القمع الشديد أودى بقوة الخليفة الفاطمي.

ولما تم لصلاح الدين ذلك، جمع أمراء جيشه ليستشيرهم في امر قطع الخطبة فترددوا كثيرا، وأخيراً تقدم فقيه يدعى الامير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة. وفي يوم الجمعة الأول من المحرم ٥٦٧هـ (سبتمبر ١١٧١) خطب هذا الرجل، ولم يدع للخليفة العاضد، وانما دعا للخليفة العباسي المستضئ بنور الله، فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كانت الجمعة التالية، أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة جميعاً وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية، أما الخليفة العاضد الفاطمي، فانه كان مريضاً وتوفي بعد ذلك بثلاثة أيام (١٣ سبتمبر ١١٧١) دون أن يعلم بزوال دولته لأن صلاح الدين منع ابلاغه بهذا الأمر.

وما وقع من الحوادث بين سنة ١١٧١ (٥٦٧هـ) منذ سقوط الخلافة الفاطمية، وسنة ١١٧٤ (٥٧٠هـ) وهي السنة التي توفي فيها نور الدين

محمود، حددت مستقبل صلاح الدين في مصر وعلاقته بالدولة النورية وما تطلع إليه من المضي في توحيد الجبهة الاسلامية ومهاجمة الصليبيين، يضاف لذلك ما تعرضت له مصر في اثناء هذه الفترة من الفتن والمؤامرات التي دأب أنصار الفاطميين على اثارتها.

استطاع صلاح الدين أن يطارد بقايا السودان الذين خرجوا من القاهرة، ولجأوا إلى النوبة فتحالفوا مع النوبيين سنة ١١٧٢ وأغاروا على أطراف مصر الجنوبية، ولم يكن قصد هؤلاء المغيرين سوى النهب أولاً، ثم الانتقام من صلاح الدين لازالته الدولة الفاطمية وشدته في قمعهم وطردهم من مصر، على أن صلاح الدين بفضل جهود اخيه توران شاه شتت شملهم، وأمر بوضع حامية كردية في ابريم.

وفي سنة ١١٧٣ (٥٦٩هـ) جرى تدبير مؤامرة شاملة الغرض منها اعادة الحكم الفاطمي إلى مصر، وتضمنت هذه المؤامرة، التي يعتبر الشاعر عمارة اليمني من أكبر زعمائها استغلال توزيع قوات صلاح الدين في جهات عديدة، والاتصال بسائر العناصر المناهضة لصلاح الدين في داخل البلاد، والتحالف مع اعدائه خارج البلاد، فضلاً عن الاستعداد لإعلان الخلافة الفاطمية في مصر من جديد.

وتفصيل هذه المؤامرة أن الشاعر عمارة اليمني، الذي أمضى شطراً كبيراً من حياته في القصر الفاطمي، وعاش على سخاء وكرم الوزراء الفاطميين، حاول أن يتقرب إلى السادة الجدد (الايوبيون) لاسيما توران شاه فحرضه على فتح بلاد اليمن لابعاده عن مسرح الاحداث التالية لما اشتهر به من العنف والشدة. ووافق ذلك هوى عند توران شاه لاسيما ان صلاح الدين منذ أن استقر بمصر ظل هو وأهله خائفين من نور الدين أن يدخل مصر وينتزعها منهم، فرأوا أن يقيموا لهم مملكة يلجأون إليها، ووجدوا ما يبرر ذلك

عند نور الدين من حيث الحرص على اقامة الخطبة العباسية ببلاد اليمن. واستنجد المتآمرون بالصليبيين فى الشام، والنورمان فى صقلية، وكتبوا إلى زعيم الحشيشية بالشام يطلبون إليه أن يرسل من يقاتل صلاح الدين. وانطوت خطتهم على أن الصليبيين اذا قصدوا مصر، وخرج إليهم صلاح الدين أعلنوا الثورة بالقاهرة، وأعادوا الخلافة الفاطمية، وانحاز إليهم من مالأهم من عسكره، فلا يستطيع صلاح الدين الصمود للصليبيين، أما اذا بقى صلاح الدين بالقاهرة وأرسل عساكره لمواجهة الصليبيين، ففى استطاعتهم أن يقبضوا عليه، لأنه ليس لديه من العساكر ما يحميه، وعلم صلاح الدين بتفاصيل المؤامرة، عن طريق الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا الذى اشركه معهم المتآمرون واطلعوه على سرهم، فقام باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولاً فأول. وقد تمكن صلاح الدين حين تأكد من قيام هذه المؤامرة بالفعل، من القبض على زعماء المؤامرة وجرى الاحتياط على أفراد الاسرة الفاطمية، ثم أمر بصلب عمارة وباقى المتآمرين، وصادر أموال الفاطميين وأرسل جانباً كبيراً منها إلى نور الدين محمود ليستعين بها على الجهاد.

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس، فلم يكد يعلم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة، وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر، حتى توفى فى بيت المقدس وسط جو من خيبة الأمل (١١ يوليه ١١٧٤). ولم يلبث أن أرسل النورمان بصقلية اسطولهم الذى وصل إلى ميناء مدينة الاسكندرية فى أواخر يوليو ١١٧٤.

وقد تمكن هذا الاسطول من انزال بعض قواته على الشاطئ كما استطاع تدمير بعض السفن التجارية الراسية فى ميناء الاسكندرية، وقد حاول النورمان اقتحام الاسكندرية وشددوا هجماتهم عليها، ولكن الاهالى ثبتوا لهم ثبوتا عظيماً واحرقوا بعض سفنهم فى الوقت الذى وصل إلى الاسكندرية

صلاح الدين بجيشه فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وانزل بهم الهزيمة، فاضطر النورمان إلى مغادرة ميناء الاسكندرية والعودة إلى بلادهم خائبين خاسرين.

محاولة صلاح الدين الاستقلال بمصر:

من الواضح أن صلاح الدين بعد أن تم له انزال الهزائم المتتالية بالمتآمرين لاعادة الخلافة الفاطمية، لم يعد يفكر فى أية أخطار تنجم عن اعادة الدولة الفاطمية وانما اشتد قلقه من تصرفات نور الدين محمود، ذلك أن نور الدين أراد أن يحكم قبضته على مصر، فارسل إليها فى عام ١١٧٣م. موفق الدين خالد القيسرانى متولى ديوان الاستيفاء يطلب منه أوراقاً بخراج مصر، بعد أن حاول صلاح الدين الاعتذار عن عدم التعاون الحربى معه ضد الصليبيين، لما تعرضت له مصر من اخطار خارجية، وما جرى بها من تدبير المؤامرات مما يتطلب منه الالتفات والاهتمام، والواقع أن السبب فى امتناع صلاح الدين عن التعاون مع نور الدين، ما لمسه صلاح الدين من حرص نور الدين على انتزاع مصر منه، والاستعداد لغزوها، فعلى الرغم من أن صلاح الدين وافراد أسرته أعلنوا ولاءهم لنور الدين، وارسلوا له بالهدايا، فان نور الدين انتهز فرصة اعتراف الخليفة العباسى به سلطاناً على مصر، فارسل القيسرانى ليتحقق من أحوال البلاد، ويتحرى بالتفصيل المركز المالى بها، ويحدد ما ينبغى أن تدفعه مصر من الجزية كل سنة لنور الدين، ومن الواضح أن نور الدين طلب إلى وزيره أن يتعرف إلى نوايا صلاح الدين وميوله.

واستطاع صلاح الدين أن يقنع القيسرانى بحسن تصرفه، وأخذ فى جمع الاموال التى سوف يرسلها إلى نور الدين، وجعل للقيسرانى من الاموال ما لم يكن يتوقعه وحمله من الهدايا ما تفوق فى الفخامة والابهة ما سبق أن

بعث به. وقد خرج القيسرانى من مصر محملا بكل هذا فى طريقه إلى نور الدين محمود بالشام، ولكنه علم وهو فى الطريق بوفاة نور الدين محمود فى ١٥ مايو ١١٧٤م.

وهكذا انقذت الاقدار صلاح الدين من محاولات نور الدين المستمرة لاحكام قبضته على مصر وابعاد صلاح الدين عنها. وما وقع من الاحداث بعد وفاة نور الدين جعل صلاح الدين يقترب من تحقيق الهدف الذى سعى إليه دائماً وهو الاستقلال بمصر والابتعاد بها عن سلطة البيت الزنكى. فقد خلف نور الدين على الحكم ابنه الصالح اسماعيل، الذى كان طفلا لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وادرك صلاح الدين انه قد حان الوقت للانفراد بحكم مصر. ولم يمانع صلاح الدين فى بادئ الأمر من ان يذكر اسم هذا الامير الصغير فى خطبة الجمعة وان يسك النقود باسمه. كما أنه ادرك أن عليه أن يقوم بعمل خطير، وهو الاستيلاء على دمشق من أجل توحيد الجبهة الاسلامية وتطويق الصليبيين. على أن تحقيق هذا الهدف كان يتوقف على موقفه من الصالح اسماعيل.

وقد التزم صلاح الدين طريق الحكمة والروّية حتى يحقق غرضه، كما أنه حرص على أن يسير فى ذلك على مراحل وخطوات. ذلك أن الصالح اسماعيل قد انتقل من دمشق للاقامة بحلب، وقد اتاح ذلك لصلاح الدين دخول دمشق فى اكتوبر ١١٧٤م. وقد أبطل صلاح الدين كل المكوس التى جرى استحداثها بعد نور الدين فى دمشق، ثم أعلن أنه لم يقدم إلا ليقوم على تربية الصالح اسماعيل، وانه لم يقصد إلا أن يتولى شئون المملكة باسم الامير الزنكى. غير أن ما حدث من سيطرة بعض أمراء نور الدين على الصالح اسماعيل وشدة حنقهم على صلاح الدين، والاستنجاد بقوات الموصل، والتماس المساعدة من الصليبيين، جعل صلاح الدين يتخذ من الاساليب والوسائل ما يبطل هذه الدسائس، ويوقف مساعدة الصليبيين ويحقق غرضه

وقد لجأ صلاح الدين إلى استمالة بعض الامراء النوريين وبذل الاقطاعات لهم وتعيينهم فى وظائف رئيسية بالشام. كذلك فإنه حرص علي اقامة العلاقات الطيبة مع الخليفة العباسى، يدل على ذلك ما تردد فى رسائله إلى الخليفة المستضئ من الاشارة إلى جهوده فى القضاء على الدولة الفاطمية واعادة المذهب السنى بمصر واليمن وإلى حرصه على جهاد الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين، وأظهر ما لجأ إليه خصومه من الاستعانة بالصليبيين والباطنين اعداء الاسلام.

وقد أحرز صلاح الدين فى ١٣ ابريل ١١٧٥ انتصارا حاسما على جيوش الصالح اسماعيل قرب حماه. وترتب على ذلك أن أمر صلاح الدين بقطع الخطبة باسم الصالح اسماعيل، وتقرر عقد صلح بينهما فى يوليه ١١٧٦، اعترف فيه الامير الزنكى لصلاح الدين بكل ما استولى عليه من البلاد، وما هو جار تحت حكمه من جنوب الشام إلى حماة، وتعهد صلاح الدين بمساعدة الصالح اذا هاجمه عدو، ولم يسع الخليفة العباسى إلا أن يمنح صلاح الدين تقليداً بالسلطنة ببلاد مصر والشام.

وهكذا تم لصلاح الدين ما أراد وما عمل من أجله سنين طويلة، وقد ساعدته الأقدار بوفاة نور الدين محمود فى تلك الآونة مما كان له أبعد الأثر فى تمكين صلاح الدين من تحقيق اهدافه والاستقلال بمصر وما تحت يديه من بلاد، هذا الأمر الذى كان من العسير بل المستحيل أن يحققه صلاح الدين فى حياة نور الدين محمود.

الفصل الرابع

نصــر حطيـن

تجدر الاشارة إلى ان صلاح الدين لم يغفل أمر الصليبيين أثناء انصرافه إلى معالجة موقفه مع نور الدين وابنه الصالح اسماعيل، على أن ما قام به صلاح الدين من اجراءات ضد الصليبيين يصح تقسيمها إلى مرحلتين متميزتين.

ففى المرحلة الأولى لم يفكر السلطان صلاح الدين فى القيام بعمليات حربية واسعة النطاق مثل المرحلة الثانية التى بدأها بعد توحيد مصر والشام. فحملاته الأولى وجهها إلى ارض الصليبيين المحصورة بين الأراضى الاسلامية والتى تعترض طريق المواصلات بين مصر والشام. وما وقع بين صلاح الدين والصليبيين من اشتباكات حتى سنة ١١٨٠وما تخلل هذه الفترة بين ١١٧٤-١١٨٠م. من مهادنة لم تؤد إلى تغيير فى الأوضاع الاقليمية، غير أن صلاح الدين أفاد من هذه الحروب فى أمور عديدة، فبالاضافة إلى ما أحرزه من انتصارات على الجيوش الصليبية فى مواضع عديدة، وتدمير ما أقاموه من حصون لاسيما حصن بيت الاحزان بين دمشق وطبرية، وما ترتب على ذلك من وقوع اسرى عديدين فى يده، ورد الاسطول الصليبى الذى قدم من صقلية وهاجم الاسكندرية، فانه عمد إلى تجديد استحكامات دمشق، وتهيأت له الفرصة بعقد هدنة عام ١١٨٠ بينه وبين الصليبيين لأن يواصل تقوية الاستحكامات. فمن ذلك تقوية الجسر المؤلف من السفن والذى يصل بين البرجين اللذين يتحكمان فى دمياط، وتشييد قلعة فى تنيس، وعمارة الاستحكامات فى الاسكندرية، وتلى ذلك قيامه بتفقد هذه المنشآت الحربية، يضاف لذلك اهتمامه بالاسطول والبحرية فأفرد له ديوانا خاصا به.

وقد توجت جهود صلاح الدين ضد الصليبيين بانتصار حطين،أما العوامل التى مهدت لهذه المعركة التاريخية الهامة فقد كانت ترجع فى المقام الأول إلى تصرفات أحد الفرسان الصليبيين المعروف بالطيش والتهور والذى

أطلق عليه المؤرخون الغربيون انفسهم اسم (الفارس اللص) وهذا الفارس هو رينودى شاتيون الذى عرف لدى المؤرخين المسلمين باسم (ارناط).

وقد لعب رينو هذا دوراً بارزاً فى الصراع بين الصليبيين وصلاح الدين وجر بتصرفاته الطائشة على الصليبيين الكثير من المتاعب التى كانوا فى غنى عنها. وكان رينو قد تزوج من وريثه صاحب الاردن وتدعى اتنيت دى ميلى طمعاً فى اقطاعها الذى ورثته عن ابيها وهو الاردن وحصنىّ الكرك والشوبك، وقد امتاز هذان الحصنان بموقعهما الهام على طريق القوافل الذاهبة إلى الاراضى الحجازية، وفى نفس الوقت القوافل المتنقلة بين شطرى مملكة صلاح الدين فى مصر والشام. وكان رينو بطبيعة الحال يجنى ثروات طائلة من المكوس التى يفرضها على القوافل التى تعبر بحصنيه، ولكن هذا الفارس لم يقنع بذلك وانما أعماه الجشع المادى عن ادراك خطورة تصرفاته الهوجاء على الصليبيين جميعاً خصوصاً فى وقت كانت فيه شخصية مثل شخصية صلاح الدين الايوبى هى التى تحكم مصر والشام، وتواجه الصليبيين.

وكانت بداية الاحتكاك بين رينو وصلاح الدين فى عام ١١٨١، اذ تناسى رينو أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين فى عام ١١٨٠، والتى سبقت الاشارة إليها، وخرج على رأس قوة من رجاله وتوجه إلى صحراء العرب حيث أوغل فيها حتى وصل إلى واحة تيماء، وهى واحة لها أهميتها لوقوعها فى منتصف الطريق بين الاردن والمدينة المنورة، وقد وصفها صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة العباسى بانها (دهليز المدينة). وكان هدف رينو دى شاتيون من تصرفه هذا أن يصل حتى المدينة المنورة حيث يقوم بتخريب الاماكن المقدسة بها. لكن صلاح الدين أصدر أوامره إلى نائبه فى دمشق وهو ابن اخيه ويدعى فرح شاه بالاغارة على الاردن حتى يجبر رينو على العودة دون اتمام مشروعه. وقد كان فعاد رينو إلى امارته

للدفاع عنها ضد هجمات المسلمين، بعد أن نهب قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة المكرمة وسلب جميع ما بها من نفائس.

وقد ازعج تصرف ارناط هذا المسلمين والصليبيين على حد سواء، فقد انزعج الصليبيون لأن هذه الغارة التى قام بها رينو قد عكرت صفو السلام القائم بينهم وبين صلاح الدين، وأما المسلمون فقد انزعجوا أشد الانزعاج لتطاول هذا الصليبى ومحاولته المساس بالاماكن المقدسة التى يتجهون إليها بقلوبهم، وهو التصرف الذى لم يجرؤ أحد من الصليبيين قبله أن يفعله. لذلك فقد أرسل صلاح الدين إلى ملك بيت المقدس بلدوين الرابع يطلب منه أن يجبر رينو على رد ما سلبه من أموال القافلة واطلاق سراح من أسره من رجالها، وقد طلب بلدوين من رينو تحقيق كل ما طلبه صلاح الدين، ولكن رينو رفض تنفيذ كل ما طلبه الملك بلدوين.

وقد رد صلاح الدين على هذا العمل بأن أسر نحو ألفين وخمسمائة مسيحى كانوا فى طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين ولكن شاءت الظروف أن يتعرضوا لعاصفة اطاحت بسفنهم على شاطئ دمياط، وأعلن صلاح الدين أنه لن يفرج عن هؤلاء الحجاج إلا بعد أن يفرج رينو عن الاسرى المسلمين وأموالهم.

وفى مايو ١١٨٢. غادر صلاح الدين مصر إلى الشام وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه مصر، اذ ظل بالشام يناضل الصليبيين حتى ادركه الموت.

ولم يلبث رينو دى شاتيون أن قام بتصرف طائش آخر، بمحاولته الثانية تخريب الاماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكان رينو يهدف

من وراء ذلك إلى طعن العالم الاسلامى فى قلبه، أما الهدف الثانى فك
السيطرة على البحر الاحمر واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندى.

وقد قام ارناط بالاستيلاء على أيلة ذلك المركز الهام والتى تقع عل
خليج العقبة، ثم استولى على جزيرة القلعة المواجهة لها فى خليج العقب
أيضاً. وقام رينو بغارة بحرية على السواحل المصرية الواقعة على البحر
الاحمر، ثم سار بسفنه حتى وصل إلى ميناء عيذاب فى مواجهة جدة، وق
نهب رينو بعض السفن التجارية الوافدة من جدة واليمن وعدن والهند.

وقد بلغ من جرأة رينو واعوانه انهم انتقلوا بعد ذلك إلى شد لى
الحجاز، حيث تركوا سفنهم واستعانوا ببعض الخونة من البدو الذين د ه
على داخلية البلاد فتوغلوا فيها حتى اصبحوا على مسيرة يوم واحد ن
المدينة المنورة. ولم يسكت المسلمون على هذا التهديد السافر للاماكن الش بة
بالحجاز، فخرج حسام الدين لؤلؤ قائد الاسطول المصرى على رأس و
بحرية، أغارت على ايلة حيث وجدوا بعض السفن الصليبية فاحرق
وأسروا من فيها، ثم تعقبوا السفن الصليبية عند عيذاب فساحل الحجاز،
وجدوا السفن الصليبية راسية أمام ساحل الحوراء، فهاجمها حسام ال ن
ودمرها وفك أسر التجار المسلمين الذين سبق أن أسرهم الصليبيون وقد ل
حسام الدين بقواته على الساحل وأخذ فى مطاردة الصليبيين بين الجبال
تم له أسرهم جميعاً فيما عدا رينو الذى نجح فى الفرار وقد نذر صلاح ال
دمه وأقسم ألا يغفر له فعلته هذه.

أما الاسرى الصليبيين فقد أرسل بعضهم إلى منى وكان موسم الحج
أزف فذبحوا كما تذبح الشاه عقابا لهم على فعلتهم هذه، أما باقى الاسرى
عاد بهم حسام الدين لؤلؤ إلى مصر حيث تم تشهيرهم بشوارع القاهر
والاسكندرية.

ولم يلبث رينو دى شاتيون أن طلب الصفح والأمان من صلاح الدين فتم عقد هدنة بين صلاح الدين من جهة والصليبيون ورينو من جهة أخرى. وبناء على هذه الهدنة أخذت قوافل الحجاج والتجارة تغدوا وتروح بين البلاد الاسلامية مارة بصحراء الاردن. ومما لا شك فيه أن رينو قد كسب من وراء ذلك الكثير نتيجة للمكوس التى كان يفرضها على هذه القوافل. على أنه لم يقنع بكل ذلك وانما عاوده الحنين إلى اعمال اللصوصية والقرصنة. وكان أن انقض بكل الغدر والخيانة على قافلة تحمل بضائع ثمينة كانت فى طريقها من ا''هرة إلى دمشق فى اوائل عام ١١٨٧. وقد استولى رينو على كل ما تحمله ـافلة من أشياء نفيسة وأسر رجالها عن آخرهم فى حصن الكرك حيث أساء ـعاملتهم إلى حد كبير. ولم يكتف بذلك وانما أصر على غيّه ورفض ما طلبه صلاح الدين من فك أسر الرجال واعادة الاموال والبضائع إليهم، وكان رده يتسم بسوء الخلق والاصرار على استفزاز صلاح الدين والمسلمين حيث رد على صلاح الدين قائلاً: "قولوا لمحمد يخلصكم".

وقد بلغ الضيق بصلاح الدين أشده، ولكنه تمالك نفسه وارسل إلى ملك بيت المقدس جاى لوز جنان طالباً منه أن يرغم رينو على رد الاسرى والبضائع، ولكن الملك جاى لم ينجح فى مهمته اذ أن رينو كان يشعر بانه صاحب فضل عليه لمساعدته فى الوصول إلى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية عقب وفاة الملك الطفل بلدوين الخامس فى ١١٨٦. فما كان من الملك جاى إلا أن أخبر صلاح الدين بعجزه عن ارغام رينو على رد الاسرى والغنائم. وهكذا لم يعد هناك.مجال امام صلاح الدين إلا اعلان الحرب على الصليبيين فأخذ فى تعبئة قواه تعبئة شاملة وخرج من دمشق على رأس جيش كبير متجها نحو الجنوب حيث هاجم حصن الكرك وخرب حوله وكذلك فعل بحصن الشوبك وهكذا اصبح رينو دى شاتيون محصوراً داخل حصن الكرك فى الوقت الذى كان صلاح الدين يتمتع بحرية الحركة. وقد رغب صلاح الدين فى ابريل ١١٨٧ فى ارسال قوة استكشافية لتقوم بالاغارة على اقليم

عكا، ولما كانت هذه القوة فى بانياس فقد كان عليها لكى تصل إلى عكا
تمر باقليم الجليل الذى يخضع لريموند أمير طرابلس والذى كان فى حالة
تحالف مع صلاح الدين. وهنا وجد ريموند نفسه فى موقف حرج، فهو اذا لم
يجب طلب صلاح الدين تعرض لافساد العلاقات معه، واذا وافق فلاشك ان
ذلك سيغضب الصليبيين، ولم يجد ريموند مفراً من السماح لهذه القوة بالعبور
خلال إقليم الجليل ولكنه فى نفس الوقت اعطى تعليماته إلى مدن هذا الاقليم
مثل الناصرة وطبرية باغلاق ابوابها حتى لا يستولى عليها المسلمون.

على أن هذا العبور لم يمر بسلام، وذلك بسبب مقدم الداوية جيرار دى
ريد فورت الذى كان معروفاً عنه وعن فئته التعصب الشديد ضد المسلمين.
فحين علم بمرور هذه القوات خلال اقليم الجليل جمع بضع مئات من
الصليبيين وتصدى للمسلمين بالقرب من صفورية، وقد دارت معركة عنيفة
بين الطرفين فى مايو ١١٨٧ أسفرت عن انتصار ساحق للمسلمين الذين قتلوا
القوة الصليبية عن آخرها باستثناء بضعة أشخاص نجحوا فى الافلات من
القتل، وبعد المعركة وصلت قوة أخرى من الصليبيين تمكن المسلمون من
أسرها، وعادوا سالمين وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة حرابهم.

وقد حمل الصليبيون ريموند امير طرابلس مسئولية هذه الكارثة التى
حاقت بهم فلم يجد بدا من نقضه تحالفه مع صلاح الدين والعودة إلى التعاون
مع بنى جلدته الصليبيين. فما كان من صلاح الدين إلا أن رد على تصرف
ريموند بالهجوم على مدينة طبرية التابعة لزوجته أشيفا وكان ذلك فى أوائل
يوليو ١١٨٧، وقد اقتحم المسلمون المدينة واحرقوها ولكنهم لم يتمكنوا من
الاستيلاء على قلعتها التى احتمت بداخلها أشيفا.

وقد اجتمع الصليبيون فى صفورية بالقرب من عكا، وأخذوا فى حشد
جيوشهم، ثم عقدوا اجتماعا للحرب فى عكا وطلب بعضهم مثل ريذو دى

شاتيون ومقدم الداوية وغيرهم من المتطرفين، ضرورة الاشتباك مع صلاح الدين وتخليص طبرية من ايدى المسلمين، ومن الغريب أن ريموند أمير طرابلس وهو صاحب طبرية لم يؤيد مبدأ الاشتباك مع المسلمين وألقى فى الصليبيين خطبة أعلن فيها رأيه هذا فقال: (إن طبرية لى ولزوجتى، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقى القلعة وفيها زوجتى، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى وما لنا بها ويعود، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة، واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها اخذناها وان أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن اوطانهم واهليهم فيضطر إلى تركها ونفتك من أسر منا. فقال له برنس ارناط صاحب الكرك قد أطلت فى التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضيرها كثرة الحطب. فقال: انا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون)[1]. وقد استطاع رينو ومن على شاكلته من الصليبيين التأثير على ملك بيت المقدس الضعيف الشخصية جاى لوز جنان، وانتهى الرآى وتم الاتفاق على أن يسير الصليبيون من صنورية حتى طبرية لقتال صلاح الدين وتخليصها من يديه.

وقد سر صلاح الدين سرورا عظيماً حين علم بخطة الصليبيين هذه وعزمهم على المسير إليه، وقال (جاءنا ما نريد)، ويفهم من ذلك أن صلاح الدين كان يريد أن يسير إليه الصليبيين حتى تنهك قواهم من حرارة الجو ووعورة الطريق وطول الرحلة الذى بلغ ١٦ ميلا وقد كان، اذ سار الصليبيون فى اتجاه طبرية، ولكن صلاح الدين ترك طبرية وتقدم حوالى خمسة أميال حتى وصل إلى قرية حطين التى تمتاز بوفرة الماء وكثرة

---

[1] ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٨٣هـ .

المرعى. وفى يوم ٣ يوليو ١١٨٧م. وصل الصليبيون إلى سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين وهو عبارة عن هضبة ترتفع عن سطح البحر بحوالى ثلثمائة متر، ولها قمتان اطلق المسلمون عليهما اسم قرون حطين. وقد وصل الصليبيون إلى هذا الموقع وهم فى غاية الارهاق والتعب، كما اشتد بهم العطش أيضاً وقد نصبوا معسكرهم فوق هذه الهضبة، وكان فى اسفل الهضبة تقع بحيرة طبرية، وقد حاول بعضهم الوصول إلى ماء البحيرة لاطفاء نار ظمأهم، ولكن حال المسلمون بينهم وبين الوصول إليه، وقد قضى المسلمون ليلتهم وهم يهللون ويكبرون (الله اكبر)، كما استغلوا ستار الليل واحاطوا بالهضبة التى عسكر الصليبيون فوقها احاطة الدائرة بقطرها. وفى صباح ٤ يوليو ١١٨٧م. كان اليوم شديد الحرارة، كما ان المسلمين اشعلوا النيران فى الحشائش الموجودة باسفل الهضبة وكان الهواء على الصليبيين، فحمل إليهم حر النار والدخان، فاجتمع عليهم كما يقول ابن الاثير "العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال"[١] .

وهكذا اصبح الموقف شديد الصعوبة بالنسبة للصليبيين، الذين انهكهم العطش واشتد عليهم الحر، وأخذ المسلمون يتسلقون الهضبة وهم يقاتلون قتال الابطال، والصليبيون يتراجعون امامهم نحو قمتى الهضبة وقد نجح ريموند أمير طرابلس فى الفرار من المعركة فكان الوحيد من زعماء الصليبيين الذى نجا، أما باقى الصليبيين فوقعوا ما بين قتيل وأسير حتى لم يبق إلا الملك جاى لوز جنان ومعه رينو دى شاتيون ومائة وخمسون من رجاله. وقد تم اسرهم جميعاً وبلغ من كثرة القتلى والاسرى ان قال المؤرخ ابن الاثير "وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك اسرى، ومن يرى الاسرى يحسب ان ليس هناك قتلى"[٢] وقد سيق الاسرى إلى معسكر المسلمين واستقبل صلاح الدين

---

[١] ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث سنة ٥٨٣هـ.

[٢] ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٨٣هـ.

فى خيمته الملك جاى لوز جنان ورينو دى شاتيون وكـان الملـك جـاى يعـانى من العطش فقدم له صلاح الديـن انـاء بـه مـاء مثلـج ليروى ظمـأه، وبعـد أن ارتوى الملك قدم ما بقـى مـن المـاء لرينـو دى شـاتيون، ولكـن صـلاح الديـن غضب لذلك وقال للملك جاى "ان هذا الملعـون لـم يشـرب المـاء بـأذنى لينالـه امانى" وأخذ يؤنب رينو على تصرفاته الطائشة ضد المسـلمين وقـال لـه: "كـم تحلف وتنكث؟" فرد عليه رينو بوقاحته المعهودة: "هكذا جـرت عـادة الملـوك" وقد ضايق رده هذا صلاح الدين لدرجة أنه تناول سيفه واطاح برقبته، فذعـر الملك جاى وتوجس خيفه من قتله هـو الآخـر علـى هـذا النحـو ولكـن صـلاح الدين هدأ من روعه وقال له: "لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملـوك أمـا هـذا فقد تجاوز حده ولذلك جرى عليه ما جرى".

ولقـد أكـرم صـلاح الديـن الاسـرى وعلـى رأسـهم الملـك جـاى وعاملـه معاملة طيبة للغاية وقد بلغ من كثرة الاسرى انهـم كـانوا يبـاعون بالجملـة أى تباع الأسرة المكونـة مـن الأب والأم والأبنـاء والبنـات بيعـة واحـده وبالسـعر البخس.

صلاح الدين وانهيار مملكة بيت المقدس الصليبية:

لقد فتـح نصـر حطيـن الطريـق إلـى بقيـة الممتلكـات الصليبيـة بالشـام وفلسطين، بعد أن اصبحت البلاد الواقعة تحت سيطرة الصليبييـن وليـس بهـا من يحميها بعد ان سقط فرسان المملكـة الصليبيـة مـا بيـن اسـير وقتيـل اثنـاء معركة حطين. وكان من المنتظر ان يتجه صـلاح الديـن بعـد حطيـن مباشـرة إلى بيت المقدس لفتحها، ولكن تجلـت عبقريـة صـلاح الديـن وبعـد نظـره فـى تأجيله فتح بيت المقدس والبدء بفتح البلاد الساحلية ليقطع بذلك الشريان الذى يمد الصليبيين بداخل الشام وفلسطين بالمساعدات العسكرية الآتية مـن الغـرب الاوروبى وبذلك يعزل هذه البلاد الداخليـة عـن الاستفادة بأيـة معونـة حربيـة يرسلها الغرب الاوروبى فيسهل بذلك فتحها.

هذا فضلا عن ان استيلاء صلاح الدين على موانئ الشام سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام.

وقد تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية على استرداد عكا وقيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرهم من الثغور الساحلية، ولم يستعصى على صلاح الدين سوى مدينة صور التى كانت كما يصفها العماد الاصفهانى: "محاطة بالبحر من معظم نواحيها كأنها سفينة". واضطر صلاح الدين إلى استدعاء الاسطول المصرى المرابط فى عكا ليقوم بمحاصرة صور من جهة البحر بينما حاصرها هو بجيوشه من ناحية البر.

والواقع ان من العوامل الهامة التى ساعدت صور على الصمود فى وجه صلاح الدين وجيوشه واسطوله، وصول كونراد دى مونتفرات الذى يصفه المؤرخ المسلم ابن شداد بقوله أنه: "كان رجلاً عظيماً ذا رأى وبأس فى دينه، وصرامة عظيمة"، وكونراد هذا هو ابن وليم دى مونتفرات الذى قاتل إلى جانب الصليبيين فى معركة حطين ووقع أسيراً فى يد صلاح الدين، وهو شقيق بونيفيس دى مونتفرات الذى لعب دوراً هاماً فى الحملة الصليبية الرابعة، حيث أنه كان قائد هذه الحملة التى انحرفت واتجهت ضد القسطنطينية فى ١٢٠٤ حيث اسقطت الحكم البيزنطى واقامت مملكة لاتينية بها. وكان كونراد قد جاء من الغرب الاوروبى ونزل بالقسطنطينية حيث ساعد فى القضاء على الثائر البيزنطى براناس فى عام ١١٨٦، وهزم براناس وارسل رأسه للامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق، ثم ترك الاراضى البيزنطية واتجه إلى الشام حيث وصل إلى عكا بعد معركة حطين ووقوع عكا فى يد المسلمين، الذين لم يتعرضوا لكونراد بسوء وتركوه يغادر عكا فى أمان، فاتجه إلى مدينة صور، والتف حوله الاهالى بها حيث أخذ كونراد ينظم صفوف المقاومة فى صور

ضد المسلمين، وكان قد اجتمع بصور اعداد كبيرة من الصليبيين، الذين فتح صلاح الدين بلادهم فلم يجدوا أمامهم مأوى يأويهم إلا صور فتجمعوا بها، وقد أخذ كونراد فى تقوية روحهم المعنوية وحثهم على الصمود والدفاع عن دينتهم. وهكذا صمدت صور فى وجه صلاح الدين الذى حاصرها برا وبحرا.

وقد حدثت معركة بحرية بين المراكب الحربية الصليبية الموجودة داخل ميناء صور وبين مراكب الاسطول المصرى، ونجح المصريون فى تشتيت مراكب العدو وابعادها وضرب حصار قوى حول ميناء صور. وكان من المنتظر ان تسقط المدينة سريعاً بعد هذا الانتصار الذى احرزه المسلمون، ولكن الذى حدث ان رجال الاسطول المصرى امام صور احتفلوا بانتصارهم، وسهروا تلك الليلة إلى السحر، ثم غلبهم النعاس فناموا، وقد انتهز الصليبيون هذه الفرصة واغاروا على الاسطول المصرى وأسروا خمس سفن من سفنه، وأسروا قائد هذه السفن ويدعى عبد السلام المغربى، وألقى البحارة المسلمين بأنفسهم فى البحر فغرق منهم من غرق ونجا من نجا. واضطر صلاح الدين ازاء هذا الموقف ان يصدر أوامره إلى رؤساء المراكب الباقية ان يرفعوا الحصار عن صور.

ومما لا شك فيه ان هذه الهزيمة التى منى بها الاسطول المصرى فى مياه صور قد رفعت من روح الصليبيين المعنوية بداخل المدينة، فصاروا يخرجون منها من حين لآخر ويغيرون على جيوش المسلمين المحاصرة للمدينة مما اضطر صلاح الدين آخر الأمر إلى رفع الحصار عن صور والانسحاب جنوبا إلى عكا، وترك أمر صور لكى يعود إليها فى وقت آخر.

وهكذا لم يبق امام صلاح الدين فى داخل فلسطين سوى المدينة الهامة بيت المقدس عاصمة مملكة بيت المقدس الصليبية ولنرى كيف تم لصلاح الدين فتحها.

كان باليان دى ابلين من الفرسان الصليبيين الذين تم أسرهم أثناء معركة حطين، وكان باليان متزوجا من ملكة بيت المقدس السابقة ماريا كومنين ارملة الملك عمورى الأول، وهى سيدة بيزنطية من عائلة كومنين الشهيرة، وقد توسل باليان لصلاح الدين طالبا منه السماح له بالذهاب إلى بيت المقدس لأخذ زوجته وابنائه ومغادرة المدينة على الفور، وكعادة صلاح الدين وتسامحه وكرم اخلاقه، سمح له بذلك بعد أن أقسم لصلاح الدين ألا يبيت داخل بيت المقدس أكثر من ليلة واحدة على أن باليان لم يلبث بعد وصوله إلى بيت المقدس ان نكث بوعده وقسمه لصلاح الدين، وتزعم حركة المقاومة ضد المسلمين، وذلك انه وجد المدينة فى حال يرثى لها بعد أن فقدت ملكها وفرسانها، وقد بلغ من نقص الرجال بها أنه كان هناك رجل واحد مقابل كل خمسين امرأة وطفل، وقد توسل أهالى بيت المقدس لباليان أن يبقى معهم ويتولى الدفاع عن المدينة ضد المسلمين، فوافق باليان واتخذ اجراءات سريعة لتقوية الدفاع عن المدينة ولكن كل اجراءاته كانت ليست ذات قيمة بعد أن انعدم عنصر الفرسان المدربين.

وقد استقبل صلاح الدين قبل وصوله إلى بيت المقدس وفد من المدينة ذاتها فعرض عليهم ان يسلموا المدينة مقابل تأمينهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن شاء منهم الخروج من المدينة سالما. وهى نفس الشروط التى فتح بها صلاح الدين جميع بلاد مملكة بيت المقدس الصليبية، غير أن الوفد رفض مطالب صلاح الدين وأوضحوا: "أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس". عند ذلك أقسم صلاح الدين على أن يفتح بيت المقدس بحد السيف، فنزل على المدينة محاصرا لها

وفى طاف بالمدينة خمسة أيام يتحسس موضع الضعف فيها، حتى استقر رأيه أخيرا على تركيز الهجوم على الجانب الشمالى منها، وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ بدأ هجوم صلاح الدين عند باب صهيون، فحمل المسلمون (حملة رجل واحد) حتى وصلوا إلى سور المدينة ونقبوه.

ومن الامور الغريبة ان الملكة ماريا كومنين زوجة باليان دى ابلين الذى نكث بوعده لصلاح الدين والذى تزعم حركة المقاومة ضده داخل بيت المقدس، طلبت من صلاح الدين ان يسمح لها بمغادرة المدينة (بيت المقدس) هى وابنائها، وقد سمح لها صلاح الدين بما طلبت، بل أكثر من ذلك، أمر بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس، كما سمح لغيرها من النساء والاطفال الذين رغبوا فى مغادرة بيت المقدس ان يخرجوا من المدينة آمنين.

وقد عرض صلاح الدين للمرة الثانية على أهالى المدينة الخروج بنفس الشروط التى سبق أن عرضها عليهم، ولكنهم رفضوا.

وعندما أدرك باليان استحالة التغلب على جيوش صلاح الدين المحاصرة لبيت المقدس قرر الاستسلام، فارسل وفدا لمقابلة صلاح الدين وعرضوا عليه تسليم المدينة على نفس الشروط التى سبق ان عرضها عليهم، ولكن صلاح الدين أبى فى تلك المرة أن يوافق على طلبهم وأصر على أن يواصل حصاره للمدينة حتى يفتحها بحد السيف، وقال لرسل الصليبيين: "لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة احدى وتسعين واربعمائة (١٠٩٩م) واجزى السيئة بمثلها".

وقد خرج باليان بنفسه لمفاوضة صلاح الدين فى شروط الاستسلام، ولكنه وجد اصرارا من صلاح الدين على فتح بيت المقدس بحد السيف عند ذلك لجأ باليان للتهديد فقال لصلاح الدين: "اذا رأينا الموت لابد منه فوالله

لنقتل ابناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وامتعتنا، ولا نترككم تغنمون منا دينارا ولا درهما ولا تأسرون رجلا ولا امرأة فاذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرها من المواضع الشريفة، ثم نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوان إلا قتلناه، ثم خرجنا اليكم وقاتلنا قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله".

عندئذ أعاد صلاح الدين التفكير فى الأمر مرة أخرى واستشار اصحابه فيما ينبغى فعله، فاجمعوا على الموافقة على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل، وخمسة دنانير للمرأة، ودينارا واحدا للطفل. أما الفقراء فقد دفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغا قدره ثلاثون ألف دينار. وقد أعطى صلاح الدين للصليبيين مهلة قدرها اربعون يوما لكى يدفعوا الفداء ويغادروا المدينة ومن بقى بعد الاربعين يوما ولم يؤد ما عليه صار مملوكا.

وفى يوم الجمعة ١٢ اكتوبر ١١٨٧م. وهو يوافق ٢٧رجب ٥٨٣هـ وهى ليلة الاسراء والمعراج، دخل صلاح الدين بيت المقدس، وقد رتب على كل باب من أبواب المدينة أمينا من الامراء لتحصيل الفدية المتفق عليها، وقد أظهروا تسامحا كبيرا تجاه فقراء المسيحيين الذين لم يقدروا على دفع الفدية ومنحهم صلاح الدين مساعدات مالية من ماله الخاص كما أن صلاح الدين قد عامل نساء الصليبيين معاملة طيبة للغاية اشاد بها المؤرخون المسلمون والمسيحيون على حد سواء. وقد ارسل الحراس ليصاحبوا الخارجين من بيت المقدس من الصليبيين خوفا عليهم من اعتداءات البدو. واذا قارنا بين هذه المعاملة التى ان دلت على شئ فانما تدل على مدى الحضارة التى كان عليها المسلمون فى تلك الآونة، بالتصرف الهمجى للصليبيين يوم ان فتحوا بيت المقدس فى ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ واجروا به مذبحة مروعة بحيث انهم لم يتركوا مسلما فى الطرقات أو المساجد أو البيوت وإلا قتلوه واستباحوا دمه،

لم يفرقوا بين رجل وطفل وامرأة، ولم يراعى الصليبيون حرمة المسجد الاقصى فاجهزوا على كل من احتمى به من المسلمين وكان عددهم أكثر من سبعين ألفا، كما سبق أن ذكرنا .

أقول لو قارنا بين فتح الصليبين لبيت المقدس والمذابح الرهيبة التى اجروها للمسلمين، وبين فتح صلاح الدين لهذه المدينة المقدسة والمعاملة الطيبة التى عامل بها الصليبيين لبدا الفرق واضحا بين حضارة المسلمين وترفعهم عن الانقياد وراء شهوة الانتقام، وبين بربرية الصليبيين الغربيين الذين اتصفت تصرفاتهم وتشبعت بروح الكراهية والحقد المتأصل فى نفوسهم تجاه المسلمين.

وقد كان صدى فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الايوبى فى العالم الاسلامى كبيرا، وهلل المسلمون لهذا النصر وأتوا القدس الشريف من كل قطر زائرين له. وقد أخذ صلاح الدين يعمل على ازالة كل أثر للصليبيين فى بيت المقدس، فانزل الصليب الكبير الذهبى الذى أقامه الصليبيون فى أعلا قبة الصخرة، كما أمر بغسل الصخرة نفسها بعدة أحمال من ماء الورد وبخرت وفرشت.

وقد نادى بعض المسلمين بهدم كنيسة القيامة وقالوا "اذا هدمت ونبشت المقبرة وعفرت وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار، ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة". ولكن صلاح الدين لم يوافق على هذا الرآى وأمرهم باحترام الاماكن المقدسة المسيحية فى بيت المقدس والتزام روح التسامح مع المسيحيين وهو الأمر الذى انتهجه المسلمون دائما تجاه أهل الذمة.

الفصل الخامس

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

لقد كان لسقوط بيت المقدس فى يد المسلمين وانهيار المملكة الصليبية آثار خطيرة لدى المسيحيين وخاصة فى الغرب الاوروبى، وقد عمل كونراد دى منتفرات على اذكاء روح البغض والكراهية تجاه المسلمين، بما أرسله للغرب الاوروبى من لوحة كبيرة جرى الطواف بها فى اوروبا وهى تمثل القبة المقدسة والقبر المقدس وقد لوثته خيول المسلمين، ونسى كونراد أو تناسى كرم وتسامح صلاح الدين ومعاملته الطيبة للصليبيين كافة على النحو الذى تم توضيحه فيما سبق من احداث.

وقد أرسل كونراد مع هذه اللوحة جوسياس رئيس اساقفة صور ليطلب من البابوية وملوك الغرب المساعدة العسكرية العاجلة. لذا فان كونراد دى منتفرات يعتبر مسئولاً أكثر من غيره عن الدعوة للحملة الصليبية الثالثة.

وقد قابل جوسياس البابا ايربان الثالث الذى كان مسناً ومريضا فلم يحتمل الانباء السيئة التى نقلها إليه جوسياس وخاصة استيلاء المسلمين أو بمعنى أصح استعادتهم لبيت المقدس، وقد توفى البابا ايربان الثالث غما وحزناً بعد سماعه لهذه الاخبار.

وتجدر الاشارة إلى ان الحملة الصليبية الثالثة تختلف عن الحملة الأولى، من حيث أنها لم تنبع من البابوية، وانما نبعت من السلطة العلمانية، التى تمثلها امبراطورية المانيا (الامبراطورية الرومانية المقدسة)، وملكية انجلترا وفرنسا. وقد اعلن الأمبراطور الالمانى فردريك بربروسا الاشتراك فى توجيه حملة صليبية إلى الاراضى المقدسة، وقرر ملك فرنسا فيليب اوغسطس وملك انجلترا هنرى الثانى، الاشتراك سوياً فى حملة صليبية. وما اتخذه كل من هذين الملكين من الوسائل للقيام بالحملة الصليبية انما يدل على ما كان لهذه الحملة من مظهر علمانى. اذ قاما بفرض ضريبة وهى المعروفة باسم عشور صلاح الدين، على كل من لم ينهض لاتخاذ الصليب والاشتراك

فى الحملة، دفعت من جهة عددا كبيرا إلى ان يتحدو الصليب ويشتركوا فى الحملة الصليبية حتى لا يقوموا بدفعها، وصارت من جهة أخرى تعتبر أساسا ماليا للعمليات الحربية والاساس العلمانى للحملة الصليبية الثالثة هو الذى جعلها من جهة أكبر الحملات الصليبية، اذ اشترك فيها الملوك الثلاثة الكبار الذين يحكمون غرب أوروبا، وجعلها من جهة أخرى من عوامل فشلها، لأن ملكى انجلترا وفرنسا بعد أن تغيرت نواياهما، نقلا ما بينهما من منازعات سياسية، إلى الحركة الصليبية، بعد أن تم الاتفاق بينهما على ضرورة اغفالها ونبذها. ولذلك فان الحملة الصليبية الثالثة تعتبر من الناحية الروحية أقل شأنا من الحملة الصليبية الأولى. ومهما يكن فان هنرى الثانى ملك انجلترا توفى فى اوائل يوليو ١١٨٨ فخلفه ابنه ريتشارد قلب الاسد الذى توج فى سبتمبر ١١٨٨.

وفى صيف ١١٩٠أبحر ملكا فرنسا وانجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقضى كل منهما فصل الشتاء فى جزيرة صقلية (سبتمبر ١١٩٠ ـ مارس ١١٩١) مستمتعين بجو صقلية الدافئ. أما امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا فقد خرج على رأس جيوشه فى مايو ١١٨٩ فى طريقه للاراضى المقدسة فى فلسطين متخذاً الطريق البرى عبر هنغاريا مارا بأراضى الدولة البيزنطية.

والواقع أن شخصية فردريك بربروسا استحوذت على اعجاب المؤرخين فى مختلف العصور التاريخية، فيقال انه جمع فى شخصه جميع الشيم التى افتخرت بها فروسية العصر الذى عاش فيه، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط فضلاً عن شغف بالقتال والنزال وولوع بالمغامرة، وحب للعدل بين الناس عدلاً عرفيا مصدره حسن الادراك، لا القانون الجامد. ويقول المؤرخ فيشر انه لم يعتل عرش المانيا منذ شارلمان ملك تم فيه من الخلال المؤهلة لحكم الالمان مثلما تم فى بربروسا، اذ كان باستطاعته ان

يخيف العقول ويسحرها بلطفه فى آن واحد، ولمس رجال الدين والامراء الاقطاعيون والفلاحون تلك الناحية من شخصيته الممتازة، واعتبروه مثال الفارس الكامل.

على أية حال فان فردريك بربروسا وصل إلى أراضى الدولة البيزنطية على رأس جيوشه التى بلغت مائة ألف مقاتل، وكان بصحبته ابنه فردريك أمير سوابيا، الذى عرف باسم فردريك السوابى. ويهمنا فى هذا المجال ان نتعرض للعلاقة بين فردريك بربروسا والامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس الذى كان يحكم الامبراطورية البيزنطية آنذاك (١١٨٥ــ١١٩٥) فقد اتصفت هذه العلاقة بالكراهية والبغض الشديد وذلك لعدة أسباب منها العداء التقليدى الذى ساد دائماً العلاقات بين الامبراطوريتين البيزنطية والالمانية، وقد نظر الاباطرة البيزنطيين دائماً نظرة احتقار وتعالى للامبراطور الالمانى (المحدث)، الذى لم يحظى بلقب الامبراطور إلا منذ عام ٨٠٠م حين توج البابا ليو الثالث شارلمان امبراطوراً، وبذلك أوجد منافساً خطيراً للامبراطور البيزنطى الذى كان يعتبر فريداً من نوعه، وقد رفض الاباطرة البيزنطيون دائماً الاعتراف بالاباطرة الالمان الذين كانوا يطمعون فى الامبراطورية البيزنطية منذ عصر شارلمان. أضف لذلك ان الامبراطور فردريك بربروسا كان فى حالة تحالف مع النورمان فى صقلية وجنوب ايطاليا وهم الاعداء الألداء للامبراطورية البيزنطية لما لهم هم الآخرون من اطماع فيها، وقد ظهرت هذه الاطماع بوضوح خلال عصر الامبراطور اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ـ١١١٨) الذى خاض نضالاً عنيفاً ضد روبرت جويسكارد النورمانى الذى نزل مهاجما لأراضى الامبراطورية البيزنطية فى البلقان، وقد ظل النورمان على عدائهم للبيزنطيين واطماعهم فى الدولة البيزنطية وتاريخ الحملة الصليبية الاولى حافل بالصراع الذى نشب بين بوهيمند النورمانى ابن روبرت جويسكارد وبين الامبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس حول امتلاك انطاكية. هذا إلى جانب العداء التقليدى أيضاً الذى كان بين الدولة

البيزنطية والصليبيين بصفة عامة منذ الحملة الصليبية الأولى. لذلك لا نعجب حين نجد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجليوس يواجه فردريك بربروسا بالعداء منذ أن وطأت قدماه الارض البيزنطية، مما دفع بربروسا إلى ارسال رسالة لابنه هنرى فى المانيا يطلب منه اعداد الجيوش لقتال الدولة البيزنطية. وقد اخذ اسحاق انجيلوس يرسل لصلاح الدين الرسالة تلو الأخرى يخبره فيها بتحركات الألمان، ومحاولاته المستمرة لعرقلة مرورهم عبر أراضيه.

وقد رد صلاح الدين هذا الجميل للامبراطور البيزنطى بان وافق على وضع الاماكن المقدسة المسيحية فى بلاد الشام وفلسطين تحت رعاية رجال الدين الارثوذكس. وقد وافق الامبراطور البيزنطى من جانبه على اشراف صلاح الدين على الجامع الموجود بالقسطنطينية، وهو الذى تم بناؤه فى عصر الامبراطور ليو الثالث الايسورى(٧١٧-٧٤٠ م.) وفى خلافة الأمويين. وقد ارسل صلاح الدين الخطيب والمؤذنين والقراء إلى القسطنطينية واقيمت الخطبة بهذا الجامع للخليفة العباسى.

ولم يلبث فردريك بربروسا بعد أن ووجه بهذا العداء من جانب الامبراطور البيزنطى ان رحل إلى آسيا الصغرى فى أواخر مارس ١١٩٠. وقد دخل الامبراطور الالمانى وجيشه إلى أراضى سلطان سلاجقة الروم الذين اتخذوا من مدينة قونية فى آسيا الصغرى عاصمة لهم وكان يدعى قليج ارسلان الثانى. ويهمنا أيضاً أن نشير هنا إلى علاقات الود التى ربطت بين هذا السلطان المسلم الذى ينتمى إلى السلاجقة الذين حملوا لواء الجهاد ضد المسيحيين منذ وصولهم إلى آسيا الصغرى عند منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وبين الامبراطور الالمانى فردريك بربروسا. وقد تعهد له قليج ارسلان بامداده بالمرشدين وحمايته ورجاله من المعتدين واذا تساءلنا عن الدافع لقليج ارسلان لأن يدخل فى تحالف مع هذا الامبراطور الصليبى لوجدنا ذلك يرجع إلى عداء قليج ارسلان لكل من الامبراطور البيزنطى من جهة

ولصلاح الدين من جهة أخرى، وقد وجد فى تحالفه مع الامبراطور الالمانى الرد على تحالف صلاح الدين مع اسحاق انجيلوس.

وبناء على الاتفاق الذى تم بين قليج ارسلان وفردريك بربروسا فقد أمده سلطان سلاجقة الروم بالادلاء والمرشدين الذين قادوا الجيش الالمانى خلال آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى ارمينيا فى سلام.

وهكذا اصبح الوضع بالغ الخطورة بالنسبة للجانب الاسلامى بعد أن وصلت الحملة الالمانية إلى ارمينيا وكانت الحملة الفرنسية والحملة الانجليزية فى طريقهما للشام، وهكذا أحس المسلمون انهم سيقعوا بين شقى الرحى أو فكى الكماشة، حين يتعرضون لضغط الالمان من الشمال من جهة ارمينيا وضغط الفرنسيين والانجليز من ناحية الجنوب أى من ناحية السواحل المطلة على البحر الابيض المتوسط.

وقد أورد المؤرخون المسلمون عبارات توضح مدى اليأس الذى انتاب المسلمين عندما علموا بوصول الالمان إلى ارمينيا فقال ابن الاثير: "لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام"، وقال أبو الفدا: "بلغ المسلمون وصول ملك الالمان، وكان قد سار من بلاد ما وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية".

وقد سيطر القلق على صلاح الدين، واتخذ من الاجراءات ما يكفل عدم سيطرة الصليبيين على المراكز الاسلامية الهامة واستخدامها فى محاربة المسلمين، فأمر بهدم سور طبرية ويافا وارسوف وقيساريه وصيدا وجبيل، ونقل أهلهم إلى بيروت.

لكن الله سبحانه وتعالى لطف بالمسلمين، وشاء تعالى ان يرفع عنهم ذلك الخطر الجسيم الذين تعرضوا له، اذ غرق فردريك بربروسا اثناء عبوره لنهر السالف في أرمينيا. وقد تعددت الروايات بصدد غرقه، فمن قائل بأنه رمى بنفسه أثناء عبوره للنهر من على ظهر فرسه ليطفئ حرارة جسده، فغرق، ورواية أخرى تقول ان فرسه قد جمح به وألقاه فى الماء على حين غرة ولما كان فردريك يرتدى ملابس الحرب الثقيلة من الدروع وغيرها فانه لم يستطيع ان ينهض وغرق. اما الرواية الثالثة فتقول انه نزل ليستحم فى مياه النهر فغرق فى موضع لا يصل فيه الماء إلى وسط الرجل. ومهما يكن، فان غرق فردريك بربروسا على هذا النحو كان تدخلاً من الاقدار فى ساعة حاسمة فى مصير المسلمين بالشام فى هذه المرحلة التاريخية من نضالهم مع العدو الصليبى.

وقد هلل المسلمون لاختفاء الامبراطور على هذا النحو وقال ابن الاثير: "لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان ـ لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام ـ وإلا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين".

وبموت فردريك بربروسا انفلت زمام الجيش الالمانى ولم يستطع ابنه فردريك السوابى ان يسيطر عليه، فعادت طائفة منه إلى الغرب الاوروبى تجر اذيال الخيبة، أما فردريك فقد حمل جثمان والده فى جرة نبيذ وسار فى طريقه للشام، وعند نهر العاصى اصيب هو ورجاله بالوباء، فالتقطهم بوهيمند الثالث أمير انطاكية على أمل أن يموتوا عنده فيغنم ما معهم. ولكنهم لم يموتوا وانما اخذوا يستردون صحتهم، فضاق بهم وثقلت عليه وطأتهم، فأراد أن يستفيد منهم لمصلحته الخاصة فعرض عليهم مساعدته فى الهجوم على حلب، ولكن فردريك السوابى رفض، ورحل هو ورجاله لينضموا إلى باقى الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا.

الحملة الصليبية الثالثة والاستيلاء على عكا:

كان الملك جاى لوز جنان أحد الذين وقعوا أسرى فى يد صلاح الدين الايوبى فى معركة حطين كما سبق أن ذكرنا ذلك فى موضعه، وقد أخذت زوجته سيبل تلح على صلاح الدين لاطلاق سراح زوجها جاى لوزجنان، وقد استجاب صلاح الدين لتوسلاتها وأطلق سراح جاى فى يوليو ١١٨٨، وكعادة صلاح الدين فى نبل الاخلاق والكرم، أطلق مجموعة من كبار الشخصيات الصليبية التى كانت فى الاسر، حتى يكونوا رفقاء للملك جاى لوزجنان، وقد اطلق صلاح الدين سراح جاى ورفقائه دون مقابل مادى على الاطلاق، وكل ما هنالك أن جاى تعهد لصلاح الدين بألا يشهر فى وجهه سيفاً أبدا ويكون غلامه ومملوكه إلى الابد. وبعد اطلاق سراح جاى لوزجنان توجه مع زوجته سيبل إلى المدينة الوحيدة التى بقيت فى يد الصليبيين من مملكة بيت المقدس الصليبية وهى مدينة صور، وقد سبق أن ذكرنا أن كونراد دى مونتفرات قد سيطر عليها ودافع عنها ضد المسلمين وحال بينها وبين السقوط فى ايديهم، وقد وصل الملك جاى لوزجنان والملكة سيبل إلى صور وطالبا كونراد بالسماح لهما بدخولها، ولكنه رفض أن يسمح لهما بذلك واجابهما بأن هذه المدينة لم تعد مدينتهما وان الفضل يعود إليه فى حفظها والدفاع عنها ضد المسلمين، ولولا جهوده هذه لكانت قد سقطت فى أيديهم كما حدث لغيرها من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية.وقد ظل الملك والملكة أمام صور عدة أشهر يحاولان دخولها دون جدوى ولما وجد الملك جاى لوزجنان انه لم يعد له بلد يأويه نكث فى قسمه وخان عهده الذى قطعه لصلاح الدين بألا يشهر فى وجهه سيفاً أبداً، واتجه نحو عكا التى تعتبر من أهم مدن الشام الساحلية وثانى مدينة بعد بيت المقدس فى الاهمية بالنسبة للصليبيين، وقد صحب الملك جاى فى طريقه إلى عكا جموع كثيرة من الفرسان الصليبيين المشردين، وكذلك مجموعة من الفرسان المقاتلين من النورمان

المعروفين بشدة بأسهم فى القتال. وكان صلاح الدين فى ذلك الوقت مشغولاً بحصار قلعة الشقيف ارنون، ولم يصدق الانباء التى وصلت إليه عن اعتزام الملك جاى لوزجنان الاستيلاء على عكا، وظن أن فى الأمر خدعة لاجباره على ترك قلعة الشقيف ارنون. ولكن لم يلبث أن تأكد من صحة هذه الاخبار وان الصليبيين وعلى رأسهم جاى لوز جنان فى طريقهم فعلاً من صور إلى عكا مرورا بالساحل. وقد كان رأى صلاح الدين أن يقضى على جموع الصليبيين قبل أن يصلوا إلى عكا، ولكن امراءه خالفوه فى الرأى وطالبوا بتأجيل ذلك حتى تكتمل جموع الصليبيين أمام عكا ويقضون عليهم دفعة واحدة.

ولا شك أن رأى صلاح الدين كان هو الأصح والاسلم ولكن لم يعملوا به، وهكذا اجتمع امام عكا جموع كثيرة من الصليبيين خاصة وأن جاى لوز جنان وكونراد دى مونتفرات قد صفيا ما بينهما من خلافات وتعاونا معاً فى حصار عكا، كذلك وصل أمام عكا فردريك السوابى ببقايا الحملة الالمانية الفاشلة والتى انفصم عراها بعد غرق فردريك بربروسا. هذا إلى جانب اساطيل المدن البحرية الايطالية جنوا وبيزا والبندقية التى كانت قد سمعت بالدعوة للحملة الصليبية الثالثة، فصفوا ما بينهم من خلافات واسرعوا للشام للاشتراك فى حرب المسلمين. ويقدر بعض المؤرخين عدد الجموع الصليبية التى احتشدت امام عكا بأكثر من عشرين ألفاً. كما قدروا عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الاوروبية. وهذا العدد الكبير كان يزيد كثيراً على ما كان عند صلاح الدين من سفن حربية وقد اعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحرى للعدو فى بعض رسائله مثل قوله: "ومن خبر الكفار انهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من اجاجه.. فاذا قتل المسلمون واحداً فى البر بعث البحر عوضاً الفاً".

على ان صلاح الدين لم يقف مكتوف اليدين ازاء تجمعات العدو امام عكا، بل سارع بمهاجمتهم، ونجح فى فتح الطريق إلى المدينة لامدادها بالمؤن والاسلحة والرجال، واظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعى الانتباه.

كذلك كان صلاح الدين يتصل بحامية المدينة عن طريق الحمام الزاجل، أو عن طريق العوامين فى البحر وهم ما نعرفهم فى الوقت الحالى باسم (الضفادع البشرية) ومن امثلتهم عيسى العوام الذى كان يشد على وسطه الرسائل المراد توصيلها إلى حاميه عكا وأكياس الذهب للانفاق منها على المجاهدين، ثم يغوص فى البحر ليلاً وفى غفلة من العدو، ثم يخرج من الجانب الآخر من سفن العدو، ويدخل عكا حيث يسلم ما يحمله من الذهب والرسائل إلى رجال الحامية.

وفى ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والرسائل كعادته، وغاص فى البحر، ولم يعد أحد يسمع عنه خبر بعد ذلك، فاعتقد البعض أنه فر بالذهب، على حين اعتقد البعض الآخر بأنه وقع اسيرا فى يد الاعداء. وبعد عدة أيام بينما الناس على ساحل البحر فى عكا، اذا بالبحر يقذف اليهم ميتاً غريقاً، فنظروا إليه فاذا به عيسى العوام، ووجدوا على وسطه أكياس الذهب والرسائل كما هى، وبذلك برأه الله سبحانه وتعالى مما نسب إليه من الخيانة والفرار بالذهب.

وعلى الرغم من الإمدادات التى وصلت لصلاح الدين وهو امام عكا إلا ان التفوق العددى كان للصليبيين. وقد أصبح رجال الحامية أعنى حامية عكا، يشتكون مر الشكوى من مواصلة السهر والقتال ليلاً ونهارا وطلبوا بالحاح سحبهم إلى خارج عكا ووضع حامية اخرى جديدة، وقد تم تجديد الحامية فى منتصف فبراير ١١٩١، ولكن هذه العملية لم تتم على الوجه

الأكمل نظرا لما أحاط بها من ظروف عسيرة خاصة بحصار الصليبيين لعكا. ولم يستطع المسلمون ان يدخلوا إلى عكا سوى عشرين اميرا بدلا من الستين الذين تم سحبهم من عكا ويرجع بعض المؤرخين السبب فى سقوط عكا فيما بعد إلى الخطأ فى تنفيذ هذه العملية بالذات وعدم اتمامها على الوجه الأكمل.

وقد توفيت الملكة سيبل زوجة جاى لوز جنان وهم محاصرين لعكا، وهكذا فقد جاى لوز جنان أى حق له فى عرش مملكة بيت المقدس، بعد وفاة زوجته الملكة صاحبة الحق الشرعى، لأنه كان يجلس على عرش مملكة بيت المقدس بصفته زوج الملكة وليس بصفته الشخصية.

وهكذا انتقل الحق فى العرش إلى اختها ايزابيلا، وكانت ايزابيلا، متزوجة من شخص ضعيف الشخصية وخامل يدعى اونفروى دى تورون، فاتفق الفرسان الصليبيون على تطليق ايزابيلا من زوجها وتزويجها من رجل الساعة حينئذ لديهم وهو كونراد دى مونتفرات، وقد تم ذلك بالفعل فى نوفمبر ١١٩٠. وهذا بطبيعة الحال مما أغضب جاى لوز جنان وأوجد فرقة وانقسام فى صفوف الصليبيين، ولكن سرعان ما انتهى بوصول فيليب اوجسطس ملك فرنسا إلى الشام.

وقد وصل فيليب اوجسطس إلى صور أولا فرحب به قريبه كونراد دى مونتفرات وصحبه إلى عكا، وكان لوصول الملك فيليب إلى عكا رد فعل كبير عند الصليبيين والمسلمين على حد سواء، وفى الوقت الذى هلل فيه الصليبيون وابتهجوا لوصوله نظرا لمكانته الكبيرة عندهم. اذا بالمسلمين يعملون حسابا كبيرا لوصوله، خاصة وانه وصل فى الوقت الذى بدأ المسلمون فيه يضجرون من كثرة القتال وطول البقاء امام عكا، فبدأ بعضهم ينسحب من امامها مثل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل.

ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ان وصل هو الآخر إلى صور بعد ان ساقته الظروف لفتح جزيرة قبرص والاستيلاء عليها من يد حاكمها البيزنطي. وقد رفضت حامية صور استقباله بالمدينة وطلبت منه الاسراع إلى عكا. وبعد وصوله إلى عكا فى ٨ يونيو ١١٩١، ازداد الصليبيون قوة وكثرة عددية، ورغم ذلك فان المسلمين قد أبدوا بطولات وشجاعة نادرة، مثال يعقوب الحلبي الذى خرج من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسة) مشحونة بالآلات والميره والرجال لامداد حامية عكا، فاعترضه ملك انجلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التى كانت تبلغ الاربعين قطعة بحرية، فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا، واحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها، ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولى عليها، قال مقدمها يعقوب الحلبي: "والله لا نقتل إلا عن عز، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئا". ثم حطموا جوانب البطسه، بالمعاول حتى فتحوها، فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وكان عددهم ستمائة وخمسون رجلا وما فيها ولم يظفر العدو منها بشئ.

وقد مر الصليبيون هم الآخرون بظروف سيئة، بعد أن اشتد الخلاف بين جاى لوز جنان وكونراد دى مونتفرات، مما جعل كونراد ينسحب إلى صور، ومرض ريتشارد قلب الأسد، وجرح فيليب اوجسطس، ولكى يكسبوا الوقت حتى تتحسن ظروفهم، اخذوا فى مراسلة صلاح الدين شغلاً للوقت، وظل ريتشارد ملك انجلترا يطلب من صلاح الدين الفاكهة والثلج التى احتاج اليها فى مرضه، وكان صلاح الدين يمده دائما بما يطلبه.

وما أن تحسنت احوال الصليبيين حتى استأنفوا القتال من جديد بضراوة وعنف، وقد ارسلت حامية عكا رسالة إلى صلاح الدين عن طريق الحمام الزاجل جاء بها: "أنا قد بلغ منا العجز غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن فى

الغد ثامن الشهر (جمادى الاولى ٥٨٧هـ / ١١٩١م) ان لم تعملوا معنا شيئا، نطلب الامان ونسلم البلد".

ولم تنجح جميع المحاولات التى قام بها صلاح الدين لانقاذ عكا، واضطر إلى الدخول فى مفاوضات مع الصليبيين ناب عنه فيها أخوه العادل وناب عن الصليبيين الاسبتارية، ولكن الصليبيين غالوا فى مطالبهم وطالبوا برد جميع البلاد التى فتحها صلاح الدين بعد حطين واعادة صليب الصلبوت، وكان من الطبيعى أن يرفض صلاح الدين مطالبهم هذه وبذلك انقطعت المفاوضات. وقد تدخل كونراد دى مونتفرات فى الأمر وبدون موافقة صلاح الدين عقد اتفاقية مع حامية عكا، وقد نصت الاتفاقية على السماح لحامية عكا بالخروج سالمة مقابل فدية قدرها ٢٠٠,٠٠٠دينار وتحرير ٢٥٠٠ من الاسرى الصليبيين، ورد صليب الصلبوت. وهكذا تم للصليبيين الاستيلاء على عكا ودخلوها فى يولية ١٩١١ بعد حصار دام ما يقرب من العامين.

وبعد سقوط عكا فى يد الصليبيين اعتذر فيليب اوجسطس ملك فرنسا بالمرض وغادر بلاد الشام إلى برنديزى فى ايطاليا فى اغسطس ١١٩١، على حين استمر ريتشارد ملك انجلترا فى الشام وقام بعدة محاولات لاسترداد بيت المقدس ولكنه فشل، ولم يستطع سوى الاستيلاء على ساحل فلسطين من عكا إلى يافا.

وقد حاول ريتشارد ان يصل إلى حل سلمى لمشكلة بيت المقدس فاقترح ان تتزوج اخته جوانا من العادل شقيق صلاح الدين ويحكمان معا مملكة بيت المقدس الصليبية بحدودها التى كانت عليها قبل معركة حطين ١١٨٧. وقد وافق صلاح الدين على هذا الاقتراح ووافق العادل أيضا، ولكن جوانا رفضت بعد أن حرضها رجال الدين ضد الزواج من مسلم. وكان ان اقترح

ريتشارد ان يعتنق العادل المسيحية، ولو تظاهرا، حتى توافق جوانا، ولكن صلاح الدين والعادل رفضا ذلك، وهكذا انتهى هذا المشروع بالفشل.

ولما طالت اقامة ريتشارد بالشام واصابه المرض واضطربت احوال مملكة انجلترا نتيجة لغيابه عنها طوال هذه السنين منذ خرج من بلده في صيف ١١٩٠، أخذ يلح على صلاح الدين من أجل الوصول إلى اتفاق حتى يتمكن من مغادرة الشام والعودة إلى وطنه، واخيرا تم بينهما صلح الرملة في ٢ سبتمبر ١١٩٢. ونص على ما يلى:

١- أن يكون للصليبيين البلاد الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وارسوف.
٢- تكون عسقلان للمسلمين.
٣- تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين.
٤- يكون للمسيحيين حرية الحج إلى الاماكن المقدسة فى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك.
٥- أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

وهكذا تم الاتفاق أخيرا، وعقب ذلك غادر ريتشارد الشام فى ٩ اكتوبر ١١٩٢ فى طريقه بحرا إلى بلاده.

وبذلك انتهت قصة الحملة الصليبية الثالثة التى قامت أساسا من أجل استرداد بيت المقدس بعد أن فتحها صلاح الدين وحطم مملكة بيت المقدس الصليبية عقب انتصاره فى معركة حطين ١١٨٧م. ولكن هذه الحملة رغم اشتراك ثلاثة من كبار ملوك الغرب الاوروبى بها، ورغم الاستعدادات المادية والبشرية التى اتيحت لها، ورغم الظروف الصعبة التى مر بها صلاح الدين والمسلمون، إلا أنها لم تحقق الهدف الذى خرجت من أجل تحقيقه وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين، ولذلك يمكننا القول أن هذه الحملة فشلت فى تحقيق هدفها، وبقيت مدينة بيت المقدس فى حوزة المسلمين.

وفاة صلاح الدين والصراع بين الأيوبيين:

توفى صلاح الدين فى اوائل مارس سنة ١١٩٣، وكانت وفاته وهو بدمشق بعد مرض قصير ألم به. ودفن هناك ومعه سيفه الذى طالما جاهد به أعداء الاسلام، ليتوكأ عليه إلى الجنة على حد تعبير المؤرخ أبو شامه.

أما المؤرخ ابن شداد فيصف حب صلاح الدين للجهاد وتفانيه فى نصرة دين الله. فيقول: "ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا فى آلاته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة".

وقد كان يوم وفاته يوم حزن وأسى بالنسبة للمسلمين وقد تمنى الكثيرون منهم ان يفتدوه بأنفسهم، وقد اعترف المؤرخون الغربيون بقوة صلاح الدين وعدله وتسامحه بل وأكثر من ذلك لقد اعترفوا بانه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية بأجمعه، ولا شك أن هذه شهادة طيبة للغاية خاصة اذا كانت صادرة من اعدائه، ورغم ما حفل به عصر الحروب الصليبية من شخصيات الاباطره والملوك الغربيين، ولكن تصرفات صلاح الدين التى اتسمت دائما بالشهامة والمروءة والنبل والترفع عن الانتقام والرد بالمثل على تصرفات الصليبيين الهمجية، كل ذلك جعل منه اعظم شخصية فى عصر الحروب الصليبية وبشهادة اعدائه.

على أنه ما كاد صلاح الدين يختفى من مسرح الاحداث، حتى دب الخلاف والانقسام بين أفراد البيت الايوبى. فقد أنجب صلاح الدين سبعة

عشر ه من الابناء كان من الطبيعي ان يختص صلاح الدين ابنائه بحكم الاجزاء الرئيسيه في دولته، وقلد حوله الدين كان اهم شخصية فيهم هو العادل، الاجزاء الثانوية.

وعند وفاة صلاح الدين كان أكبر ابنائه ويسمى الافضل نور الدين على موجودا مع ابيه بدمشق، فاحتفظ بها وبالمدن الساحلية وبيت المقدس وبعلبك صرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم بالقرب من حدود مصر. وكان صلاح الدين قد أوصى بالسلطنة من بعده لابنه الأفضل بمعنى ان تكون له السلطة العليا في باقي انحاء الدولة الايوبية.

اما الابن الثاني لصلاح الدين وهو العزيز عثمان، فكان في مصر وقت وفاة أبيه، لذلك فقد احتفظ بها. أما الابن الثالث وهو الظاهر غازى، فقد أخذ حلب وشمال الشام وكان صلاح الدين قد منح اخوه العادل بعض الاقطاعات الثانوية المتفرقة مثل الاردن والكرك إلى جانب الجزيرة وديار بكر.

كان هؤلاء اهم الشخصيات بعد صلاح الدين أما باقي ابنائه واخوته فقد اخذوا اقطاعات صغيرة.

ما يهمنا في هذا الصدد ان الملك الافضل وهو الابن الاكبر لصلاح الدين لم يكن بالشخصية التي تصلح لأن تتولى السلطنة بعد والده صلاح الدين العظيم، فقد كان الأفضل ضعيف الشخصية سيئ السيرة والسلوك وقد احتجب عن الرعية وقضى وقته كله في شرب الخمر والاستماع إلى الاغاني واللهو وشتان بين شخصية صلاح الدين وشخصية ابنه الأفضل.

وقد ابعد الأفضل رجال ابيه صلاح الدين من الامراء والوزراء، الذين ساءهم تصرفات الأفضل، فلجأوا الى اخيه الملك العزيز عثمان حاكم مصر،

واخذوا يثيرونه على اخيه الافضل، وكان ان استجاب لهم العزيز وخرج على رأس جيشه واتجه إلى دمشق حيث فرض الحصار عليها. وقد لجأ الافضل إلى عمه العادل يستنجد به، وكانت هذه هى الفرصة التى انتظرها العادل، ليتدخل فى شئون ابناء صلاح الدين ويحركهم جميعاً لخدمة اغراضه الخاصة، لاسيما وانه كما وصفه المؤرخون كان "ذا مكر شديد وخديعة، صبورا ذا أناة وتؤده". وقد استجاب العادل لنداء الأفضل وجمع الامراء من بيت صلاح الدين ووقفوا جميعاً فى وجه العزيز عثمان، الذى أدرك تماما أنه لا قبل له بمواجهة هؤلاء مجتمعين، فاجتمع مع العادل بالقرب من دمشق وطيب العادل خاطره وزوجه من ابنته، وعاد العزيز إلى مصر.

على أن الافضل لم يرتدع، وانما استمر فى لهوه وتشاغله عن الرعية وعن تصريف امورها بنفسه بعد أن أوكل هذه المهمة لوزيره ضياء الدين ابن الاثير وهو شقيق المؤرخ المشهور. فعاود العزيز عثمان خروجه من مصر إلى دمشق بغرض ضمها لممتلكاته وابعاد الأفضل، وقد استنجد الافضل بعمه العادل للمرة الثانية، فحرض امراء العزيز على تركه والعودة لمصر، وهكذا انفض الامراء من حول العزيز الذى وجد نفسه وحيداً، فاضطر للعودة إلى مصر.

وقد خشى الأفضل ان يعاود اخيه الكرة ويحاربه من جديد، فاتفق مع عمه العادل على أن يذهبا بجيوشهما إلى مصر ويستوليا عليها وتكون من نصيب الأفضل على أن يعطى عمه العادل حكم دمشق. وبالفعل خرج الاثنان لتنفيذ الاتفاق السابق ودخلا الاراضى المصرية ونزلا على بلبيس محاصرين لها، ولكن العادل خشى أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق، فارسل سرا إلى العزيز وطلب منه الثبات وتعهد له بأنه سيعمل على عودة الأفضل لدمشق، وقد كان فعاد الأفضل لدمشق دون ان يحقق أمله فى الاستئثار بحكم مصر دون أخيه العزيز.

وهكذا أصبح العادل يمسك بالموقف كله بين يديه، ويحرك الاخوة أبناء صلاح الدين كيفما أراد. وحين تمادى الأفضل فى طيشه ولهوه وضج الناس بالشكوى، ذهب العادل إلى العزيز فى مصر واتفقا على خلع الافضل والاستيلاء على ملكة بدمشق، وقد خرج الاثنان فى يونيو ١١٩٦ لتحقيق هذا الاتفاق ودخلا دمشق دون مقاومة تذكر وحل العادل محل الأفضل فى حكم دمشق. على حين اخذ العزيز لقب السلطنة وظل يحكم مصر.

ولم يلبث العزيز عثمان ان توفى فى نوفمبر ١١٩٨، وكان أكبر أبنائه لا يزال طفلاً صغيراً فى العاشرة من عمره، فأرسل فخر الدين جهاركس المسيطر على الأمور فى مصر إلى العادل يستدعيه ليسلم له مصر، فى حين ان المماليك الأسدية والصالحية خشوا قوة شخصية العادل واستبداده بالامور، ورأوا أن يسلموا مصر للأفضل، وهو المعروف بضعف شخصيته وتشاغله باللهو، حتى تتاح لهم الفرصة ليفعل كل منهم ما يراه فى ظل حكمه. وبالفعل وصل الأفضل إلى مصر وتسلم مقاليد الأمور بها وقد أراد الأفضل الانتقام من عمه العادل، فاتفق مع اخيه الملك الظاهر حاكم حلب لأخذ دمشق من عمهما العادل، الذى كان غائباً عن دمشق يحاصر ماردين فى ديار بكر. ولكن العادل حين علم بمؤامرة ابناء اخيه ضده عاد مسرعاً إلى دمشق ودخلها قبل وصولهما إليها، وأخذ يعد العدة للدفاع عن دمشق. وقد وصل الأفضل بجيوشه من مصر والظاهر بجيوشه من حلب، وحاصرا دمشق لمدة ستة أشهر دون أن يقوما بمحاولة جدية لاقتحامها. وقد استعمل العادل ذكائه ودهائه لبذر بذور الخلاف بين الأخوين، إلى جانب استمالته لامراء الأفضل والظاهر، فانضموا إلى جانب العادل، وانفضوا عن الأفضل والظاهر. وانتهى الأمر برفعهما الحصار عن دمشق والعودة إلى ديارهما.

وقد طارد العادل الأفضل حتى مصر وأوقع به هزيمة كبيرة بالقرب من بلبيس، ثم لحق به إلى القاهرة واجبره على التخلى عن حكم مصر وتركها للعادل، أما هو أى الأفضل فقد انسحب إلى اقطاعه الصغير فى حوران.

وقد قام الأفضل بالاتفاق مع شقيقه الظاهر، وتعاونا معا ضد العادل، وحاصرا دمشق، وقد خرج العادل من مصر على وجه السرعة، حيث بذر بذور الخلاف كعادته بين الشقيقين، وكان من نتيجة ذلك ان رحل الظاهر إلى حلب، أما الأفضل فقد عاقبه العادل وسحب منه حوران واقطعه سميساط لاغير.

وهكذا دان للعادل ملك مصر ودمشق وبيت المقدس بفضل حيلته ودهائه، وان كان صلاح الدين الايوبى قد خشى من طموح العادل وحاول ان يقضى على طموحه هذا باعطائه اقطاعا ثانويا لا يتناسب مع اطماعه، إلا ان العادل نجح عن طريق الصبر والمكر والخديعة ان يحقق اطماعه فى ملك صلاح الدين، وصفى له الجو بعد ان تخلص من الأفضل وخلصه الموت من العزيز عثمان.

وقد قسم العادل ملكه على ابنائه، فاعطى الكامل حكم مصر، والمعظم عيسى دمشق، والاشرف موسى حران، والأوحد ميافارقين، اما العادل فكان له الاشراف العام والتام على جميع تلك الممالك.

واذا كان العادل قد نجح في توحيد مصر والشام مرة أخرى، إلا أنه وقع عليه عبء مواجهة الصليبيين، وحماية الأراضى الاسلامية من غاراتهم عليها، كما سنرى فيما بعد.

مملكة بيت المقدس الصليبية الأسمية:

رغم ان الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت فى استرداد بيت المقدس من يد المسلمين، إلا أنها نجحت فى استرداد الساحل القديم لمملكة بيت المقدس بما فيه حيفا وقيسارية وارسوف ويافا وعكا، التى كانت أهم مدينة به، وصارت قاعدة مملكة بيت المقدس فى عهدها الجديد، ورغم عدم وجود مدينة بيت المقدس نفسها فى يد الصليبيين إلا انهم أصروا على استمرار احتفاظ المملكة باسمها القديم (مملكة بيت المقدس). وهذا يدل على تصميمهم على استعادة مدينة بيت المقدس لحوزتهم من جديد.

وهكذا كانت الصفة البحرية هى الطابع المميز لهذه المملكة، بعد أن فقدت كل ما كان لها من ممتلكات داخل فلسطين، وأصبحت لا تضم سوى المدن الساحلية بما فيها صور، وقد كان لذلك نتيجة حتمية هى اعتماد هذه المملكة على الغرب الاوروبى وخاصة اساطيل المدن البحرية الايطالية أو الثلاثة الكبار كما كان يطلق عليهم فى ذلك الحين وهم جنوا وبيزا والبندقية.

وكان اول من حكم هذه المملكة فى عهدها الجديد هو هنرى دى شامبنى وهو ابن اخت الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، والزوج الثالث لايزابيلا وريثه مملكة بيت المقدس الصليبية، والجدير بالذكر أن هنرى دى شامبنى لم يتوج ملكاً على تلك المملكة، والسبب فى ذلك غير معروف، وربما رأى هو تأجيل هذا التتويج حتى استرداد بيت المقدس ويتوج بها، وعلى أية حال فقد توفى هنرى دى شامبنى فى ١٠ سبتمبر ١١٩٧، وجرى البحث عن زوج رابع لايزابيلا وكان أن تم الاتفاق على تزويجها من عمورى لوز جنان ملك قبرص، وهكذا تم توحيد عرش مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية. على أن هذا التوحيد لم يلبث أن انفصمت عراه، بعد وفاة عمورى لوز جنان، وبذلك عاد عرش مملكة بيت المقدس إلى صاحبته ايزابيلا ثم إلى

كبرى بناتها من هنرى دى شامبنى وتدعى مارى. ولما كانت مارى لا تزال صغيرة السن اذا كانت فى الرابعة عشرة من عمرها فقد وضعت تحت وصاية ابلين حاكم بيروت. وفى عام ١٢٠٨ بلغت مارى سن الرشد وبدأت، مشكلة البحث عن عريس مناسب، ليس لها، وانما مناسب للمملكة، أى تكون له من الخبرة والكفاية ما يمكنه من حماية مصالح الصليبيين بالشام، وهو ما نطلق عليه اسم (الزواج السياسى)، وقد تم عقد مجلس فى عكا برئاسة البطريرك لبحث هذا الموضوع، واجتمع رأى المجتمعين على الرجوع إلى فيليب اوجسطس ملك فرنسا ليتولى اختيار الزوج المناسب. وللأسف فقد وقع اختيار فيليب على عجوز مفلس يدعى حنا دى برين وكان فى الستين من عمره ليتزوج من مارى التى لم تبلغ العشرين بعد. ولكن ملك فرنسا وجد فى حنا دى برين الصفات اللازمة للصليبيين بالشام. وفى سبتمبر ١٢١٠ وصل العريس المفلس إلى عكا بعد أن زوده كل من البابا وملك فرنسا بمبلغ من المال، وقد استقبله الصليبيون بجميع طوائفهم بالترحاب، وتم زواجه من مارى وتوج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى كاتدرائية صور فى اوائل اكتوبر ١٢١٠م.

ولم يمتد العمر بمارى مع هذا الكهل لأكثر من سنتين فتوفيت فى عام ١٢١٢، حزينة على شبابها الضائع، وبعد أن انجبت طفلة اسمتها ايزابيلا أو يولاند. وهكذا اصبح حنا دى برين غير ذى صفة بالنسبة للصليبيين، لانه تولى الحكم بصفته زوجا للملكة صاحبة الحق الشرعى، فلما ماتت فقد صفته هذه واصبح لا شئ. على انه تم الاتفاق سريعا على ان يتولى حنا دى برين الوصاية على ابنته يولاند حتى تبلغ سن الرشد. وبذلك استمر حنا دى برين ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ولكن بصفته وصى على ابنته يولاند صاحبة الحق الشرعى. وقد قام حنا دى برين هذا بدور كبير فى الحملة الصليبية الخامسة على مصر، كما سنرى خلال عرضنا للاحداث فيما بعد.

الفصل السادس

الحملة الصليبية الرابعة والعاصمة البيزنطية

"أيتها المدينة .. المدينة..
لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس
غضب الله"

خونياتيس

فى سنة ١١٩٨، تولى كرسى البابوية واحد من المع البابوات الذين تولوا هذا المنصب فى العصور الوسطى، وهو لوثر اوف سيجنى Lohtar of Segni الذى عرف باسم البابا اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) وهو ينتمى إلى عائلة رومانية عريقة هى عائلة Conti سادة مقاطعة سيجنى، وكان يبلغ السابعة والثلاثين من العمر حين تولى منصب البابوية.

وقد درس اللاهوت فى باريس على يد Peter of Corbeil وهو واحد من الرجال اللامعين فى هذا العلم. كما درس أيضاً القانون فى بولونا على يد واحد من أشهر رجال القانون فى ايطاليا وهو Uguccio of Ferrara.

وقد ظهر البابا اينوسنت الثالث فى هذه الفترة ليسترد النفوذ السياسى للبابوية فى ايطاليا وعبر جبال الالب، وليحمى السلطة الاكليريكية من جور السلطة العلمانية. وفى ظل هذا البابا نظمت الحياة الدينية فى الغرب الاوروبى واديرت بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، فبينما خلف البابا جريجورى السابع "مرارة الحزن وعظيم القلق" نجد أن اينوسنت الثالث جعل من البابوية "المركز الاكثر تمجيداً على وجه الأرض" وذلك لأن البابا نائب المسيح، وخليفة بطرس، الذى ليس له نظير بين البشر، فهو بصفته نائب المسيح يعتّبر "ملك الملوك وسيد السادة"، وهو يجمع فى شخصه بين السلطتين الدينية والدنيوية، لأن كلاهما أتت من نفس المصدر الألهى. وهكذا أصبح البابا على عهد اينوسنت الثالث صاحب السلطة المطلقة فى كل شئ وهو ما يعرف باسم... Plenitudo Potestatis
.

وكان من رأيه ان البابا هو القاضى الأعلى فى الشئون الدينية والدنيوية على حد سواء، فهو يمثّل القانون الجنائى فى الأمور المدنية، كما يمثّل القانون

الكنسى فى الأمور الدينية. ولذلك أصبح البابا هو الفيصل الأعلى للمجتمع المسيحى، والمصدر الذى تنبع منه العدالة، والمحكمة العليا التى يرفع إليها الناس شكواهم وأصبحت روما على عهده الملجأ لكل صاحب شكوى مهما كان مصدرها.

أما الابريشة المقدسة لروما فهى من وجهة نظره "تجلس فى مكان متوسط بين الله والبشر، هى أدنى من الله، ولكنها أعلى من البشر".

ومن أقواله عنها "الابرشيه، انا املك ذلك اليوم الذى تجلس فيه فوق الامم والممالك، ترفع وتخفض، تقهر وتخرب، تزرع وتشيد".

وادعى البابا اينوسنت الثالث، ان الامبراطورية الرومانية قد اختصت البابوية بشيئين هما: -

Principaliter et Finaliter

Principaliter لأن البابوية هى الأصل ، Finaliter لأن الامبراطور يتسلم سلطاته العلمانية من الحبر الأعظم البابا.

وبناء على سلطة البابا المطلقة فى كل شئ التى نادى بها اينوسنت الثالث، كان أول بابا يدعى الحق فى انفاق ايرادات الكنيسة بالصورة التى يراها هو فقط، وقد أصبح للبابوية على عهده موارد مالية ضخمة، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام، وقد ارتبطت هذه الضرائب فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على

رعاياهم العلمانيين والاكليركيين من أجل الغرض الصليبى. وقد خطا البابا اينوسنت خطوة جديدة فى هذا الشأن عندما اصدر أمراً سنة ١١٩٩ إلى جميع الاساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية جزءاً من اربعين ($\frac{١}{٤٠}$) من دخل الاسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها واقطاعاتها، هذا غير مجموع الضرائب الأخرى التى ظلت البابوية تجمعها عن طريق مباشر عند تعيين الاساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين فى مناصبهم، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران . ونتيجة لذلك أصبحت البابوية فى القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد المالية ما يعادل دخل كل ملوك أوروبا مجتمعين.

وهكذا تمكن البابا اينوسنت الثالث من تحقيق كل ما كانت تطمع فيه البابوية من سمو فى ضوء مبادئ جريجورى السابع واسكندر الثالث. وقد شبه البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس، وبذلك عاد إلى نغمة سيادة البابوية على الامبراطورية.

والمعروف أن البابا اينوسنت الثالث قد اصدر قرار الحرمان على يوحنا الثانى ملك انجلترا، ولما اعترف الملك بخطيئته وأعلن خضوعه، التفت اينوسنت إلى البارونات الانجليز الذين ثاروا ضد يوحنا واجبروه على كتابة العهد الأعظم، فضرب بهذا العهد عرض الحائط، ثم اصدر قرار الحرمان على هؤلاء البارونات . وهو الذى حافظ على حقوق فردريك الثانى فى مملكة صقلية ، واشعل حرباً مروعة فى المانيا ونادى بأنه من حق البابا تعيين الاباطرة بها أو عزلهم وفقاً لمشيئة الكنيسة

ولصالحها[١]. وحاول جاهداً القضاء على الهرطقة الالبيجنسية التى انتشرت فى جنوب فرنسا حتى قضى عليها وعلى أهلها[٢].

قد وضع البابا اينوسنت الثالث نصب عينيه محو اثار الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين فى الشرق. تلك الانتصارات التى توجت بمعركة حطين فى ١١٨٧م. والعمل على استرجاع بيت المقدس من يد المسلمين. وبعد أن تولى اينوسنت منصب البابوية بوقت قصير، دعا فى منتصف سنة ١١٩٨ إلى الإعداد لحملة صليبية جديدة هى الحملة التى عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة[٣].

---

[١] بخصوص البابا اينوسنت الثالث والبابوية فى عهده انظر المراجع التالية:

Jacob (E): Innocent III, in C.M.H. ed Hussey, London, 1975, Vol. VI, pp.1-6
Barrachogh (g) : The Medieval Papacy, London, 1975, pp. 112-114.

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢، جـ٢، ص ٩.

فيشر : تاريخ اوروبا العصور الوسطى، جـ١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٣.

[٢] الالبيجنسية حركة دينية ظهرت فى جنوب فرنسا فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، واصحابها ينسبون إلى مدينة البى Albi فى كونتيه تولوز فعرفوا بأسم الالبيجنسيين Albigensians وأطلق عليهم كذلك اسم الكاتارين Cathari أى المتطهرين، كانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين ونادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس، إلى غير ذلك من الاراء التى خالفت تعاليم الكنيسة، مما جعل الموقف بينها وبينهم مسألة حياة أو موت، قد حاول البابا اينوسنت الثالث إقناع هؤلاء الهراطقة فى أول الأمر بالعودة إلى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة فأرسل بعض الوعاظ على رأسهم مقدم ديرسيستو ومندوب من قبل البابا نفسه إلى جنوب فرنسا لتحقيق ذلك ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا فى مهمتهم، لذلك أخذ البابا يدعو لحملة صليبية ضد هؤلاء الهراطقة وقامت هذه الحملة بالفعل فى سنة ١٢٠٩ ونجحت فى مهمتها، مما دفع البابا إلى عقد مجمع دينى فى ١٢١٧ قرر منح قائد هذه الحملة وهو سيمون دى مونتفورت أحد أمراء فرنسا، دوقية تولوز وغيرها من الدوقيات المجاورة مكافأة له على نجاحه فى القضاء على هذه الحركة، عن ذلك راجع المراجع التالية:

Lavise:Histoire de France, Paris. 1911,Tome 3, Premiere Partie, p. 262-277.
Painter (s) : A History of the Middle Ages. New York. 1954, p. 306.

[٣] عن كل ما يتعلق بالحملة الصليبية الرابعة راجع:

إسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢.

وقد أرسل البابا إلى إيمار Aymar بطريرك مملكة بيت المقدس يأمره بإرسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف فى بلاد الشام وبصفة خاصة مدى قوة حكام المسلمين[1].

وقام البابا على الفور باتصالات واسعة مع الاباطرة والملوك المسيحيين من أجل دعوتهم للاشتراك فى هذه الحرب الجديدة ضد المسلمين فأرسل إلى الامبراطور البيزنطى اليكسيوس الثالث انجيلوس يدعوه للمساهمة فى هذه الحملة وأكد البابا للامبراطور على ضرورة ترك الأمور الأخرى جانبا والاسراع للاشتراك فى هذه الحملة خاصة وان قرب الدولة البيزنطية من ميدان المعركة مع المسلمين مما ييسر لها هذه المهمة ومما جاء فى خطاب البابا اينوسنت إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث قوله : " من يستطيع أن يفعل أكثر منك، أنظر قربك من الميدان حيث يجب أن تشتعل المعركة، ثروتك وقوتك، ضع كل الاعتبارات الأخرى جانباً، وجئ لمساعدة يسوع المسيح، ووطنه الذى فاز بدمه. أن المسلمين سيفرون أمامك وأمام جيشك، وأنت يجب أن تشارك مع الآخرين فى مساعدة البابوية".

وقد أرسل البابا رسلا من طرفه إلى القسطنطينية من أجل التفاوض على موضوعين، احدهما موضوع اشتراك البيزنطيين فى هذه الحملة الجديدة، أما الموضوع الأخر فهو اتحاد الكنيستين. وقد استقبل البيزنطيون رسل البابا باحترام بالغ. لكن اللهجة المتعالية لخطاب البابا لم تجد صدا طيبا لدى الامبراطور كما أن تجربة البيزنطيين مع الحملة الصليبية السابقة وهى الحملة الثالثة جعلتهم لا يرحبون بالتعاون الفعال مع الصليبيين.

---

[1] Luchaire : Innocent III. La queslion d'Orient, p. 15.

وقد رد الامبراطور على البابا بخطاب أوضح فيه أن الامبراطور فردريك بربروسا أثناء مروره بالأراضى البيزنطية منذ سنوات قليلة. أقسم على عبور تلك الأراضى بسلام وعلى ألا يرتكب أى فعل ضد رعايا الامبراطور، ولكنه نقض قسمه، وقاتل المسيحيين مثلما قاتل المسلمين، وأن الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية وهم يعتدون على الأراضى البيزنطية. ويرفعون السلاح على المسيحيين بها، ويدنسون أيديهم بدمائهم ويجلبون على أنفسهم بذلك غضب الله، وأن من صميم اختصاص البابا أن يثنيهم عن اتيان مثل هذه الأفعال[١] .

وقد وعد الامبراطور البابا بأنه سيبذل كل جهده من أجل العمل على استرجاع الأراضى المقدسة، إذا سمحت ظروف الامبراطورية بذلك.

أما فيما يتعلق باتحاد الكنيستين، فلم تسفر المفاوضات عن شئ، وقد أوضح الامبراطور للبابا رأيه فى هذا الموضوع، وهو أن الاتحاد الأفضل لابد وأن تكون لإحدى الكنيستين فيه السيادة على الأخرى، وأن كنيسة روما تطمع فى أن تكون لها هذه السيادة بما تدعيه من أنها الكنيسة العالمية، الكنيسة الأم لكل الكنائس المسيحية. لكن الامبراطور أوضح أن هذا الأمر لا يخص كنيسة روما. ولكنه خاص بكنيسة أورشليم. وبالتالى لا يحق لروما ادعاء السيادة على كنيسة القسطنطينية[٢] .

---

[١] أشار البابا اينوسنت الثالث فى خطابه إلى الامبراطور اليكسيوس الثالث فى ١٦ نوفمبر ١٢٠٢ إلى ما جاء فى خطاب الامبراطور للبابا، انظر عن ذلك:

Innocentii III Epistolae, in Patrologia Latina, ed Paris, 1855, Vol, CCXIV. Cols. 1123 - 1124.

[2] Pears: The Fall of Constantinople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 226-227.

وهكذا لم تحقق دعوة البابا اينوسنت الثالث للامبراطور البيزنطى للاشتراك فى الحملة الصليبية نجاح يذكر. أما فى الغرب الاوروبى فقد صادفت الدعوة نجاحا أكثر، وأخذ رجال الدين يدعون للحملة، كما وضع صندوق فى كل كنيسة لتلقى الهبات المالية من أجل الاعداد لها.

والجدير بالذكر أن أحدا من ملوك أوروبا لم يشترك فى هذه الحملة، فقد شغل كل من فيليب أوجسطس ملك فرنسا ويوحنا الثانى ملك انجلترا بالصراع الذى اشتعل بينهما من جهة وبمشاكلهما الداخلية من جهة أخرى[١]. أما فيليب السوابى ملك المانيا فقد كان يخوض نضالا مريرا مع منافسه على العرش الالمانى أوتو اوف برنسويك ابن هنرى الأسد[٢].

على أن ذلك لم يمنع الأمراء والفرسان الغربيين من تقبل الدعوة فأشترك فى هذه الحملة نخبة من أفضل البارونات والفرسان فى فرنسا مما جعل الطابع الفرنسى يطغى على الحملة كذلك اشترك فيها فرسان من انجلترا والمانيا، والفلاندرز وصقلية[٣]. وتولى قيادة الحملة ثيبوت كونت شامبنى وبرى Thibout Count of Champagne and Brie. الذى كان فى الثانية والعشرين من عمره آنذاك، كما يذكر مؤرخ الحملة الماريشال جيوفرى فيلهاردوين[٤].

---

(1) Lavise ; Histoire de France, Parie 1911, Tome 3, Premiere Partie, pp. 112-290

Painter (s) ; A History of the Middle Ages, New York, 1954, p. 253.

(2) Austin Lane'Poole ; Philip of Swabia and Otto Iv, in C. M, H. ed Hussey, London, 1975. Vol, VI, Part 1, ppm 44-71.

(٣) ذكر فيلهاردوين بالتفصيل أسماء كبار الشخصيات التى اشتركت فى هذه الحملة، انظر عن ذلك:

Villehardouin : op. cit. pp. 2 - 3.

(4) Ibid : p. 2.

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هى تحديد وجهة الحملة. وقد انقسموا إلى فريقين، فريق يطالب بأن تتوجه إلى بيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليها، وفريق آخر رأى أن تكون وجهتهم هى مصر، على أساس أنها الخطر الحقيقى الذى يهدد الصليبيين فى الشام، بما لها من امكانيات مادية وبشرية ضخمة استعان بها الايوبيون على محاربة الصليبيين. هذا بالاضافة إلى أن اعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت حكم الملك العادل جعل الخطر يتزايد على الصليبيين فيما لو اتجهوا لحصار بيت المقدس أولاً لأنهم عندئذ سيقعون بين فكى الكماشة حين تخرج الجيوش من مصر ومن دمشق فى نفس الوقت للقضاء عليهم.

هذا فضلاً عن وجود عدد كبير من التجار الايطاليين فى موانئ دلتا النيل وبصفة خاصة فى مدينتى دمياط والاسكندرية ولا شك أن هؤلاء التجار سيتعرضون للانتقام من جانب السلطات المصرية، فى حالة حصار الصليبيين لبيت المقدس، فالأفضل أن يبدأ الصليبيون الهجوم على شواطئ مصر الشمالية لحماية هؤلاء التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين، ثم بعد ذلك يصبح من السهل عليهم الاستيلاء على بيت المقدس،أما عن طريق القوة، أو عن طريق المساومة.

ولهذه الاسباب كلها، تم الاتفاق على أن تكون مصر هى مقصد الحملة الصليبية الجديدة[1].

---

[1] Grousset (R). : Histoire des Croisedes et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris 1946, Vol, III p. 171.
Nicol : The Fourth Crusade and the greek and Latin Empires, 1204 - 1261, in C.M.H. ed Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, Part 1, p. 276.
Rumciman (s) : A History of the Crusades, Cambridge University Press. 1966, Vol. 3, p.113.

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن واجهوا مشكلة خاصة بكيفية حصولهم على السفن اللازمة لنقلهم إلى مصر، وقد وقع اختيارهم على البندقية لإمدادهم بما يلزمهم من أسطول، وذلك للمركز الكبير والهام الذى كان للبندقية فى هذه الفترة. فقد كانت آنذاك فى أوج قوتها ومجدها وثرائها. وكان هذا الثراء ناتج عن نشاط أسطولها الضخم فى عمليات النقل التجارى بين الشرق والغرب. وبعد قيام الحروب الصليبية أخذ هذا الاسطول يقوم بدور هام فى نقل الصليبيين إلى الشرق وكذلك نقل المعدات الحربية لهم وللمسلمين على حد سواء لأن ما يهم البندقية كان هو الكسب المادى الذى تحصل عليه نتيجة لعمليات النقل، أما الصالح الصليبى والبابوية والأراضى المقدسة فهذه كلها الفاظ جوفاء فى نظر البنادقة لن يجنوا من ورائها الافساد تجارتهم وكساد نشاطهم، لذلك لم يكونوا ليتأخروا عن التعامل مع المسلمين والمسيحيين، وتقديم خدماتهم للجميع، على الرغم من المنشورات الصريحة التى كان يصدرها بابوات روما بتحريم الاتجار فى المعدات الحربية مع المسلمين والتهديد بتوقيع عقوبة الحرمان على كل من يشتغل بهذه التجارة المحرمة ومصادرة ممتلكاته.

وكان للبندقية دار لصناعة السفن، وقد روعى فى بناء سفنها التجارية امكان تحويلها إلى سفن حربية وقت الحرب، وكانت أساطيلها التجارية تجتمع فى شكل قوافل وتغادر البندقية مرتين فى العام فى مواعيد محددة ثابتة تحت اشراف أحد كبار موظفى الحكومة.

وكان هناك خمس قوافل رئيسية، قافلة القسطنطينية وقافلة الاسكندرية وقافلة الشام، وقافلة طانا Tana على سواحل البحر الاسود، وقافلة الفلاندرز فى شمال أوربا.

وفيما يتعلق بقافلة الاسكندرية فانها كانت تتخذ طريقها من البندقية إلى الاسكندرية مرتين فى السنة، واحدة فى الخريف والثانية فى شهر يناير، وتتكون كل قافلة من ثمانى إلى ثلاث عشرة سفينة. وكانت جالية البنادقة بالاسكندرية من أكبر الجاليات عدداً وأكثرها ثراء. وكان لهم حى خاص ينزلون به واشتمل هذا الحى على عدد من الخانات وهى عبارة عن مبانى فخمة مربعة على شكل حصون، ولها فناء داخلى حوله الحوانيت فى الدور الأرضى وأعلاها مساكن التجار.

أما عن التنظيم السياسى للبندقية، فقد كانت تأخذ بالنظام الجمهورى، وكان الاسم الرسمى لها هو "جمهورية سانت مارك" نسبة إلى القديس مرقص، والمعروف أن رفات هذا القديس كانت موجودة بكنيسة الاسكندرية، لكن اثنين من التجار البنادقة قاموا بسرقتها فى سنة ٨٢٨م. ونقلوها إلى البندقية، وشيد دوقها آنذاك ويدعى جستنيان بارتشياكو Justinian Particiaco كنيسة فخمة أودع فيها رفات هذا القديس، وعرفت باسم كنيسة سانت مارك، وأصبحت مركزاً للحياة الدينية فى البندقية.

وكان على رأس الجهاز الحكومى للبندقية الدوق Doge الذى يلى منصبه مدى الحياة، وهو رمزا للسلطة أكثر منه مصدراً لها. وكان إلى جانبه هيئات سياسية أخرى، مثل مجلس العشرة، والمجلس الكبير، ومجلس الشيوخ والمجمع، ومجلس الدولة، وكان لهذه المجالس سلطات كبيرة واختص كل منها باختصاصات معينة، حتى يتسنى تنفيذ الأمور فى سرعة وحسم بعيداً عن التعقيدات الروتينية والروح البيروقراطية.

وقد تمتع شعب البندقية بحياة ثرية مترفة، ودأب على الاحتفال بمختلف الاعياد الدينية والقومية، وأقامت الحكومة للشعب مسرحا عظيما شغف به

الأهالى شغفا كبيرا، وشهدت البندقية الحفلات الفاخرة والولائم والمواكب والاستقبالات الرائعة التى كانت تبهر بها أوروبا بأسرها.

وكانت البندقية على درجة كبيرة من الحضارة وتميزت مبانيها بالفخامة وقد تأثرت فى ذلك إلى حد كبير بالحضارة البيزنطية، حتى أن البندقية كانت أقرب البلدان الأوربية للطابع البيزنطى، وقد تجلى ذلك بوضوح فى كنيستها الشهيرة سانت مارك St. Mark التى كانت من نفس طراز كنيسة آيا صوفيا فى القسطنطينية، وكذلك فى غيرها من المنشآت والمبانى. وقد تمتعت البندقية بمركز خاص فى القسطنطينية نتيجة للامتيازات التجارية التى حصلت عليها هناك، ولهذا فكثيرا ما كانت تدين بالولاء للقسطنطينية أكثر مما تدين لروما.

على أنها بدأت تعانى من المشاكل مع القسطنطينية فى السنوات الأخيرة، وذلك بسبب تغلب نفوذ منافستاها جنوا وبيزا فى العاصمة البيزنطية، وعلى الأخص فى عصر الامبراطور مانويل كومنينوس، الذى شهد صراعا عنيفا بين الطرفين[1].

على أن الامبراطور اسحاق انجيلوس عقد تحالف جديد مع البندقية فى ١١٨٧ ومرة أخرى فى ١١٨٩ أعاد لها امتيازاتها السابقة مع دفع تعويض مناسب مقابل ان تضع البندقية أسطولها تحت تصرف البيزنطيين فى حالة نشوب الحرب بينهم وبين أعدائهم.

---

(١) انظر تفاصيل هذا الصراع فى المصدر التالى: -

Kinnamos (Y) : Deeds of John and Manual Comnenus, Translated to english by Charles M. Brand, Colombia University Press, New York, 1976, Book VI, pp. 209-213

لكن البنادقة بدأوا يشعرون بأن البيازنة لقوا الحظوة على حسابهم وذلك في عهد الامبراطور اليكسيوس الثالث، وقد أرسل دوق البندقية خلال صيف ١٢٠٠سفارة إلى الامبراطور البيزنطى يطلب دفع الأموال المتأخرة وتجديد الامتيازات التجارية، وبعد ستة أشهر أرسل سفارة ثانية لنفس الغرض وطالت المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى اتفاق.

وقد بلغت كراهية البنادقة للقسطنطينية ذروتها عندما علموا أن الامبراطور اليكسيوس استقبل فى مايو ١٢٠١ سفارة من جنوا وأنه يتفاوض مع زعيمها الذى يدعى Ottobone della Croce من أجل الامتيازات التجارية التى كانت البندقية تعتبرها مقتصرة عليها[١].

فى ذلك الوقت كان دوق البندقية هو انريكو داندولو Enerico Dandolo الذى كان من أشهر الرجال فى عصره وكان رجلاً مسناً تخطى الستين من عمره لكنه كان ملئ بالنشاط والحيوية، طموح إلى المجد، كرس نفسه من أجل العمل لمصلحة جمهوريته، ويقال أنه رغم فقدانه لبصره إلا أنه كان بامكانه أن يقود جيشاً كبيراً بنفس الكفاءة التى يقود بها أسطولاً ضخماً[٢].

وهكذا فقد أرسل الصليبيون رسلهم إلى البندقية للاتفاق على الاستعانة بأسطولها لنقلهم إلى مصر، وكان هؤلاء الرسل ستة أشخاص أحدهم هو

---

(1) Diehl : Une Republique Patriciene, venise, different places; Choniates : Historia, p. 712.
Cessi ® : Venice to the Eve of The Fourth Crusade, in C.M.H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. VI, Palr 1, pp. 251-273.
Pears : The Fall of Constantinople, Being of the Fourth Crusade, pp. 231-233.

(2) Gibbon (E) The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1976, Vol 6. pp. 149-150.

فيلهاردوين أما الخمسة الآخرون فكانوا:

Miles The Barbatn, Conon of Bethune,
Alard Maquereau, John of Friaise and
Walter of Gawdonivlle.

ووصل هؤلاء الرسل إلى البندقية فى الأسبوع الأول من فبراير ١٢٠١، وبعد أن قضى الرسل بالبندقية أربعة أيام حان موعد لقائهم بالدوق، الذى استقبلهم بقصره هو ومستشاريه وعرض عليهم الرسل طلبهم قائلين: "لقد جئنا من طرف بارونات فرنسا الذين اتخذوا الصليب والذين يرغبون فى خدمة المسيح واستعادة أورشليم - إذا أراد الله - ولأنهم يعلمون أنه لا يوجد من يمتلك قوة أكبر من قوتك وقوة رجالك لكى يساعدونهم فى هذه المهمة، لذلك نستحلفك بالله أن تأخذك الشفقة على الأرض المقدسة، وعار المسيح، وتجب حاجة لورداتنا إلى سفن النقل والقتال"(١).

وبعد مرور ثمانية أيام تشاور خلالها الدوق مع رجاله، عرض على الرسل شروطه وكانت تشتمل على أن تقدم البندقية سفناً لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فرس، وتسعة آلاف مقاتل، وسفناً أخرى لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرون ألف من المشاة، وتعهدت البندقية كذلك بتقديم المؤن لرجال الحملة وخيولهم لمدة تسعة أشهر، كل ذلك مقابل أن يدفع لها الصليبيون ماركان عن كل رجل، وأربعة ماركات عن كل فرس وبذلك يصبح مجموع ما يؤديه الصليبيون للبندقية ٨٥ ألف مارك.

واستطرد الدوق قائلاً لرسل الصليبيين: "وحبا فى الله سنضيف إلى الأسطول خمسين غاليا Galleys حربية، بشرط أن نكون شركاء فى كل

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 4 - 5.

المكاسب التى تحققها الحملة من فتوحات أو أموال فى البر أو فى البحر بحيث تأخذون النصف ونأخذ نحن النصف الآخر".

وبعد أن تشاور الرسل، أجابوا بأنهم قبلوا شروطه، وتم عقد الاتفاق بين الطرفين، وقد دفع الرسل مبلغ خمسة آلاف مارك فضة إلى الدوق للبدء فى تنفيذ الاتفاق، وأرسلوا رسلاً إلى البابا اينوسنت الثالث فى روما ليخبروه بهذا الاتفاق ثم عادوا لبلادهم[1].

فى ذلك الوقت توفى تيبوت كونت شامبنى وقائد الحملة، وكان على الصليبيين أن يختاروا قائداً آخر يحل محله وقد وقع اختيارهم على الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات الذى كان قريباً لفيليب السوابى ملك المانيا، فقد كان وليم أوف مونتفرات والد بونيفيس متزوجاً من صوفيا Sophia ابنة فردريك بربروسا وهى أخت (غير شقيقة) لفيليب السوابى وقد ساهمت عائلة مونتفرات بنصيب كبير فى الحروب الصليبية وكان لوليم أربعة أبناء، تركوا بصماتهم على تاريخ الحروب الصليبية، فأكبرهم وهو وليم واسم الشهرة له هو Longsword تزوج فى ١١٧٥ ابنة بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، وتسلم بانئة مدينتى يافا وعسقلان ولكنه توفى بعد شهرين من الزواج. أما الابن الثانى كونراد الذى أصبح ماركيز أوف مونتفرات عند موت وليم، فقد ذهب إلى الشرق وساعد الامبراطور البيزنطى اسحاق انجيلوس على مقاومة حصار القائد البيزنطى الثائر براناس للقسطنطينية عام ١١٨٦ وهزم باراناس وأرسل رأسه للامبراطور، وتزوج من ثيودورا شقيقة الامبراطور اسحاق، ثم ذهب إلى فلسطين فى ١١٨٧ حيث لعب دورا هاما خلال الأربع سنوات التالية، وقاوم حصار صلاح الدين والمسلمين لمدينة عكا، وبعد زواجه من ايزابيلا Isabella وريثه مملكة بيت المقدس وبعد مصادمات مع ريتشارد ملك

---

[1] Villehardouin : op. cit., pp. 6 - 8.

انجلترا، اتخذ لقب ملك بيت المقدس، ولكنه قتل فى ١١٩٢ قتله أحد أفراد فرقة الاسماعيلية.

أما رينيه وهو الابن الثالث، فقد تزوج من ماريا ابنة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس، وتسلم كبائنه مدينة سالونيك وقد مات دون أن ينجب.

وهكذا لم يتبقى من هؤلاء الابناء سوى الابن الاصغر وهو بونيفيس الذى صار ماركيز اوف مونتفرات.

وقد ساهم بونيفيس كذلك فى الحروب الصليبية ووقع أسيرا فى يد صلاح الدين، وأطلق سراحه أثناء تبادل الأسرى، وعرف عن بونيفيس دماثة الأخلاق والشجاعة فى القتال، وكان بلاطه فى مونتفرات مزدحما بالفنانين وشعراء التروبادور.

وهكذا فقد أرسل اليه الصليبيون يطلبون منه الحضور إلى سواسون Soisson للتشاور معه، فلبى طلبهم واستقبل فى سواسون باحترام بالغ، وتوسل إليه البارونات أن يشترك فى الحملة الصليبية وأن يقبل تولى قيادة الجيش الصليبى. وقد استجاب بونيفيس لرجائهم، وفى سبتمبر ١٢٠١ أتخذ شارة الصليب فى كنيسة نوتردام فى سواسون، وتسلم قيادة الجيش، ثم عاد إلى بلده لتدبير بعض الأمور الخاصة به، وتم الاتفاق على أن يلحق بهم بعد ذلك فى البندقية(١).

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 10 - 11.
Nicol : op. cit., pp. 277.
Pears : op. cit., pp. 27 - 273.

وفى ٢٢ يوليو ١٢٠٢ وصل إلى البندقية الكاردينال بطرس كابوانو Peter Capuano نائباً عن البابا فى الحملة.

اجتمع الصليبيون فى جزيرة سانت نيقولا St Niolas (الليدو) التابعة للبندقية، وهناك طالبهم الدوق داندولو بدفع المبلغ الذى اتفق عليه، لقاء نقلهم بالأسطول إلى الشرق فأخذ الصليبيون يحاولون جمع المبلغ، وفى النهاية لم يتمكنوا من جمع أكثر من ٣٤ ألف مارك.

هنا غضب الدوق أشد الغضب، واتهمهم بالخداع وهددهم بأنه فى حالة عدم دفعهم المبلغ كاملاً فأنه سيتركهم فى هذه الجزيرة دون طعام أو شراب حتى يهلكوا[1].

عندئذ اجتمع البارونات وبذلوا جهداً كبيراً حتى استطاعوا جمع مبلغا آخر دفعوه للدوق وتبقى لدى الصليبيين مبلغ ٣٦ ألف مارك يجب أن تدفع للبنادقة.

وقد استغل الدوق هذا الموقف ليوجه الحملة الصليبية الوجهة التى تتفق ومصالح جمهوريته. فعرض على الصليبيين أن يؤجل لهم دفع-الدين، مقابل أن يساعدوه فى الاستيلاء على مدينة زارا على البحر الادرياتيكى فى اقليم سكلافونيا والتى كانت تابعة للبنادقة ثم إنتزعها منهم ملك هنغاريا.

وقد علل لهم الدوق هذا العمل بقوله - كما يذكر روبرت كلارى — انهم فى فصل الشتاء، ولن يستطيعوا أن يذهبوا إلى الاراضى المقدسة، التى كان المفروض أن يتخذوا طريقهم إليها قبل حلول هذا الفصل، وأن الصليبيين هم

---

[1] Clari ® : Laconquete de constantinople, Editeepar lauer, paris, 1924. p.10

المسئولون عن هذا التعطيل، وأنه من الأفضل لهم أن يتعاونوا مع البنادقة فى الاستيلاء على زارا التى ستمدهم بالكثير من المؤن ليتزودوا بها خلال رحلتهم بعد ذلك للأراضى المقدسة.

وقد وافق البارونات وكبار رجال الحملة على اقتراح الدوق[1]

والجدير بالذكر أن الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات قائد الحملة لم يكن موجوداً مع الصليبيين آنذاك ولم يشترك معهم فى الهجوم على زارا[٢]، وذلك لوجوده فى المانيا للتباحث مع فيليب السوابى والامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس[٣].

وقبل الذهاب إلى زارا أعلن الدوق عن رغبته فى أتخاذ شارة الصليب والانضمام إلى الحملة الصليبية الذاهبة لتحرير قبر المسيح، وخطب فيهم خطبة مؤثرة أوضح فيها أنه رغم عجزه وكبر سنه إلا أنه قرر أن يصحبهم إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين واما أن يعيش معهم أو يموت بينهم، وفى كنيسة سانت مارك فى البندقية احتفل باتخاذه شارة الصليب التى وضعت على قبعته البيضاء الكبيرة وحذا حذوه جمع غفير من البنادقة[٤].

ومن المستغرب أن يكون أول عمل يقوم به الدوق بعد اتخاذه الصليب هو قتال مدينة زارا واهاليها المسيحيين. وفى اكتوبر ١٢٠٢ اتخذت سفن البندقية المحملة بالصليبيين طريقها إلى زارا، التى وصلوا أمامها فى ١٠ نوفمبر ١٢٠٢ وفى اليوم التالى مباشرة أى فى ١١ نوفمبر ١٢٠٢ بدأ حصارهم لها. وقد كانت المدينة على جانب كبير من القوة والمناعة حتى لقد

---

(1) Clari : op. cit., pp. 11 - 12.
(2) Villeharedouin : op. cit., p.19.
(3) Nicol : op. cit., p. 197
(4) Villehardouin : op. cit., pp. 16 - 17.

دهش الصليبيين من شدة حصانتها وقالوا بأنهم "لن يستطيعوا اقتحامها بالقوة إلا بمساعدة من الله ذاته".

أثناء حصار الصليبيين لزارا قام أحد الاخوة السيستر شيان[1] Cestercians بتحذيرهم من قتال المدينة حيث أنها مسيحية وهم مسيحيون ومتخذون شارة الصليب أيضا مما يعرضهم لغضب بابا روما. لكن دوق البندقية غضب غضبا شديدا لدى سماعه لهذا التحذير، ولجأ إلى التهديد ليجبر الصليبيين على مساعدته بعد أن شعر بترددهم، فأوضح لهم بأنهم إذا تخلوا عنه فانه سيقوم بالاستيلاء على المدينة عن طريق الاتفاق مع أهلها وان الصليبيين سيكونون بطبيعة الحال خارج هذا الاتفاق وبالتالى فأنهم لن يحصلوا على أية مكاسب مادية. عندئذ وافق البارونات على مساعدته والاستمرار فى المهمة حتى نهايتها. وفى اليوم التالى أخذوا فى مهاجمة أسوار وأبراج المدينة، حتى أعلن أهلها الاستسلام للدوق مقابل الابقاء على حياتهم. عندئذ ذهب الدوق إلى البارونات وقال لهم: "سادتى .. لقد تم استيلاؤنا على هذه المدينة بفضل الله، وبفضل مساعدتكم، ولن نستطيع الذهاب للشرق الآن، لأننا فى فصل الشتاء، ولأننا لن نجد أية أسواق فى أى مكان آخر تمدنا بما نحتاجه، وهذه المدينة على جانب كبير من الثراء،

---

[1] الاخوة السيستر شيان هم جماعة من الرهبان التابعين لدير سيتو - فى برجنديا - الذى تم تأسيسه فى سنة ١٠٩٨ بواسطة بعض الرهبان البندكتين الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة آنذاك. وكان هذا النظام الجديد محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلى الذى تمثل فى الديرية البندكتية، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية الكلونية، وقد أخذ هذا النظام ينمو فى سرعة فائقة وانتشر فى جميع أنحاء غرب أوروبا بفضل مميزاته الواضحة من ناحية، وجهود القديس برنارد (١٠٩١ - ١١٥٣) من ناحية أخرى، للمزيد عن هذا النظام راجع:
Workman:The Evolution of the Monastic iedeal, London, 1928, pp.239 - 244.

ومزودة بكل المؤن، دعونا نقتسمها بالنصف، وسنأخذ النصف، وأنتم النصف الآخر"[١].

وهكذا تم تقسيم مدينة زارا بين الطرفين، فأخذ البنادقة النصف الذى به الميناء، وأخذ الصليبيون نصف المدينة الآخر، ونصبوا معسكرهم هناك، على أن العداء لم يلبث أن تفجر بين البنادقة والصليبيين وهرع كل منهم إلى حمل السلاح واقتتلوا فى شوارع المدينة بمختلف أنواع الأسلحة التى معهم واستمر القتال أسبوعا، وألحق الصليبيون نظرا لتفوقهم فى العدد خسائر كبيرة بالبنادقة. وقد بذل دوق البندقية والبارونات الكثير من الجهد حتى نجحوا فى اقرار السلام بين الطرفين. وبعد أن قضى الصليبيون بزارا ما يقرب من الأسبوعين، وصل الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات[٢].

فى ذلك الوقت كانت الاخبار قد وصلت إلى البابا اينوسنت الثالث فى روما بانحراف هذه الحملة عن هدفها الاساسى واتجاهها ضد مدينة زارا، وقتال أهاليها المسيحيين. فاستشاط البابا غضبا، وذلك لسببين، أولهما قتال مدينة مسيحية والحاق الاذى بأهاليها المسيحيين، والثانى لأن معنى ذلك أن السيطرة على الحملة لم تعد للبابا وانما آلت لأشخاص آخرين. لذلك أوقع البابا قرار الحرمان على الحملة الصليبية كلها[٣]. وهنا اسقط فى يد الصليبيين، وأدركوا إلى أى مدى تورطوا فى هذا العمل.

وقد اجتمع البارونات للتشاور، وتم الاتفاق على ضرورة ارسال وفد يمثلهم إلى البابا فى روما ليلتمسوا منه العفو عنهم ورفع قرار الحرمان.

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 20 - 21.
(2) Villehardouin : op. cit., pp. 21 - 22.
(3) Nicol : The Fourth Crusade, p. 180.
Runciman;The History of the Crusades, Vol. 3. p. 115.
Gibbon:The Decline and Fall of the Roman Epire Vol. 6, p. 153.

واختاروا اثنين من الاكليركيين هما نيفلون Nevelon أسقف سواسون، ويوحنا أوف نويون John of Noyon الذى يتبع بلدوين كونت فلاندرز وهينولت، وصحبهما فارسان هما: Robert of Bones and John of Friaize على أن روبرت تركهم واتخذ طريقه إلى سوريا، وهكذا أصبح الوفد مكونا من ثلاثة أشخاص فقط، وحين قابلوا البابا قالوا له:

"ان البارونات يطلبون عفوك من أجل استيلائهم على زارا فقد كان هذا التصرف طائش وآثم، ولذلك فأنهم يقدمون أنفسهم لك بصفتك والدهم الطيب، وهم على أتم استعداد لتنفيذ جميع أوامرك".

فرد عليهم البابا موضحا بأنه يدرك تماما أن هذا الخطأ الذى ارتكبه الصليبيون هو خطأ الآخرين - يقصد البنادقة - وأنه يأسف أشد الأسف لما فعلوه. على أنه فى النهاية غفر لهم فعلتهم هذه، ورفع عنهم قرار الحرمان وقصره على البنادقة فقط، ثم زودهم بنصحه وتعليماته التى نصت على تماسكهم وتعاونهم من أجل خدمة الرب. وقد منح البابا كل السلطات لرجلى الدين نيفلون ويوحنا من أجل العمل على اتحاد جيش الصليبيين ، حتى يلحق بهم كاردينالا من طرفه[1].

وهكذا تم للبنادقة التغرير بالحملة الصليبية الرابعة واستغلالها لتحقيق مصالحهم الخاصة، بدلا من توجيهها للشرق ومحاربة المسلمين، وكان هذا أول انحراف يحدث لهذه الحملة الصليبية.

---

[1] Villehardouin : op. cit., p. 26.
Runciman : A History of the Crusades, Vol. 3, p. 115.
Nicol : The Fourth Crusade, p. 280.

أما الانحراف الثانى فى خط سير هذه الحملة الغريبة فكانت ضحيته العاصمة البيزنطية القسطنطينية وذلك على النحو الذى سيتضح خلال عرضنا التالى للأحداث.

استعرضنا فى الصفحات السابقة التفاصيل الخاصة بالحملة الصليبية الرابعة من حيث الدعوة لها والدور الذى لعبته البندقية فى العمل على الانحراف بالحملة عن هدفها الاساسى ومهاجمة مدينة زارا والاستيلاء عليها، واقتسامها مع الصليبيين وصدى ذلك عند البابا اينوسنت الثالث.

وفى أثناء ذلك كان الامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس، قد أكمل رحلته ووصل إلى المانيا حيث قوبل بالترحاب من جانب شقيقته ايرين وزوجها فيليب السوابى، ولا شك أن اليكسيوس قد أخبر فيليب بالاتصالات التى تمت بينه وبين زعماء الحملة الصليبية أثناء مروره بشمال إيطاليا. وبما أن فيليب كان لا يستطيع أن يقدم المساعدة العسكرية لاليكسيوس نظرا لاشتعال الحرب الاهلية فى المانيا وقتذاك. وبما أن قائد الحملة الصليبية وهو الماركيز يونيفيس أوف مونتفرات كان ابن أخت فيليب السوابى، وبالتالى يسهل التأثير عليه من جانب خاله فيليب، بالاضافة لما ذكره المؤرخ الفرنسى الكونت ريان عن الدوافع الخاصة لدى فيليب السوابى وأهمها ان يعيد العرش البيزنطى لحماة إسحاق أجيلوس، وأن يثبت للبابا دوره القيادى فى توجية الحملة الصليبية مما يخدم نضالة ضد البابوية[1] لهذا كله فالمرجح أن فيليب قد وافق على الاستعانة بالحملة الصليبية من أجل استرداد العرش البيزنطى لوالد زوجته اسحاق انجيلوس.

وقد تباحث كل من فيليب واليكسيوس، واشترك معهما فى المباحثات الماركيز بونيفيس أوف مونتفرات وذلك أثناء زيارته لألمانيا فى أوائل

---

(1) Riant : Innocent III ,Philipp de souabe et Boniface de Montferra , Reuve des questions historque , XVII , 1875 , pp. 331-366 , XVIII 1876 , pp.69-72.

عام ١٢٠٢، حول الامتيازات التى سيقدمها اليكسيوس للجانب الصليبى مقابل المساعدة العسكرية التى سيحصل عليها من الحملة الصليبية[1].

وفى ديسمبر ١٢٠٢ وبعد ما يقرب من الشهر بعد فتح الصليبيين لمدينة زار وصل إليها رسل الملك فيليب، وسلموا لزعماء الحملة رسالة الملك فيليب اليهم وبها الشروط المعروضة عليهم، وجاء المؤرخ فيلهاردوين بنص الرسالة وكانت كالتالى[2]:

"سادتى، سأرسل لكم شقيق زوجتى، وأضعه بين يدى الله - الذى ربما حفظه من الموت - وبين أيديكم.

ولأنكم اتخذتم موقفا نزيها تجاه الله وتجاه الحق وتجاه العدالة، لذلك أرجو أن تتعاونوا - قدر استطاعتكم - من أجل استرداد ميراثه الذى سلب منه ظلما. وشقيق زوجتى سيقدم لكم أفضل الشروط، وسيمنحكم المساعدة الأكثر فعالية من أجل استرداد الأراضى المقدسة.

أولا - إذا الله هيأ لكم استرداد ميراثه، فأنه سيخضع امبراطورية رومانيا (الامبراطورية البيزنطية) لسلطان البابوية التى انفصلت عنها طويلا.

وهو يعلم أنكم انفقتم ثرواتكم، وأنكم فقراء، لذلك فانه سيمنحكم ٢٠٠,٠٠٠مارك من الفضة، وسيقدم المؤن لكل من فى الجيش، صغيرا أكان أم كبيرا.

---

(1) Pears : The Fall of Constantiople, Being The Story of the Fourth Crusade, pp. 273 - 275.
Nicol : The Fourth Crusade, p. 278.

(2) Villehardouin : op. p. 22.

وهو بشخصه سوف يذهب معكم لأرض بابليون (مصر) او اذا رأيتم أفضل من ذلك، فانه سيرسل إلى هناك ١٠,٠٠٠ مقاتل على نفقته الخاصة. وطوال حياته، فانه سيضع على نفقته الخاصة ايضا خمسمائة فارس فى الأراضى المقدسة لحراستها".

وقد أوضح الرسل انهم مزودون بكافة السلطات التى تتيح لهم ابرام الاتفاق مع الصليبيين، ثم أخذوا يوضحون أهمية هذه الامتيازات التى يقدمها لهم الامير البيزنطى وانهم اذا رفضوها برهنوا على أنهم ليسوا جديرين بالمجد والفتح.

وقد طلب البارونات والدوق داندولو منحهم مهلة حتى اليوم التالى للتفكير والتشاور فى هذا الامر.

واثناء المشاورات التى جرت بين الصليبيين والبنادقة أوضح جماعة السيسترشيان رأيهم من أنهم لا يوافقون على هذا العرض، وأنهم لم يتركوا أوطانهم من أجل محاربة المسيحيين، وأكدوا على ضرورة التوجه مباشرة لقتال المسلمين فى سوريا. فرد عليهم أحد الصليبيين موضحا بأنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا فى سوريا وأنه عن طريق مصر أو الدولة البيزنطية فقط سيتمكنون من استعادة الاراضى المقدسة، وانهم إذا لم يوافقوا على هذه الشروط، فأنهم سوف يندمون كثيراً فيما بعد(١).

وقد وافق قائد الحملة المركيز بونيفيس اوف مونتفرات على هذا العرض والمرجح أن الامر كان متفقا عليه من قبل بينه وبين الملك فيليب.

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.

والأمير إليكسيوس انجيلوس، وذلك أثناء الاتصالات التى تمت بين هذه الاطراف فى أوائل عام ١٢٠٢، كما سبقت الاشارة.

كذلك وافق على العرض باقى البارونات، وابلغوا موافقتهم لدوق البندقية، فوافق هو الآخر، وتم ابرام الاتفاق بين الطرفين، وقد مثل الصليبيون اثنى عشرة شخصا كان من بينهم الماركيزبونيفيس اوف مونتفرات والكونت بلدوين أوف فلاندرز وهينولت والكونت لويس اوف بلواو شارتر(١).

وهكذا تم انحراف هذه الحملة الصليبية وللمرة الثانية ضد مدينة مسيحية، ولكن ما هو موقف البابا اينوسنت الثالث من هذا الانحراف الثانى للحملة؟

حين وصلت هذه الاخبار إلى روما، علم البابا بأن فيليب السوابى واليكسيوس نجحا فى التأثير على الصليبين وتحويل اتجاه الحملة وبذلك خرج أمرها من يده، وقد أوضح البابا لرسل الحملة الذين كانوا فى روما أن الصليبيين لا يملكون الحق فى التدخل فى الاحداث الداخلية الخاصة بالبيزنطيين.

"Vos nullam in greacos jurisdictionem babientes"(2)

وحذرهم أكثر من مرة من مهاجمة الدولة البيزنطية Romania بحجة أن الضرورة تقتضى ذلك، وقد أرسل البابا اينوسنت خطابات إلى الصليبيين عاد بها رسلهم، أوضح فى أحد هذه الخطابات أن الصليبيين أمروا بأن يقسموا على الطاعة، وقد اشتمل هذا القسم على وعد بعدم مهاجمة البيزنطيين

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 24.
(2) Innocent III Epistolae. VIII.

وحذرهم البابا بأنهم اذا لم يقسموا على ذلك ويمتثلوا لأوامره فان العفو الممنوح لهم نتيجة هجومهم على زارا سوف يصبح De Facto أى باطلا[١] .

وقد أعفى الكاردينال بطرس كابوانو من منصبه كنائب عن البابا فى الحملة وحل محله اثنين آخرين هما:

John de Friaise and Mohon Faicete.

وقد أمر أحدهما بأن يذيع قرار الحرمان الخاص بالبنادقة.

أما فيما يتعلق بالقسم، فان بونيفيس اوف مونتفرات استغل نفوذه كقائد للحملة، وتلاعب فى هذا الموضوع بأن اخفى عن الصليبيين أوامر البابا الخاصة بالقسم، وأخبر قلة قليلة من الزعماء فقط، وأرسل قسمهم بالوعد بعدم مهاجمة البيزنطيين إلى روما[٢] .

وفى بداية ابريل ١٢٠٣، أرسل البابا رسلا من طرفه ومعهم خطاب منه إلى الصليبيين فى زارا، وقد احتوى خطاب البابا على أمرين، الأول: تأكيد بالعفو الممنوح لهم، والثانى: أمر رسمى من البابا بألا يهاجم الصليبيين البيزنطيين إلا فى حالة واحدة فقط هى رفضهم امداد الحملة بالمؤن والزاد[٣] .

وقد أذيع الجزء الأول من الخطاب على الصليبيين، أما الجزء الثانى فقد تدخل بونيفيس اوف مونتفرات ومنع اذاعته على الجيش الصليبى[٤] .

---

(1) Pears : op. cit., p. 288.
(2) Pears : op. cit., p. 288.
(3) Innocent III : Epistolae, VI, P. 102.
(4) Pears : op. cit., pp. 289 - 290 .

وهكذا أصبح غالبية الصليبيين لا يعلمون شيئا عن موقف البابا اينوسنت الثالث وتحذيره من هجومهم المنتظر على العاصمة البيزنطية. وفى ٧ ابريل ١٢٠٣ رحل الجيش الصليبى عن زارا بعد أن قاموا بتخريب أسوارها وابراجها، بينما تخلف فى زارا الماركيز بونيفيس والدوق داندولو فى انتظار وصول الامير البيزنطى اليكسيوس انجيلوس الذى سيصاحبهم فى حملتهم ضد القسطنطينية.

وفى ٢٥ ابريل ١٢٠٣ وصل اليكسيوس إلى زارا فأستقبله الماركيز والدوق بترحيب كبير وفى ٤ مايو لحقوا بالجيش عند كورفو.

ويصف فيلهاردوين فرحة الصليبيين جميعا حينما علموا بوجود الامير البيزنطى بينهم فى المعسكر وقدموا إليه يحيونه ويرحبون به ونصبوا خيمته فى وسط المعسكر بجوار خيمة قائد الحملة الماركيز بونيفيس الذى أوكل إليه الملك فيليب السوابى مهمة حماية اليكسيوس والاهتمام بأمره[١].

عسكر الجيش الصليبى فى كورفو لمدة ثلاثة أسابيع، ثم غادروها فى ٤ مايو ١٢٠٣، واتجهوا إلى جزيرة اندروس فأستقبلهم أهاليها بالترحيب وأعلنوا خضوعهم للأمير اليكسيوس فتركها الصليبيون واتخذوا طريقهم إلى ابيدوس فسلمها إليهم الاهالى ووضعوا بها حامية، وفى ٢٣ يونيو ١٢٠٣ وصلوا إلى سانت ستفان St. Stephin على بعد ثلاثة فراسخ من القسطنطينية.

اجتمع اللوردات البارونات من أجل التشاور فيما ينبغى عمله، فأقترح عليهم دوق البندقية أن يذهبوا إلى جزيرة خليقدونية Chalcedon المواجهة للقسطنطينية على الضفة الاسيوية للبسفور، ليتزودوا بالمؤن ثم بعد ذلك

---

(1) Villehardouin : op. cit., p.27.

يذهبوا لحصار العاصمة، وبناء على نصيحته توجهوا إلى خلقيدونية وبعد أن حصلوا على كل ما يحتاجونه من مؤن أبحروا فى اليوم الثالث إلى سكوتارى Scutari على مضيق البوسفور، وبدأوا فى فرض الحصار البحرى على مدينة القسطنطينية[1].

والواقع أن معظم الصليبيين المصاحبين للحملة كانوا يرون هذه المدينة لأول مرة، ومن ثمة فقد أصيبوا بالدهشة الممزوجة بالاعجاب لهذه المدينة ذات الاسوار العالية والابراج التى تحيط بها من كل جانب، وقصورها البالغة الثراء وكنائسها الشامخة واتساع المدينة الذى فاق ـ كما يقول فيلهاردوين ـ اتساع أية مدينة أخرى[2]. فان قاعدة المثلث الذى تقوم عليه المدينة كانت تقارب الخمسة أميال، وكانت القسطنطينية تستطيع أن تفاخر كروما بتلالها السبع، وكانت تلك التلال تنهض كالجدار على البوسفور والقرن الذهبى.

وعند بداية القرن الثالث عشر الميلادى، كانت القسطنطينية هى المدينة الرئيسية فى العالم الغربى، وقد منحها هذا المركز كثير من المميزات، منها موقعها الجغرافى، فهى تقع عند نقطة التقاء قارتى أوروبا وآسيا، وتحيط المياه بالمدينة من جانبيها، وكان مضيق البوسفور والدردنيل يمثلان ممران طبيعيان للتجارة ، مما جعل القسطنطينية مركزاً تجارياً فريداً نتيجة لسيطرتها على طرق التجارة بين غرب أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأسود وشواطئ بحر مرمرة.

وكان القرن الذهبى وهو الميناء الطبيعى للعاصمة محميا من أية تيارات عنيفة، كما كان نصفه عميقا لدرجة تسمح لأية سفينة كبيرة من الوصول إلى الشاطئ بسلام ونصفه الآخر كان ضحلا وفسيحا لدرجة تكفل

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 29 - 33.
(2) Villehardouin : op. cit., p. 31.

دخول المراكب الصغيرة. ولما كانت المياه تتدفق فـى مضيـق البوسـفور نحـو الشمال ونحـو الجنـوب، فقد منـح ذلـك المدينـة الجـو الصحـى الممتـاز نتيجـة لاستمرار تجدد الهواء.

وقد امتازت القسطنطينية بمجموعة ضخمة مـن المبـانى الرائعـة، ومـن أهمها الكنائس الفخمة بقبابها المرتفعة، وقيل بأنه بلغ من كثرة الكنائس بها أنـه وجدت كنيسة علـى ناصيـة كـل شـارع، ومنهـا علـى سـبيل المثـال كنيسـة أيـا صوفيـا وكنيسـة الرسـل، وكنيسـة القديسـة ايريـن، وكنيســة القديســة مــارى، والقديـس سـرجيوس، والقديـس تومـاس وغيرهـا. وكـانت قبـاب هـذه الكنـائس مغطاة بالذهب، كما كان بعضها يضم أعمـدة مـن الذهـب والفضـة وثريـات لا تعد من نفس هذه المعادن الثمينة.

أما مجموعة الآثار المقدسة التى حوتها هذه الكنائس فكانت على درجـة كبيرة من الاهمية بالنسـبة للمسـيحيين فـى كـل مكـان، ويقـول فيلهـاردوين أن مجموعة الآثار الدينية الموجودة بالقسطنطينية تعادل فى كثرتها الآثار المقدسة الموجودة فى باقى أنحاء العالم المسيحى وكله مجتمع.

والواقـع أن الدافـع وراء غنـى القسـطنطينية بهذه الآثــار هـو محاولـة تخليصها من (العقدة) التى عانت منها بسبب افتقارها إلى مثل هذه الآثار، لأن أحداً من الرسل لم يشرفها بالذهاب إلى موضعها أو الاستشـهاد بـالقرب منهـا، أو تأسيس كنيسة بها، فأين هى من بيـت المقـدس، ذلـك المركـز الدينـى الهـام الذى لا يمكن أن تتطاول إليه أية مدينة مسيحية أخرى. وأين هى من انطاكية، مدينة البطاركة العظام والمجامع الدينية العديدة، وهى المدينة التى أطلق علـى الحواريين فيها لأول مرة أسم المسـيحيين، وأيـن هـى مـن رومـا التـى شـرفها القديس بطرس أمير الحواريين ببناء كنيسته بها وهـى الكنيسـة التـى أصبحـت

فيما بعد تضم رفاته؟ ان القسطنطينية ذاتها لم تؤسس إلا فى فترة متأخرة نسبياً فى القرن الرابع الميلادى.

ورغبة من الاباطرة البيزنطيين فى تخليص عاصمتهم من هذه العقدة فأنهم كانوا حريصين على جمع الآثار الدينية من مختلف البلاد، وحفظها بالقسطنطينية حتى يكسبها ذلك التشريف الدينى الذى تفتقر إليه. ويروى التاريخ مواقف عديدة توضح مدى اهتمام الاباطرة بهذا الأمر.

ففى عصر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) نازلت الجيوش البيزنطية مدينة الرها فى عام ٩٤٤، ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكى "ان البيزنطيين التمسوا من أهلها ايقونة المنديل الذى كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه، وبذل لهم الروم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل اطلقوا من الاسارى المسلمين الذين بيدهم عددا ذكروه لهم". ثم أوضح هذا المؤرخ أن أهل الرها وافقوا على طلب البيزنطيين بعد الرجوع إلى أولى الأمر فى بغداد، وكيف أن البيزنطيين حملوا هذا المنديل فى موكب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور والبطريرك والشعب استقبالا حافلا، وحمل هذا المنديل إلى كنيسة آيا صوفيا، ثم إلى كنيسة العذراء الملحقة بالقصر الامبراطورى الكبير Vierge Du-Phare ليحفظ بها[1].

ويروى نفس المؤرخ حادثة أخرى، وهى حرص الامبراطور نقفور فوقاس على أخذ القرميدة التى تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج فى عام ٩٦٦م، وحين أخرجها إليه أهلها لم يعرض لهم بمكروه[2].

---

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ، ص ٩٨ - ٩٩.

Walter (g) : La Ruine de Byzance, ed. Albin Michel Paris, 1958, p. 143.

(٢) يحيى الانطاكى : التاريخ، ص ١٢٧.

أما الامبراطور يوحنا تزيمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦) فقد أعلن بكل فخر واعتزاز حصوله على عدد من الآثار المقدسة الهامة أثناء غزوته لبلاد الشام عام ٩٧٥م، فقال فى خطابه الى آشوط الثالث ملك أرمنيا المسيحى:

".. أننا عثرنا فى جبله على النعلين المقدسين اللذين سار بهما المسيح حينما ظهر على الأرض، كما وجدنا ايقونة المخلص - المسيح - تلك التى كان قد طعنها اليهود فسال منها فى التو دم وماء. ولكننا لم نلحظ فى هذه الايقونة طعنة الحربة. ووجدنا كذلك فى المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول وهو شئ نفيس. وبعد أن جمعنا هذه المخلفات، حملناها معنا لنحتفظ بها فى مدينتنا - القسطنطينية - التى يكلأها الرب برعايته[1] ."

هذا وقد أوضح الراهب انطوان Antoine الذى أصبح فيما بعد رئيس اساقفة نوفجورود Novgorod والذى زار القسطنطينية فى أوائل القرن الثالث عشر وقبل فتح الصليبيين لها بثلاث سنوات، قيمة واماكن الآثار الدينية الموجودة بالعاصمة البيزنطية بمنتهى الدقة. وعلى سبيل المثال، فان آثار المسيح منذ مولده موجودة بصفة خاصة فى كنيسة أيا صوفيا ففيها يوجد لفائف (أقمطة) المسيح وهو طفل، وأوانى الذهب المملوءة بالهدايا التى احضرها الأهالى للطفل يسوع. وقميصه ووشاحه وحزامه وعصاه ونعليه، وقطعة من الخشب كان المسيح يعلقها فى عنقه، وحوض غسل بداخله اقدام تلاميذه (الحواريون). والمنضدة التى تعشى عليها فى خميس الاسرار، وخشب الصليب والمنشار والمسامير، وتاج الشوك والحربة والدم المقدس، وبلاطة من القبر المقدس[٢] .

---

(١) أنظر نص الرسالة فى المرجع التالى:

عمر كمال توفيق: يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية، الملحق رقم (١). ص ١٧٠ - ١٧١.

(2) Walter : La Ruine de Byzance, p. 144.

وهناك مجموعات أخرى من الآثار المقدسة ضمتها بعض الكنائس[1]، ولم يكن ينقضى قرن من الزمان حتى تضاف مجموعات جديدة، كما حرص البيزنطيون على نقل رفات القديسين إلى عاصمتهم، فاحضرت هيلين والدة الامبراطور قسطنطين الاكبر، رفات القديس دانيال، ووصلت للعاصمة رفات القديسين تيموثى واندراوس ولوقا فى عهد الامبراطور قنسطانز (٣٣٧ - ٣٥٠)، وأحضرت رفات القديس صموئيل فى عهد الامبراطور اركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨)، واشعيا فى أيام ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠)، والقديسة آن فى أثناء حكم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥)، ومريم المجدلية فى عهد ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢)[2].

وإلى جانب الكنائس كانت هناك القصور، الفخمة منها القصر الامبراطورى الكبير الذى يسمى البوكوليون Bucoleon نسبة إلى مرفأ القصر المسمى بذلك الأسم، وكان هذا القصر عبارة عن مجموعة كبيرة من المبانى وقاعات الاجتماعات والمحاضرات والحمامات وأجنحة السكن التى شادها اباطرة مختلفون، فقد بنى به الامبراطور ثيوفيل قاعة الاستقبال الشهيرة Triconchus واضاف إليه باسيل الأول اضافات عديدة، على حين انشأ به نقفور فوقاس جناحا عند شاطئ البحر.

أما القصر الجديد المسمى Blachernae الذى بناه الامبراطور مانويل كومنينوس فكانت حيطانه وأعمدته مغطاه بالذهب الخالص، وكان العرش فى هذا القصر من الذهب ومحلى بالاحجار الكريمة، أما التاج الامبراطورى المعلق عليه فكان من الذهب ومرصع بالجواهر التى لا تقدر بثمن.

---

(1) بخصوص المزيد من التفاصيل عن هذه الآثار وأماكن تواجدها أنظر المرجع التالى:
Walter : op. cit., pp. 144 - 145
(2) Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 215 - 216.

وكان الميدان الامبراطورى أو .. Augusteom يضم كنيسة آيا صوفيا والقصر الامبراطورى الكبير ومحاط بصفين من الأعمدة، وفى مواجهة الكنيسة يقوم فوق قاعدة من البرنز تمثال للامبراطور هرقل بحجم ضخم، ويده اليمنى ممدودة بحركة تهديد نحو الشرق، بينما يده اليسرى تقبض على كره رمزا للسيادة العالمية.

وبالقرب من الكنيسة والقصر الكبير كان يقع الهيبودروم أو ميدان السباق، وهو مبنى ضخم فسيح يتسع لجلوس ما يقرب من الأربعين ألف شخص وكان فى الامكان الوصول من القصر مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية بهذا الملعب، وكان الهيبدروم هو مركز الحياة الاجتماعية والسياسية فى العاصمة وكانت أعظم تسلية للأهالى هى مشاهدة الالعاب بهذا الملعب والصراع مع الحيوانات وسباق العربات، وكانت مشاهدة العاب السيرك مجانية تتكلفها الحكومة.

وكان فى الهيبودروم عمود قسطنطين وهو عمود من الحجارة اقامه الامبراطور قسطنطين، وكذلك مسلة فرعونية قائمة على قاعدة من الجرانيت تمثل فن النحت البيزنطى. وما زالت بعض آثار الهيبودروم باقية حتى اليوم(١).

وكان أجمل احياء الحوانيت يقع داخل المدينة، فعلى امتداد الرابية الرئيسية وابتداء من مدخل القصر الكبير وميدان السباق إلى امتداد ميلين كان يمتد نحو الغرب الشارع المسمى بالشارع الأوسط Mese وهو شارع واسع تحف به من جانبيه العقود (البواكى)، ويمر من خلال سوقين Forums احدهما

---

(١) رأيت هذه الآثار بمدينة اسطنبول أثناء زيارتى لها فى اغسطس ١٩٧٧، والتقط لها بعض الصور نشرتها فى كتابى : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢.

سوق قسطنطين الملاصق للقصر، والآخر سوق ثيودوسيوس الأكثر منه اتساعا. وفى النهاية يتفرع إلى شارعين رئيسيين احدهما يسير مخترقا سوق الثور واركاديوس إلى الاستودوم والبوابة الذهبية، بينما يمر الآخر امام كنيسة الرسل المقدسين إلى قصر بلاكرناى والبوابة الخريسيانية.

وكانت تقوم على جانبى بواكى شارع الوسط أهم حوانيت المدينة مرتبة فى مجاميع تبعا لما تبيع من سلع، فصاغه الذهب أولا يليهم صاغة الفضة ثم بائعو الثياب والأقمشة وصناع الأثاث وهكذا. وكانت أغنى هذه الحوانيت تقع بالقرب من القصر الكبير عند حمامات زيو كسيبوس .. Zuexipus حيث كان المركز التجارى لسوق الحرير الضخم المعروف باسم دار الانوار لأن نوافذه كانت تضاء ليلا.

ويقول المؤرخ الاسبانى بنيامين اوف توديلا الذى زار القسطنطينية فى ١١٦١ أنه وجدها تعج بالتجار الذين أتوا اليها من البر والبحر من مصر والعراق وفلسطين وروسيا وهنغاريا ولومبارديا واسبانيا ومن كل الاقطار فى العالم.

وقد تمتع معظم أهل القسطنطينية بالثراء، وكانوا يرتدون الملابس الموشاه بالذهب والاحجار الكريمة، ويمتطون خيولهم ويبدون فى مظهرهم هذا كالأمراء. وكان اثرياء العاصمة يمتلكون الفيلات على شواطئ البوسفور وبحر مرمرة. حيث يقضون بها فصل الصيف.

وكما كانت القسطنطينية مدينة الأعمال، فأنها كانت كذلك مدينة اللهو والمسرات، كانت أشبه ما تكون فى عصرنا الحاضر بباريس ولندن، حيث كان يذهب اليها الاثرياء من باقى البلاد لينعموا فيها بقسط من الراحة

والرفاهية ومختلف أنواع المتع الحسية والفنية. ووجدت بها جميع أنواع البضائع إلى جانب تمتعها بالجو اللطيف والمناظر الطبيعية الخلابة[١].

وهكذا فرض الصليبيون الحصار على هذه المدينة العظيمة من أجل استعادة عرشها لحليفهم ووالده الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس. وحين رأى الامبراطور اليكسيوس حصار الصليبيين للمدينة أرسل إليهم رسولا من طرفه، وهو أحد اللومبارديين ويدعى نيقولا روكس Nicholas Ronx الذى خاطب الصليبيين قائلا: "سادتى، ان الامبراطور اليكسيوس يود أن يوضح لكم انه يعلم جيدا أنكم أحسن العناصر، وجنتم من أحسن الاقطار على وجه الأرض، وهو يعجب كثيرا ويتساءل، لماذا، ولأى غرض اقتحمتم أرضه ومملكته؟ فهو مسيحى وانتم مسيحيون. وهو يعلم جيدا انكم فى طريقكم لتحرير الاراضى المقدسة والصليب المقدس وأورشليم. إذا كنتم فقراء ومحتاجون، فأنه يرغب حقا فى أن يمنحكم المال والزاد بشرط أن تغادروا أراضيه فورا. وهو لا يريد أن تقوموا بأى عمل تخريبى، لأنه صاحب القوة المطلقة هنا، ترون ذلك لو أن عددكم اضعاف ما أنتم عليه عشرون مرة. واذا أراد الحاق الأذى بكم، فلن تستطيعوا الفرار بدون الهزيمة الكاملة"[٢].

وقد اختار البارونات ودوق البندقية أحد الفرسان ويدعى Conon of Bethune لما توسموه فيه من عقل راجح وحكمة لكى يتولى الرد على هذا

---

[١] فيما يتعلق بالقسطنطينية ومميزاتها أنظر المراجع التالية:

Miller (D) : Imperial Constantiople, U S A, 1969, pp. 1 - 197,
Runciman : The Byzantine Civilisation, pp. 179 - 222.
Brehier (L) : La civilisation Byzantine, Edition Albin Michel, Paris, 1970. pp. 73 - 99.
Toynbee (A) ; Constontine Porphyrogenetus and his world, London, 1773, pp. 201 - 223.
Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928, pp. 104 - 120.

[2] Villehardouin : op. cit., p. 35.

الرسول، فقال موضحا وجهه نظر الصليبيين: "سيدى، لقد قلت لنا ان مولاك يعجب كثيرا لماذا سادتنا والبارونات دخلوا إلى أرضه ومملكته، انهم لم يدخلوا أرضه هو، لأنه اغتصب هذه الأرض ظلما وعدوانا، وضد الله وضد الحق، انها تخص ابن شقيقه - الامبراطور اسحاق - الذى يجلس بيننا على العرش. اذا رغب سيدك فى أن يرد لابن شقيقه تاجه وامبراطوريته، ويلقى بنفسه تحت رحمته، عندئذ سنتوسل لابن شقيقه لكى يصفح عنه وأن ينعم عليه بالقدر الذى يمكنه من العيش ميسور الحال، واذا أنت لم تجبنا على هذه الرسالة، فلا تجرؤ على العودة إلى هنا ثانية"[1].

استقر رأى البارونات على أن يظهروا الأمير اليكسيوس إلى أهالى القسطنطينية طمعا فى أن ينضموا إلى جانبه ضد عمه الامبراطور، وبالفعل اعتلى الأمير ظهر احدى السفن الحربية ومعه الماركيز بونيفيس ودوق البندقية واقتربوا كثيرا من أسوار العاصمة، غير أن ظنهم قد خاب، فبدافع من الخوف من الامبراطور لم يجرؤ أحد من الاهالى على رؤيته، فعاد الأمير ومن معه إلى الجيش مرة أخرى. ولم يجد الصليبيون بدا من اقتحام العاصمة، فقسموا الجيش إلى سبع فرق، وكانت أكبر الفرق تحت قيادة الماركيز بونيفيس، وبعد جهود مضنية تمكنوا من قطع السلاسل الحديدية الضخمة التى تغلق ميناء القسطنطينية وأصبحوا داخل الميناء حيث هاجموا المدينة برا وبحرا، وتعرض للهجوم قصر بلاكرناى Blachernae وهو أحد القصور الامبراطورية.

وفى صباح ١٧ يوليو ١٢٠٣ بدأت معركة رهيبة بين الطرفين استولى خلالها الصليبيون على ٢٥ برج من ابراج العاصمة والتحموا مع المدافعين عنها فى قتال عنيف، وكان الامبراطور اليكسيوس ذاته يقود

---

[1] Villehardouin : op. cit., p. 25.

المعركة، وتلى ذلك معارك أخرى[1] ، وقد أدرك الامبراطور تفوق الجانب الصليبى وعدم جدوى الدفاع، فجمع كل ما استطاع من مجوهرات وأموال وفر ليلا مع عدد من أتباعه، وحين علم الأهالى بفراره ذهبوا إلى الامبراطور السابق اسحاق فى سجنه، واخرجوه منه وحملوه إلى قصر بلاكرناى، حيث أجلسوه على العرش، وبمجرد عودته إلى عرشه أرسل إلى جيش الصليبيين يخبرهم بذلك.

اجتمع الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات مع البارونات واخبرهم بذلك ثم ابلغوا الأمير اليكسيوس ففرح فرحا عظيما، وقد استقر رأى الصليبيين على عدم السماح للأمير بالعودة إلى والده إلا بعد أخذ موافقة الامبراطور اسحاق على كل ما تعهد به ابنه للصليبيين مقابل استرداد العرش البيزنطى، فأرسلوا بأربعة رسل اثنين من البنادقة واثنين من الصليبيين كان احدهما هو جيوفرى فيلهاردوين، وفتحت لهم بوابة القسطنطينية ووصلوا إلى قصر بلاكرناى حيث قابلوا الامبراطور اسحاق، واخبروه بتفاصيل الاتفاق السابق مع ولده اليكسيوس وطلبوا منه المصادقة عليه. وبعد أن أوضح الامبراطور رأيه فى هذا الاتفاق وشروطه القاسية، شكر الصليبيين على هذه الخدمة التى قدموها له ولأبنه وصادق على الاتفاق.

وهكذا اطمأن الصليبيون بالتزام الامبراطور اسحاق بتنفيذ شروط الاتفاق وسمحوا للأمير بدخول عاصمته، فقاده البارونات حتى وصلوا إلى بوابة العاصمة حيث استقبله والده بفرحة عارمة بعد أن طال فراقهما. وفى اليوم التالى خرج الامبراطور اسحاق وأبنه اليكسيوس إلى الجيش الصليبى خارج البوابة وقابلوهما، وسمحوا للصليبيين بدخول العاصمة لمشاهدتها، ولكن فى مجموعات صغيرة.

---

[1] يوجد وصف تفصيلى لهذه المعارك فى المصدر التالى: -

Villehardouin : op. cit., pp. 35 - 45.

وفى أول اغسطس ١٢٠٣ توج الأمير اليكسيوس امبراطورا مشاركا فى العرش مع والده اسحاق. وبعد تتويجه ذهب الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى الجيش الصليبى حيث أوضح للبارونات عجزه فى الوقت الحالى عن دفع ما اتفقوا عليه وطلب منهم أن يمهلوه حتى شهر مارس من عام ١٢٠٤، وتعهد بأنه سيتحمل نفقاتهم طوال هذه المدة. وبذلك نجح فى اقناع البارونات ودوق البندقية برأيه فوافقوا على الانتظار[1].

قرر الامبراطور اليكسيوس الرابع القيام بجولة فى بعض ولايات الامبراطورية فى آسيا الصغرى لتفقدها واقرار سلطته عليها. وقد رافقه فى هذه الجولة الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وعدد من البارونات فى حين بقى عدد آخر منهم مع الجيش الصليبى لحراسة المعسكر. وأثناء غياب الامبراطور اشتعل العراك داخل العاصمة بين اللاتين المقيمين بها والبيزنطيين الذين ساءهم تدخل هذا العنصر البغيض فى أمورهم، واشعل بعض الاشخاص المجهولين النار فى المدينة وسرعان ما انتشرت بشكل مخيف حتى أصبح من العسير اطفاؤها، وقد استمرت على هذا النحو يومين وليلتين التهمت خلال هذه المدة الكثير من الكنائس والقصور والمتاجر وامتدت حتى شاطئ البحر، وقد احترق فيها عدد كبير من النساء والرجال والأطفال والشيوخ، وبعد أن خمدت النيران لم يجرؤ اللاتين المقيمين بالقسطنطينية على البقاء بها خوفا من تعرضهم لأنتقام البيزنطيين، فحملوا زوجاتهم وأطفالهم وما تبقى من ممتلكاتهم وغادروا العاصمة وانضموا إلى جيش الصليبيين.

عاد الامبراطور اليكسيوس الرابع إلى العاصمة، وعلم بالحريق الذى اشتعل بها أثناء غيابه والخسائر التى اسفرت عن هذا الحريق، كما أنه كان

---

[1] Villehardouin : op. cit., pp. 54 - 60.

يعلم بمدى كراهية رعاياه لهؤلاء اللاتين، لذلك وفى محاولة لكسب شعور البيزنطيين بدأت معاملته للاتين تتغير وأصبح (يتعالى) عليهم على حد تعبير فيلهاردوين، فلم يعد يزور معسكرهم كما كان يفعل سابقا، وظلت المبالغ التى يدفعها لهم تتضاءل وتنقص حتى انقطعت فى النهاية. وقد دهش اللاتين لهذه المعاملة بعد كل الخدمات التى قدموها له، وذهب إليه قائد الجيش الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وأوضح له وجهة نظر الصليبيين ودهشتهم من تصرفاته هذه، وأخيرا تأكد الصليبيون أنه يضمر لهم الشر وأنه لن ينفذ ما اتفقوا عليه، عند ذلك ارسلوا إليه رسلهم، وكانوا ستة أشخاص من بينهم فيلهاردوين ليوضحوا له أنه إذا لم يلتزم بتنفيذ الاتفاق فأنهم لن يعاملوه كصديق بعد ذلك وانما سيحصلوا على حقهم بالقوة. وقد دهش الامبراطور اليكسيوس وحاشيته لهذه الجرأة إذ لم يحدث من قبل أن تم تهديد الامبراطور البيزنطى داخل بلاطه[1].

وكمحاولة أخيرة ارسل دوق البندقية انريكوداندولو فى استدعاء الامبراطور اليكسيوس ودارت بينهما محادثة أوردها روبرت كلارى وكانت كالتالى:

"Alexe, que Cuides tu faire? "Fist Lidux" freng warde gue nous t'avons gete de grant caitivete, si t'avons fait seigneur et corone a empereur: ne nous tenras tu mie" fist li dux," "nos convenenches, ne si n'en feras plus? -Naie fist liempereres"jen'en ferai plus que fait enai l - Non? "dist li dux, "garchons malvais nous t'avons" List li dux, "gete de le merde et merde te remeterons, et je te desfi et bien saches saches tu que je te pouiwacacherai mal a men pooir de ches pas enavant."[2] .

---

[1] Villehardouin : op. cit., pp. 50 - 53.
Clari : op. cit., pp. 56 - 58.
[2] Clari :la conquete de constantinople. p. 59.

والترجمة العربية لهذه المحادثة هى:

قال الدوق "يا إليكسيوس ما الذى تعنيه بما قلت؟ هل فكرت كيف انقذناك من الشقاء العظيم، وكيف جعلناك سيدا، وتوجناك امبراطورا، فهل رعيت عهدك معنا، وهل اعتزمت تنفيذ شئ أكثر مما فعلت؟ "فقال الامبراطور لا، أننى لن أفعل شيئا أكثر مما فعلت". فقال له الدوق "اتقول لا أيها الغلام السئ، لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاوية القذارة وسنعيدك اليها مرة أخرى، وأننى لمتحديك ومنذرك لتعلم علم اليقين أننى منذ هذه اللحظة فصاعد سألحق بك من الأذى كل ما استطيع".

ظهر العداء سافرا بين الصليبيين والبيزنطيين، وبدأت المناوشات بينهما، وقد اشعل البيزنطيون النار فى بعض السفن الرأسية بالميناء وانتشرت النيران حتى بدا (وكأن العالم كله يحترق) وأصيب الصليبيون بالذعر خوفا على مراكبهم، ولكن بعد أن نجحوا فى إخماد النيران أتضح ان السفن المحترقة هى سفن تجارية بيزية كانت رأسية بالميناء، ولم يصب أسطول الصليبيين بضرر كبير[1].

فى تلك الأثناء أصبح البيزنطيون مقتنعين بضرورة التخلص من هذا الامبراطور الذى كان السبب فى استدعاء اللاتين وإتاحة الفرصة لهم للتدخل فى شئونهم الداخلية وكل ما ترتب على ذلك من متاعب، فالتفوا حول أحدهم ويدعى مورزوفلوس Mourzu Phlus وكان محبوباً من الأهالى، وفى إحدى الليالى قبض مورزوفلوس على الامبراطور اليكسيوس وسجنه، وأعلن مورزوفلوس امبراطورا فى كنيسة آيا صوفيا، وحين علم الامبراطور اسحاق بأن ابنه قد أبعد عن العرش وأودع السجن، مرض ولم يلبث إلا قليلا حتى

---

[1] Villeharduoin : op. cit., p. 54.
Clari, op. cit., pp. 59 - 60.

توفى. أما اليكسيوس فقد لقى حتفه بعد أن دس له موزوفلوس السم فى الطعام وباعتلاء مورزفلوس للعرش البيزنطى لم يعد هناك أى أمل للصليبيين فى الحصول على حقهم أو تنفيذ أى شروط التزم بها قبلهم الامبراطور السابق اليكسيوس الرابع، لذلك لم يعد هناك مفر من الإلتجاء للقوة، فعقدوا فى آخر مارس ١٢٠٤م. اتفاقا بينهم وبين البنادقة ونص هذا الاتفاق على أنه فى حالة سقوط المدينة يقتسموا بالنصف كل ما يحصلون عليه منها من الغنائم والاسلاب وأن يختاروا ستة أشخاص من الصليبيين، وستة أشخاص من البنادقة، ويقسم هؤلاء جميعا على الآثار المقدسة أن ينتخبوا من بينهم الرجل الأصلح ليتوج امبراطورا ويتولى حكم الامبراطورية البيزنطية، ويحصل هذا الامبراطور على ربع ما يتم فتحه داخل العاصمة وخارجها، ويمتلك كذلك القصرين الامبراطوريين Bucoleon و .. Blachernae أما الثلاثة أرباع الأخرى فتقسم بالتساوى بين الصليبيين والبنادقة. وأن يتم اختيار أثنى عشر شخصا من الصليبيين ومثلهم من البنادقة وهؤلاء الأربعة وعشرون شخصا يقومون بتوزيع الاقطاعات ومناصب الشرف، ويرتبون من يقوم على خدمة الامبراطور[1].

وبناء على ذلك، بدأ حصار الصليبيين للقسطنطينية فى ٨ أبريل ١٢٠٤ وتقاتلوا مع المدافعين عن ابراج المدينة وتمكنوا من الاستيلاء على بعض هذه الابراج وعن طريقها تدفقوا إلى داخل العاصمة، وحين رآهم الامبراطور مورزوفلوس فر هاربا عن طريق البوابة الذهبية فأستولى على خيمته الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات وسقطت القسطنطينية فى يد الصليبيين والبنادقة فى يوم الاثنين ١٢ أبريل ١٢٠٤[2].

---

[1] Villehardouin : op. cit., pp. 56 - 59;
Clari; op. cit., p. 68

[2] Ibid: pp. 61 - 62.

دخل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية كالجراد المنتشر، حيث اشعل بعضهم النيران فيها، وكان هذا ثالث حريق تتعرض له العاصمة البائسة، منذ أن جاء إليها اللاتين مع الأمير اليكسيوس انجيلوس، وقد أتت النيران على الكثير من المنازل، وقدر المؤرخ فيلهاردوين عدد المنازل التى احترقت فى هذا الحريق وحده، بأنها تماثل عدد المنازل التى تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا[1] آنذاك. ثم انطلقوا يقتلون كل من صادفهم من البيزنطيين حتى أصبح من العسير حصر عدد القتلى. ثم جاء دور النهب الذى لم يقف عند أى حد، حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من النهب والسلب، ويكفى للتدليل على ذلك ما فعله الصليبيون بكنيسة آيا صوفيا، فقد اقتحموها وهم سكارى فمزقوا الستائر والبسط والمفروشات وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم وحطموا الايقونات الفنية النادرة، وإذا كان هذا شأنهم مع الكنائس، فلم يكن غريبا أن يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين بالقسطنطينية وهو الجامع القديم الذى بنى فى عصر الامبراطور ليو الثالث (٧١٧-٧٤١).

ولعل ما جاء فى خطاب البابا اينوسنت الثالث[٢] إلى الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات يعطى صورة أكبر للفظائع التى ارتكبها الصليبيون ضد العاصمة البيزنطية وأهاليها.

ويوضح لنا شاهد عيان هو روبرت كلارى ما حدث بعد ذلك فيقول: "صدر الأمر بعدئذ بجمع كل الغنائم فى كنيسة معينة من كنائس المدينة فجئ بها إليها واختاروا عشرة فرسان من كبار الحجاج وعشرة من البنادقة ممن

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 64.

(٢) راجع الترجمة الحرفية لهذا الخطاب فى المرجع التالى:

إسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية إنحرافها ضد القسطنطينية، ص ص. ١١٢-١١٣

توسموا فيهم الأمانة وأقاموهم حراسا على هذه الثروة، وهكذا جاءوا بالغنائم وكانت عظيمة جدا فكان بها كثير من الأوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة . فكان ما جمع هناك منظرا رائعا عجيبا ولم يحدث قط - منذ بداية العالم - أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الغالية العظيمة، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شرلمان ولا قبلهما ولا بعدهما، ولا أظن أنا شخصيا، أنه توفر فى أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة ما توفر بالقسطنطينية وما عثروا عليه بها، إذ يقول اليونان أن ثلثى كنوز العالم موجودة فى القسطنطينية، أما الثلث الباقى فموزع فى بقية الدنيا، حتى أن نفس الأشخاص الذين عهد إليهم بالحراسة أخذوا كل ما طمعوا فيه من الحلى الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة إلى هذه الثروة وإلى كل ما وجدوه، وأخذ كل رجل غنى ما طمع فيه من الحلى الذهبية أو الاقمشة الحريرية والمذهبة وسواها وانطلق به، وبهذه الطريقة شرع الكبار فى سرقة الغنائم حتى لم يبق شئ يتقاسمونه مع عامة الجيش من الحجاج أو الفرسان الفقراء أو العسكر الذين عاونوا فى كسب هذه الغنائم.

أقول لم يبق شئ لمقاسمته مع هؤلاء سوى الفضة المجردة كالأوعية الفضية التى اعتادت نساء المدينة حملها معهن إلى الحمامات.

أما الأسلاب الأخرى التى بقيت فقد اختفت بطرق شريرة كما اخبرتك لكن أخذ البنادقة - على أية حال - النصف المقرر لهم، أما الأحجار الكريمة والثروة الكبيرة التى بقيت لتقسم فقد نهبت بأساليب أخرى كما سأقص عليك فيما بعد[1].

---

[1] Clari : La Conquete de constantinople pp. 80 - 81.

أما شاهد العيان الاخر وهو جيوفرى فيلهاردوين، فقد قال ان الغنائم التى أخذها الصليبيون بعد فتحهم القسطنطينية كانت من الكثرة لدرجة يمكن معها القول أنه ليس لها نهاية، من ذهب وفضة وأحجار كريمة وحرير وفراء ويشهد فيلهاردوين على أنه منذ الخليقة لم تؤخذ غنائم من مدينة قط مثلما أخذ من القسطنطينية فشبع من الصليبيين من كان جائعا، واغتنى منهم من كان فقيرا [1].

وهكذا لم يقع بصر الصليبيين على تحفة أو ثروة إلا نهبوها ولم يتركوا أثرا فنيا أو أدبيا إلا افسدوه ودمروه. وقد بات الصليبيون وهم فى فرح وسرور وشكروا الله الذى منحهم النصر وهم حوالى ٢٠ ألف رجل، على ٤٠٠ ألف رجل بيزنطى "والأكثر من ذلك على المدينة العظيمة الشديدة التحصين" [2].

أما الجانب الآخر المهزوم ، المغلوب على أمره، وأعنى به البيزنطيين، فأنهم باتوا ينوحون ويرثون مدينتهم الحبيبة، مثلما رثاها مؤرخهم المعاصر نقيتاس خونياتيس بقوله [3]:

Ourbs, urbs, urbium omnium ocule, Per orbem Terrarmu celebris mater, Princeps religionis, rectae sententiae dux, eruditionis alumna, Omnis Pulchritudinis diversorium, itahe ex mahu domini calicem puroris bibisti. Itahe pars extitisti ignis multo Vehemehtioues eo quo olim pentapolis divinitus conflagravit.

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 65.
(2) Villehardouin : op. cit., p. 65.
(3) Choniates Historia. ed. Bonn. p. 763.

"أيتها المدينة، المدينة، يا خير المدائن، ياحديث العالم، يا منار الأرض، ياحامية الكنائس، يا سيدة الايمان، يا قلعة العلم، يا ملاذ كل الخير، لقد تجرعت حتى الثمالة من كأس غضب الله، ولقد حل بك اتون ابشع من ذاك الذى انصب لظاه قديما على المدائن الخمس".

وقد تمنى خونياتيس، لو أن مدينتهم كانت قد وقعت فى يد المسلمين "الذين كانوا لطفاء ورحماء" حين فتحوا بيت المقدس، ولم يفعلوا بها مثلما فعله هؤلاء المخلوقات "الذين يحملون صليب المسيح على اكتافهم"[١].

بعد أن انتهت موجه النهب والسلب التى اجتاحت القسطنطينية كان على الجميع مهمة اختيار امبراطور لاتينى يحكم الامبراطورية البيزنطية، وهنا عاد الفاتحون إلى الاتفاق السابق بينهم، فكونوا لجنة من أثنى عشرة شخصا، ستة من الصليبيين وستة من البنادقة لاختيار أحدهم، وكانت المنافسة شديدة بين الماركيز بونيفيس اوف مونتفرات، وبين الكونت بلدوين اوف فلاندرز وهينولت.

وبلدوين هذا يعد واحدا من أكبر السادة الاقطاعيين الفرنسيين، ولد فى عام ١١٧٢، ووالده هو بلدوين الخامس كونت هينولت، الذى تزوج فى عام ١١٦٩ من مارجريت شقيقة فيليب الالزاسى كونت فلاندرز. وقد توفى فيليب فى مدينة عكا عام ١١٩١ دون أن ينجب وريثا، فآل أقليم الفلاندرز إلى شقيقته مارجريت، التى توفيت هى الأخرى فى ١١٩٤، وبذلك ورث ابنها بلدوين أقليم فلاندرز. وحين توفى والده بلدوين الخامس فى ديسمبر ١١٩٥ آل إليه أقليم هينولت أيضا، وبذلك جمع بلدوين الأبن بين حكم أقليمى

---

(1) Choniates : Hqtoria, ed. Bonn, pp. 761 - 762.

الفلاندرز وهينولت. وكان الكونت التاسع على الأقليم الأول، والكونت السادس على الأقليم الثانى.

وقد ساهم بلدوين بنصيب كبير فى الصراع الذى اشتعل فى الغرب الأوروبى بين ملوك فرنسا وانجلترا والمانيا حتى اشتراكه فى الحملة الصليبية الرابعة(١).

وهكذا اشتعلت المنافسة على منصب (الامبراطور) بين كل من بونيفيس اوف مونتفرات، وبلدوين اوف فلاندرز وهينولت، وكان الأول يتفوق على الثانى بما له من قوة الشخصية وقيادة الجيش الصليبى وصلات عائلته ببيزنطة.

ومن ثم فقد أخذ بونيفيس يهيئ نفسه لهذا المنصب، فأستولى على القصر الامبراطورى الكبير Boukoleon وتزوج من مارجريت (ماريا) الهنغارية أرملة الامبراطور السابق اسحاق انجيلوس، وقد اعتبره البيزنطيون حاكمهم الجديد وحين كانوا يقابلون اللاتين فى الطريق كانوا يصيحون الماركيز هو الامبراطور المقدس Aiios Phasileos Marchio لكن بونيفيس أدرك أنه لن يستطيع السيطرة على لجنة الانتخاب لأن ثلاثة فقط من الصليبيين الستة كانوا يؤيدونه، فى حين أن الثلاثة الآخرين مضافا إليهم الستة من البنادقة كانوا يؤيدون منافسه بلدوين. فقد كان الدوق داندولو يخشى من قوة شخصية بونيفيس وكان يفضل ان يكون الامبراطور الجديد أضعف شخصية وأقل أهمية حتى يسهل السيطرة عليه، أضف لذلك أن بونيفيس كان حليفا قديما لجنوا، وهذا وحده سببا كافيا لكى يعمل الدوق بكل قواه ونفوذه على ابعاد بونيفيس عن هذا المنصب.

(1) Wolf . Studies in The Latin Empire of Constantinople, London 1976 Book IV, pp. 281 - 288.

وفى منتصف ليلة ٩ مايو ١٢٠٤ أعلن نيفلون اسقف سواسون الذى كان عضوا فى لجنة الانتخاب، اختيار بلدوين كونت فلاندرز وهينولت امبراطورا وفى ١٦ مايو تم تتويجه فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا واتخذ لقب:

Porphyrogenitus Semper Augustus[1]

أما بالنسبة لمنصب بطريرك كنيسة القسطنطينية، فقد كان أحد الشروط الهامة للطرفين فى اتفاقهم قبل اسقاط العاصمة البيزنطية ينص على التالى: -

"الجانب الذى لم يختار منه الامبراطور، يكون لديه السلطة لكى ينصب رجل دين على كنيسة آيا صوفيا، ويختار بطريركا من أجل خدمة الرب والكنيسة الرومانية المقدسة للامبراطورية"[٢] .

وبعد اختيار لجنة الانتخاب لبلدوين اوف فلاندرز من الجانب الصليبى إمبراطوراً، أصبح اختيار بطريرك كنيسة القسطنطينية من نصيب البنادقة فأجتمع رجال الدين منهم فى كنيسة أيا صوفيا، واختاروا توماس موروسينى Thomas Mauroceni لهذا المنصب.

وكان توماس ينتمى إلى عائلة نبيلة هى عائلة موروسينى التى يرجع أصلها إلى مانتوا Mantua ولم يكن موجودا بالقسطنطينية وقت انتخابه.

---

(1) Villehardouin : op. cit., pp. 67 - 68;
Clari : op. cit., pp. 93 - 94.
Wolf ® : Studies in the Latin Empire of Constantinople, pp. 188 - 190.
Nicol : The Fourth Crusade and The Greek and Latin Empires, 1204 - 1261, C. M. H. ed. Hussey, Cambridge, 1975, Vol. IV, part.1,p. 286.
Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, p. 179.
Walter : La Ruin de Byzance, pp. 150 - 151.

(2) Wolf : Studies in the Latin Empire of Constantiople, Book IX, p. 227.

والوصف الوحيد الذى جاء عن توماس كان لنقيتاس خونياتيس المؤرخ البيزنطى الذى رآه بالقسطنطينية فى نهاية صيف عام ١٢٠٥م. والذى يعكس لنا وجهة نظر البيزنطيين فى أول رجل كاثوليكى يتولى رئاسة كنيستهم الارثوذكسية.

قال نقيتاس : ان توماس كان فى منتصف العمر، سمينا (مستديرا مثل الكرة، ضخما مثل خنزير معلوف)، أجرد، يضع خاتما فى أصبعه، وفى بعض الأحيان يرتدى قفازا من الجلد فى كفيه. أما لباسه فهو ضيقا للغاية، حتى يبدو وكأنه محاكا على جسده مباشرة، ومن الصدر يميل هذا اللباس إلى السعة[١] .

وقد ظل البابا اينوسنت الثالث لعدة شهور، وهو لا يعلم بأمر اختيار توماس موروسينى بطريركا للقسطنطينية وفى ٢١ يناير ١٢٠٥، علم البابا بذلك، وأعلن اعتراضه على هذا الاختيار، ولم يكن اعتراض البابا على شخص موروسينى نفسه، فهو على حد قوله: "نعلم نحن وأخواننا ان الشخص الذى اختير، نبيل المولد، شريف، فطن، ومثقفا بالقدر الكاف". ولكن اعتراض البابا كان على الطريقة التى تم بها انتخابه، لأن اختيار بطريرك القسطنطينية من صميم اختصاص البابا أو نائبه، لذلك فقد شعر البابا اينوسنت الثالث (بالألم) لأن انتخاب موروسينى تم فى مجمع عام[٢] .

على أن البابا لم يلبث أن وافق على هذا الاختيار، وفى ٥ مارس ١٢٠٥ تم ترقية البابا لتوماس من شماس مساعد إلى شماس، وفى ٢٦ مارس

---

(1) Choniates : Historia, ed. Bonn, pp. 854 - 855.

(2) Wolf : Studies in the Latin Empire of Constantiople, Blook IX, p. 228.
Walter : La Ruine de Byzance, p. 154.
Runciman : The Byzantine Theocracy, Cambridge University Press, 1977 pp. 138 - 139.

عينه قسا وفى ٢٧ مارس جعله اسقفا، وفى ٣٠ مارس أنعم عليه البابا بالعباءة Pallium الخاصة بمنصب رئيس الاساقفة، مع التوصية بارتدائها فى احتفال مقدس، كما أنعم عليه بعدة امتيازات منها، منحه الحق فى أن يحمل الصليب أمامه حيثما ذهب، فيما عدا روما أو أية مدينة أخرى يكون بها نائب بابوى[١] .

وحسب الاتفاق السابق بين الطرفين، كان نصيب الامبراطور بلدوين، ربع الاراضى التى تم الاستيلاء عليها، فمنح حكم القسطنطينية ذاتها ما عدا حى البنادقة، ومعظم تراقيا بما فيه ادرنه، والجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من بحر ايجة، وهى جزر ساموتريس وكوس ولسبوس وساموس، وخيوس.

وكان نصيب بونيفيس اوف مونتفرات حكم بعض الاراضى فى آسيا الصغرى، لكنه رفض وطلب منحه مملكة سالونيك التى كان يحكمها شقيقه من قبل، وحتى تكون مملكته متاخمة لأملاك ملك هنغاريا شقيق زوجته الجديدة مارجريت.

ولما رفض الامبراطور بلدوين طلبه دخل الاثنان فى صراع، وانتهى الأمر بتأييد دوق البندقية لبونيفيس وموافقته على منحه سالونيك، مقابل قبول الماركيز بيع جزيرة كريت للبنادقة بدلا من الجنوية الذين كانوا قد طلبوا شرائها منه[٢] .

---

(1) Wolf : op. cit., Book IX, pp. 230 - 231.
Walter : op. cit., p. 155.
والجدير بالذكر أن مورسينى لم يستمر طويلا فى منصبه إذ توفى فى عام ١٢١١، انظر:
Nicol : op. cit., p. 303.
(2) Wolf : op. cit. Book 1, p. 195.

وبذلك نجح بونيفيس اوف مونتفرات فى تأسيس مملكة خاصة بـه تضم مقاطعة سالونيك وبعض الاراضى المجاورة لها مثل مقدونيا وتساليا[1].

أما البندقية فقد فازت بنصيب الأسد من تلك الغنيمة، إذ أخذ البنادقة حيا كبيرا فى القسطنطينية يباشرون فيه نشاطهم التجارى، واستولوا كذلك على معظم الجزر القريبة من الشاطئ بما فيها جزيرة ايوبيا، هذا زيادة على بعض المراكز الساحلية فى شبه جزيرة المورة، ورقعة واسعة من الأرض شمال خليج كورنثة، كذلك ضم البنادقة إلى هذه الممتلكات جزيرة كريت التى اشتروها من بونيفيس اوف مونتفرات. وقد كانت مجموعة الغنائم التى حصل عليها البنادقة من الضخامة لدرجة اتاحت لدوق البندقية ان يطلق على نفسه لقب "حاكم ربع ونصف أراضى الامبراطورية البيزنطية".

وهكذا توسعت البندقية، وأصبحت ممتلكاتها فى غرب وشرق أوروبا معا، كما أصبح لها السيطرة كذلك على الطريق البحرى الممتد من البندقية حتى القسطنطينية، وكان لها حق الاشراف على المضايق والممرات البحرية المؤدية للعاصمة، فضلا عن الحى الخاص بها فى القسطنطينية وحق الاشراف على كنيسة آيا صوفيا[2].

---

(1) Villehardouin : op. cit., p. 69.
Wolf : op. cit., p. 190.

(2) Wolf : op. cit., pp. 190 - 192.
Nicol : op. cit., 287 - 189.
Ostrogorsky : op. cit., pp. 423 - 424.

هذا ، و لم ينعم دوق البندقية داندولو بهذا كله لمدة طويلة فلم يلبث أن مرض وتوفى فى مايو عام ١٢٠٥م، ودفن فى احتفال مهيب فى كنيسة آيا صوفيا، انظر:

Villehardouin : op. cit., p. 102.
Wolf : op. cit., Book 1p. 203.

على أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للصليبيين إذ أن نصيبهم من الغنيمة البيزنطية، قد وزع بين عدد كبير من أمرائهم الذين أقاموا امارات خاصة صغيرة، وهكذا استأثر كبار رجال الحملة الصليبية بالغنيمة وحدهم مما ترك صغار الصليبيين فى حالة شديدة من الحنق وخيبة الأمل.

هذا بالاضافة إلى روح العداء التى استحكمت بين مختلف العناصر، والجنسيات التى تألفت منها الحملة، كما ظهر ذلك فى المنازعات بين الالمان والبرجنديين، وبين اللمبارديين والفلمنكيين، وبين جميع هؤلاء والبنادقة.

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين اللاتين والبيزنطيين، فقد ظل التباعد سائدا بين الطرفين، فقد كان الغزاه الغربيين على درجة من الجمود والكبرياء بحيث أنهم لم يحاولوا تفهم الحضارة البيزنطية على حقيقتها، فى حين احتقر البيزنطيون هؤلاء (البرابرة) الغربيين الاجلاف[1] .

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة على هذا النحو، وبعد هذا العرض لاحداث هذه الحملة يمكن القول انها تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية، ولعل المؤرخ رينيه جروسيه لم يخالف الصواب حين قال: (ان الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرا بفشل الحركة الصليبية بأكملها)[2] .

فقد كان المفروض ان تدعم هذه الحملة مركز الصليبيين فى الشام وتعينهم على مقاومة الضغط الاسلامى الواقع عليهم، لكن الذى حدث هو أنها أدت إلى اضعاف مركزهم بطريق مباشر أو غير مباشر، ذلك أن قيام مملكة لاتينية صليبية بالقسطنطينية وبلاد البلقان، عمل على جذب اعداد كبيرة من

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 379.

(2) Grousset : History des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1946, Tome III, p. 175

الفرسان الصليبيين بالشام الذين فكروا فى التسلل سرا وعلانية إليها لينعموا بقسط من الحياة الهادئة بعيدا عن تهديد المسلمين ومتاعبهم. وكذلك الحال بالنسبة للفرسان الغربيين الذين لجأوا هم الآخرون إلى القسطنطينية، بدلا من التوجه إلى الصليبيين فى الشام ومساعدتهم ضد المسلمين.

كما أدى فرار العائلات الارستقراطية البيزنطية وتأسيسها لممالك فى إبيروس ونيقية وطرابيزون والعداء الذى اشتعل بينها وبين المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ادى كل ذلك إلى ان أصبح الطريق البرى إلى الشام أصعب منالاً وأشد خطورة على الصليبيين عن ذى قبل.

وقد أثبتت هذه الحملة ان العامل الاقتصادى والمصالح المادية اصبحا يحتلان المكان الأول فى تفكير المعاصرين، فاذا سلمنا بان الصليبيين كانت لديهم دوافع متعددة ضد الدولة البيزنطية، فما هى دوافعهم ضد مدينة زارا المسيحية التى هاجموها واستباحوها قبل هجومهم على القسطنطينية، اللهم إلا دافع الجشع والمصالح المادية البحته.

الفصل السابع

الأيوبيون والحملة الصليبية الخامسة

لقد أدرك الصليبيون منذ أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حقيقة هامة لا جدال فيها، وهى أن الأيوبيين لم يستطيعوا أن يحرزوا انتصاراتهم على الصليبيين ويستّرجعوا بيت المقدس من ايديهم إلا بعد سيطرتهم على مصر التى أصبحت على عهد الأيوبيين معقل الاسلام وحصنه المنيع، ومصدر الامداد الوفير من الرجال والمال والميره والسلاح، وقد انحصر هدف الصليبيين منذ ذلك الحين فى ازالة قوة مصر والقضاء عليها حتى يمكنهم عن طريقها الوصول إلى بيت المقدس، وبمعنى آخر آمنوا ايمانا عميقا بأن مفاتيح بيت المقدس موجودة بالقاهرة وان عليهم الاستيلاء على مصر بوصفها الطريق الطبيعى الذى لا طريق بعده للوصول إلى بيت المقدس. وقد اخذوا يشبهون مصر تشبيهات توضح بجلاء ايمانهم هذا، فهم حيناً يشبهونها برأس الأفعى، وانه اذا تم لهم القضاء على هذا الرأس، فان الجسد كله سيهوى بين أيديهم، ومرة أخرى بالقلب فى الجسد، واذا توقف القلب انتهى أمر الجسد، إلى غير ذلك من التشبيهات العديدة التى امتلأت بها كتب دعاة الحروب الصليبية. أما المؤرخون المسلمون فقد ادركوا هم الآخرون هذه الحقيقة وفسروا فى ضوئها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى. فيقول المؤرخ ابن واصل أن الصليبيين تشاوروا بخصوص اتجاه الحملة الصليبية الخامسة وان ذوى الرأى منهم قد اشاروا بقصد مصر أولاً وقالوا: "ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها، فالمصلحة ان نقصد أولاً مصر ونملكها وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد".

وقد أثبتت لهم تجاربهم السابقة والتى تمثلت فى الحملة الصليبية الثالثة عدم جدوى محاولة استرداد بيت المقدس عن طريق الشام لذلك فقد ارادوا وبصفة عملية ان يستردوا بيت المقدس عن طريق مصر، وكان ذلك هدف الحملة الصليبية الرابعة ، ولكن هذه الحملة لاسباب معينة انحرفت واتجهت

ضد القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ م . واسقطت الحكم البيزنطى واقامت مملكة لاتينية كما سبق أن اوضحنا فى الفصل السابق. وهكذا اصيب البابا اينوسنت الثالث بخيبة امل كبيرة بعد أن خرج من تجربة الحملة الصليبية الرابعة بحقيقة هامة هى ان الصليبيين بدأت تحركهم عوامل أخرى غير العامل الدينى وان السيطرة على الحركة الصليبية آلت إلى اشخاص آخرين غير البابوية.

وقد دعا البابا اينوسنت الثالث إلى هذه الحملة الصليبية الجديدة فى المؤتمر الدينى الذى عقد فى كنيسة لاتيران فى روما فى ١١ نوفمبر ١٢١٥، وقد بدأ المؤتمر بالخطبة التى ألقاها البابا اينوسنت الثالث والتى عبر فيها عما تقاسيه مدينة بيت المقدس من انتهاكات للاماكن المسيحية المقدسة من جانب المسلمين، واشار إلى انه قد آن الآوان للقضاء على المسلمين وطالب الحاضرين ـ وكان المؤتمر يضم أعداداً كبيرة من رجال الدين فضلاً عن مندوبين لملوك المانيا وانجلترا وفرنسا واسبانيا وهنغاريا والمملكة اللاتينية فى القسطنطينية ـ طالب جميع هؤلاء ببذل المساعدة للبابوية لتتمكن من القيام بهذا العمل المقدس.

ولقد سمح لمندوب مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية والتى كان على رأسها فى ذلك الوقت حنا دى برين بالكلام فى المؤتمر، فأخذ يفيض فى وصف الحالة السيئة التى وصل إليها الصليبيون فى الشرق، وتمت مناقشة عدة مشروعات لاستعادة بيت المقدس، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن تكون مصر هى وجهة الحملة الصليبية الجديدة.

وقد تحدد يوم أول يونيو عام ١٢١٧ موعداً لابحار الحملة على أن يكون الابحار من أى مكان يقع على خليج مسينا.

وقد بلغت جملة التبرعات للحملة بأن قدم ثلاثين ألف جنيه بالاضافة إلى ثلاثة آلاف مارك فضة. وقد طالب البابا بأن يدفع رجال الدين دخلهم. اما العلمانيون الذين لم يحملوا الصليب ولم يشتركوا فى الحملة فعليهم أن يمدوا اخوانهم الصليبيين فى الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاث سنوات.

وقد بذل البابا اينوسنت امتيازات روحية هامة للمشتركين فى هذه الحملة الصليبية الجديدة، فقد منح البابا الغفران التام من الخطايا لكل من يقدمون سفنهم لحمل الصليبيين المشتركين فى هذه الحملة، وكذلك لكل من يعملون فى بناء هذه السفن أو يساهمون فى نفقات الحملة. اما الذين سيشتركون فى الحملة فقد تقرر اعفاؤهم من دفع الضرائب المقررة عليهم بمجرد حملهم الصليب، ووضع املاكهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم وتأجيل دفع ما عليهم من ديون، وهذه الامتيازات تشبه إلى حد كبير الامتيازات التى منحها البابا ايربان الثانى للمشتركين فى الحملة الأولى.

هذا إلى جانب القرارات الأخرى التى اتخذت بخصوص هذه الحملة من منع الاتجار مع المسلمين وتهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارته، وقد اعطى الحق لمن يقبض على أى تاجر لاتينى يتعامل مع المسلمين ان يعامله معاملة الاسرى.

والمقصود من ذلك بطبيعة الحال منع تزويد المسلمين بالأخشاب والحديد اللازمة لهم والتى كان المسلمون يحتاجون اليها لبناء السفن. وكثيرا ما نادى البابوات بمثل هذا التحريم، خاصة على المدن البحرية الايطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية . ولكن جهود البابوات ذهبت ادراج الرياح لأن هذه المدن كانت لا تهتم بالصالح الصليبى قدر اهتمامها بمصالحها التجارية البحتة، واذا تعارضت مصالحها المادية مع الصالح الصليبى، قذفت بالصالح

الصليبى عرض الحائط، وليذهب هذا الصالح الصليبى إلى الجحيم، أما هى فلا تخسر تجارتها، ويكفى أن نوضح فى هذا المجال ان شعار البنادقة كان "نحن أولا بنادقة، وبعد ذلك مسيحيون".

وقد انتشر الدعاة للحملة الصليبية فى انحاء الغرب الاوروبى، من أجل العمل على حشد أكبر عدد من النبلاء والفرسان والعامة، للانخراط فى سلك هذه الحملة الصليبية.

على أن الأجل لم يمتد بالبابا اينوسنت الثالث ليرى نتيجة جهوده فى الحملة الصليبية الخامسة، فقد توفى فى بروجيا فى شمال ايطاليا فى عام ١٢١٦. وقد خلفه الكاردينال سنسيوس تحت اسم البابا هونوريوس الثالث، الذى أخذ على عاتقه أكمال العمل الصليبى الذى دعا اليه سلفه السابق البابا اينوسنت الثالث.

وقد خرجت الحملة الصليبية إلى بلاد الشام بعضها عن طريق البحر بمساعدة سفن البندقية. وقد قبض البنادقة ثمن نقل الصليبيين بسفنهم، وكان هذا الثمن هو تنازل ملك هنغاريا عن مدينة زارا على ساحل دالماشيا نهائيا للبنادقة وأطلاق حرية التجارة بين هنغاريا والبندقية. كذلك تم الاتفاق على أن يدفع الصليبيون مبلغا من المال مقابل كل سفينة تمدهم بها البندقية.

أما الجزء الآخر فقد اتخذ طريق البر، واجتمع الجميع فى عكا وكانت القوات الصليبية تحت قيادة ملك هنغاريا ويدعى اندرو الثانى (١٢٠٥ - ١٢٣٥).

وفى اثناء ذلك بلغت الانباء الملك العادل بنزول الصليبيين بالشام واستعدادهم لغزو بلاد المسلمين. فغادر مصر إلى الشام، وبعد عدة اشتباكات

.. القوات الاسلامية والصليبية فى الشام لم تسفر عن تحقيق مكاسب هامة للصليبيين اعلن الملك اندرو عزمه على العودة لبلاده وقد هدده بطريرك مملكة بيت المقدس الاسمية بتوقيع قرار الحرمان عليه اذا تخلى عن الصليبيين فى هذا الوقت الحرج وقبل قيامهم بغزو مصر، ولكن اندرو لم يعبأ بهذه التهديدات واتخذ طريقه من عكا إلى ارمينيا وعاد إلى بلاده فى أوائل عام ١٢٢٨.

وهكذا عاد قائد الحملة الملك الهنغارى إلى بلاده ومعه عدد كبير من جنوده الهنغارين دون ان يشترك مع الصليبيين فى عمل حاسم ضد المسلمين سواء فى الشام أو فى هجومهم المرتقب ضد مصر.

على أن الصليبيين بالشام لم يلبثوا ان عوضوا عن النقص الذى حدث فى قوات الحملة عن طريق وصول أعداد كبيرة من المحاربين القادمين من أوروبا، فقد وصلت اليهم قوات من الجنود الاسكندنافيين فى اوائل مايو ١٢١٨ وصل عددهم إلى حوالى ثلاثين ألف مقاتل، كما وصلتهم قوات أخرى تحت قيادة هنرى كونت هولندا. وهكذا تجمع بالشام أعداد كبيرة من القوات الصليبية المحاربة بالاضافة إلى قوات الامارات الصليبية بالشام وعلى رأسها الفرسان الداوية والاسبتارية.

وقد عقد ملك بيت المقدس حنا دى برين مجلساً لبحث الأمور الخاصة بالهجوم على مصر، ومكان نزول القوات الصليبية المهاجمة وكيفية تزويدها بالمؤن، واعداد سفن النقل وغيرها من الأمور اللازمة لهذا العمل. وقد تقرر أن تكون مدينة دمياط هى المكان الذى ستبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه، وقد تم اختيار مدينة دمياط بالذات لعدة أمور، أولاً لقربها من مراكز الصليبيين فى الشام وخاصة عكا، كما أنها على حد تعبيرهم كانت قفل الديار المصرية وانه يمكن عن طريقها الوصول إلى القاهرة العاصمة، كما أنها

احدى ثلاث مدن هامة بمصر والمدينتان الاخرتان هما الاسكندرية والقاهرة، وأن سقوط أى مدينة من هذه المدن الثلاث يعنى سقوط مصر كلها.

وكانت مدينة دمياط آنذاك تقع إلى الشمال من دمياط الحالية، وتبعد عن البحر الابيض المتوسط بحوالى ميلين، أما بالنسبة لنهر النيل فقد كانت تقع على الضفة الشرقية لفرع دمياط. وهكذا اصبحت المدينة كشبه جزيرة يحدها البحر المتوسط شمالاً ونهر النيل غرباً وبحيرة تنيس شرقاً. ونظراً لأن المياه تحيط بدمياط من ثلاث جهات فقد كان ذلك مما يخدم الحملة عن طريق انتفاعها بالاسماك التى يمكن اصطيادها من مياه النيل أو البحيرة أو البحر المتوسط فى امداد الحملة بالغذاء اللازم لها. وكذلك الاراضى الزراعية القريبة من دمياط كان مما يوفر للحملة الامداد من الخضروات والفاكهة. هذا إلى جانب ان دمياط كانت ميناء بحرياً هاماً وكانت السفن التجارية القادمة من الهند تمر على ميناء دمياط وهى فى طريقها إلى سواحل الشام أو اوروبا وتدفع ضرائب المرور. ونظراً لأهمية موقع دمياط بالنسبة لباقى البلاد المصرية، وتعرضها نتيجة لذلك للهجوم المستمر من جانب البيزنطيين والصليبيين، لهذا كله فقد لقيت دمياط العناية من جانب الأيوبيين وعملوا على تحصينها، وتقوية سورها وحفر خندق يحيط بالمدينة. كما تم العمل على اعاقة أى سفن للعدو تحاول الدخول عن طريق النيل إلى داخل البلاد المصرية، وذلك عن طريق مد سلاسل من الحديد عظيمة القدر تمتد بعرض مجرى النيل. هذا بالاضافة إلى برج السلسلة وهو حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أى عدوان يقع عليها، وكان يحرس هذا البرج رجال أشداء مزودون بالسلاح، وكان البرج يتكون من عدة طوابق ويعتبر الطابق الذى فى الوسط الطابق الرئيسى لهذا البرج، ويعلو البرج قبة ذات ثلاثة أقواس صغيرة.

وفى يوم ٢٤ مايو ١٢١٨ تحركت سفن الحملة الصليبية فى طريقها إلى دمياط على أن يلحق بها ملك بيت المقدس وهو حنا دى برين وقد وصلت هذه السفن إلى دمياط فى ٢٧ مايو ١٢١٨ وقد تمكن الصليبيون من النزول على الضفة الاخرى للنيل المقابلة لمدينة دمياط وكانت تعرف باسم جيزة دمياط وقد نزلوا على هذا البر دون أن يجدوا أمامهم أية عوائق تعوقهم، نظراً لأن الملك العادل الايوبى لم يكن يعتقد أن تكون دمياط هى هدف الحملة الصليبية الجديدة وبالتالى لم يتخذ أية اجراءات دفاعية ضد الصليبيين فى هذه المنطقة. ولم يلبث الملك حنا دى برين ان لحق بالحملة التى عسكرت فى منطقة جيزة دمياط، وقد سارت الحملة سفنها فى النيل وفرسانها على الشاطئ حتى وصلوا إلى السلسلة التى وقفت حائلاً أمام تقدم سفنهم فى النيل وبالتالى الوصول إلى دمياط سواء من ناحية النيل أو من ناحية البر. لذلك كان عليهم أولا وقبل كل شئ مهمة عسيرة هى تحطيم تلك السلسلة والاستيلاء على برج السلسلة.

نترك الصليبيين يحاولون التخلص من هذه العوائق، وننتقل إلى الجانب الاسلامى ممثلاً فى أهالى دمياط وفى الايوبيين المسيطرين على مصر.

فيما يتعلق بأهالى دمياط فقد أخذوا يعدون أنفسهم لحصار طويل الأمد مما يدل على أنهم عزموا على الدفاع عن مدينتهم وعدم تسليمها للقوات الصليبية المهاجمة. فقام الاهالى بتخزين المؤن اللازمة، كما أرسلوا إلى الملك الكامل الموجود بالقاهرة نائباً عن والده الملك العادل واخبروه بنزول الصليبيين فى جيزة دمياط. وقد غادر الكامل على الفور القاهرة واتخذ طريقه إلى دمياط على رأس جيشه وما انضم اليه من العربان، وعسكر فى جنوبى دمياط فى مكان يعرف بالعادلية، كما اتخذ الاسطول طريقه كذلك فى مياه النيل إلى دمياط واستقر فى شارمساح (وهى قرية كبيرة بينها وبين دمياط حوالى ٣٨ كيلو متر). وقد كان هدف الكامل فى ذلك الوقت العمل على عدم

تمكين الصليبيين من الاستيلاء على برج السلسلة وقطع السلسلة التى تمتد بعرض النيل.

أما بالنسبة للملك العادل الذى كان موجوداً آنذاك بالشام فقد أخذ يغير بالاستعانة بابنائه المعظم والاشرف موسى على املاك الصليبيين فى الشام عله ينجح فى شغل الصليبيين عن مصر.

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الصليبيين والمسلمين فى مصر ولكنها لم تسفر عن نتائج فعالة، وقام الصليبييون كذلك بالعديد من المحاولات لقطع السلسلة والاستيلاء على البرج ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع وانزلت بهم خسائر جسيمة فى الارواح نتيجة لاستبسال المدافعين المسلمين فى حماية البرج والدفاع عن السلسلة.

وأخيراً وفى ٢٤ أغسطس ١٢١٨ نجح الصليبيون فى اقتحام البرج وقتل من فيه والاستيلاء عله وذلك بعد قتال دام حوالى الاربعة أشهر. وعن طريق استيلائهم على هذا البرج تمكنوا من تحطيم السلسلة وتسيير سفنهم فى مجرى النيل.

وقد كان إستيلاء الصليبيين على البرج وقطع السلسلة بمثابة صدمة عنيفة اصابت الأهالى والايوبيين لدرجة أن الملك العادل حين علم بذلك دق بيده على صدره فى حسرة وألم ومرض من ساعته ولم يلبث أن توفى فى ٣١ أغسطس ١٢١٨، ودفن فى دمشق.

وقد استقر كل واحد من ابنائه فى المملكة التى منحه أياها والده قبل وفاته، فكان الكامل فى مصر، والمعظم عيسى فى دمشق، والاشرف موسى فى حران، والاوحد فى ميافارقين.

وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على صمودهم فى وجه الصليبيين، لأنه لم تقم بينهم الخلافات التقليدية التى تحدث عادة بين الابناء على الميراث، فاتفقوا واتحدوا معاً فى مواجهة العدو الجاثم على قلب مصر وقتذاك.

وهكذا وقع على الملك الكامل بعد ان صارت مصر ملكاً خالصاً له بعد وفاة والده، عبء مواجهة الصليبيين وابعادهم عن بلاده. وقد بذل كل جهده في محاولة عرقلة الصليبيين عن الوصول إلى القاهرة عن طريق النيل، فبنى جسراً عظيماً بعرض مجرى النيل وذلك عوضاً عن السلسلة التى حطمها الصليبيون، ولكنهم نجحوا أيضاً فى تحطيم الجسر، عند ذلك لجأ إلى حيلة أخرى وهى أن أغرق بعض السفن عمداً وأيضاً بعرض مجرى النيل حتى تعوق تقدم سفن الصليبيين، وقد نجحت هذه الحيلة فى تحقيق الهدف منها واعاقت سفن الصليبيين عن مواصلة السير فى النيل فى اتجاه القاهرة، وكان ذلك مما أعطى للمسلمين فرصة السيطرة على مجرى النيل.

واذا كان الكثير من الصليبيين قد اعتقدوا بعد سقوط برج السلسلة فى ايديهم وتحطيمهم للسلسلة انهم قد وفوا بقسمهم وقاموا بمهمتهم خير قيام وان البلاد المصرية لن تلبث أن تسقط فى أيدى الصليبيين، فان احلامهم هذه لم تتحقق وانما كان سقوط برج السلسلة فى أيديهم بداية الكوارث التى حاقت بالحملة الصليبية الخامسة، لأن كثيراً من الصليبيين قد غادروا الاراضى المصرية إلى غرب أوروبا وتركوا اخوانهم أمام دمياط، اعتقاداً منهم ان الأمر صار هيناً بسيطاً وان مصر ستسقط بأسرها فى أيدى اخوانهم وأنه لا ضرورة اذن لتواجدهم. وقد كان ذلك مما عرقل نشاط باقى قوات الحملة الصليبية الخامسة وظلت قواتها فى حالة جمود وركود فى انتظار وصول امدادات جديدة تصلهم من الغرب الاوروبى. وقد اعطت فترة الركود هذه الفرصة للايوبيين لتنظيم قواتهم والتقاط انفاسهم بعد كارثة سقوط برج السلسلة فى ايدى الصليبيين. على أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، ذلك أن الامدادات

العسكرية الصليبية لم تلبث أن وصلت إلى جزيرة دمياط باعداد كبيرة وكان على رأسها الكاردينال بلاجيوس وهو نائب البابا فى الحملة. والواقع أن هذا الشخص سيسبب للحملة الكثير من المتاعب وسيكون من أهم أسباب فشلها.

ذلك أنه بعد وصول بلاجيوس أصبح هناك صراعاً على السلطة بينه وبين قائد الحملة حنا دى برين، وكان ذلك الصراع بسبب ما اتصف به بلاجيوس من التعصب والغطرسة والتعالى، وقد أخذ يحقر من شأن حنا دى برين وأعلن أن الصليبيين هم فى المقام الأول جنود الكنيسة ولذلك يجب عليهم ألا يخضعوا لأى قائد علمانى، بل أن يخضعوا له فقط باعتباره ممثلاً للبابا ونائباً عنه فى الحملة. وقد كسب بلاجيوس تأييد رجال الدين على حين انضم القادة العسكريين إلى جانب حنا دى برين، وهكذا لم يكد بلاجيوس يصل إلى جيزة دمياط حتى بدأ يثير المشاكل ويبذر بذور الانقسام فى المعسكر الصليبى، وكان هذا الانقسام فى صالح المسلمين بطبيعة الحال.

وقد جرت بعض الاشتباكات بين القوات الايوبية بقيادة الملك الكامل الذى كان لا يزال معسكراً عند العادلية، وبين الصليبيين تراوحت بين النصر والهزيمة لكلا الطرفين.

على أن المعسكر الاسلامى لم يلبث هو الآخر ان تعرض لبعض الاضطرابات، ذلك ان الكامل تعرض لمؤامرة من بعض كبار امرائه وعلى رأسهم عماد الدين بن المشطوب، الذى أراد خلع الملك الكامل وتنصيب شقيقه الفائز بدلاً منه، ولا شك فى ان ابن المشطوب قد رغب فى التخلص من الكامل واستبداله بشقيقه الفائز لصغر سن الفائز، وعدم خبرته بالأمور مما يتيح لابن المشطوب السيطرة على الحكم فى ظل الفائز الضعيف.

المهم أن اخبار هذه المؤامرة قد وصلت إلى الكامل الذى تأكد منها حين دخل على المتآمرين فوجدهم مجتمعين وهم يقسمون على مصحف معهم لأخيه الفائز، ولم يستطع الكامل ان يفعل شيئا تجاه هؤلاء المتآمرين لحرج مركزه، فهم من ناحية من كبار امرائه ولهم اتباعهم، ومن السهل ان جاهرهم بالعداء أن يسببوا له الكثير من المتاعب. ومن وجهة أخرى أمامه الصليبيون متحفزون للهجوم على معسكره بالعادلية. لذلك أصبح الكامل فى موقف صعب. وقد دفع خوف الكامل على حياته من هؤلاء المتآمرين ضده، إلى رحيله ليلاً من معسكر العادلية وسار إلى قرية أشموم طناح (أشمون)، وعندما اصبح الجند ولم يجدوا الكامل فى خيمته بينهم، ساد الذعر بينهم وتركوا أسلحتهم وامتعتهم بمعسكر العادلية وولوا هاربين فى أثر الكامل، وهكذا خلت العادلية من المسلمين وكان ذلك فى ٥ فبراير ١٢١٩.

ولم يخفى اخلاء معسكر المسلمين فى العادلية على الصليبيين وقد ظنوا فى بادئ الأمر انها خدعة لاستدراجهم إلى كمين، ولكنهم تأكدوا من حقيقة فرار المسلمين وتركهم المعسكر فاستولوا عليه، وكان استيلائهم على معسكر العادلية خطوة هامة فى صالحهم لانه اتيح لهم النزول إلى الضفة الشرقية للنيل وبذلك تمكنوا من فرض الحصار على مدينة دمياط. وبذلك وقعت دمياط تحت وطأة الحصار البحرى نتيجة لحصار سفن الصليبيين لها من ناحيتها الغربية المواجهة للنيل، فى حين حاصرتها قواتهم البرية من جهاتها الاخرى.

وقد ازداد الأمر سوءا بالنسبة للملك الكامل الايوبى، نتيجة للكسب الذى احرزه الصليبيون من ناحية ولعدم استطاعته القضاء على ابن المشطوب وجماعته من ناحية أخرى لدرجة أنه أى الكامل فكر فى مغادرة مصر وتركها للصليبيين والذهاب إلى ابنه الملك المسعود الذى يحكم بلاد اليمن. ولكن الله سبحانه وتعالى لطف بالمسلمين ذلك أن الملك المعظم عيسى وصل إلى اخيه الكامل عند اشموم طناح. وبعد أن علم بقصة المتآمرين تعهد لشقيقه

الكامل لتخليصه من زعيمهم ابن المشطوب، وعن طريق الحيلة، نجح فعلا فى القبض عليه وارساله إلى الشام، ثم ارسلوا اخيهم الفائز إلى الموصل، وتم لهم بذلك القضاء على هذه المؤامرة التى هددت المعسكر الاسلامى. وبدأ الكامل يستعد من جديد لمواجهة الصليبيين فانتقل من اشموم طناح إلى فارسكور وفى نفس الوقت أخذ يطلب النجدة من العالم الاسلامى، وقد وصلته بالفعل بعض المساعدات العسكرية، وقد استغل الكامل المساعدات التى وصلته وشن عدة غارات على المعسكر الصليبى المحاصر لدمياط، لكنه لم يستطع زحزحتها عن مكانها امام دمياط. وهنا حدث تحول فى سياسة الكامل تجاه الصليبيين ففتح باب المفاوضات بينه وبينهم لعلها تنجح فى تحقيق ما عجزت القوة العسكرية عن تحقيقه ويتم جلاءهم عن الاراضى المصرية.

ولعل الاسباب التى دفعت الكامل لتحوله هذا، تتعلق بادراك الكامل لحقيقة قوة الصليبيين وكثرة اعدادهم، خاصة ان الاخبار قد جاءت تؤكد ان الامبراطور الالمانى فردريك الثانى هو هنشتاوفن يستعد للحاق بالصليبيين امام دمياط، كذلك ادرك الكامل حقيقة قوته العسكرية وانها بأى حال لن تستطيع القضاء على الصليبيين خاصة وان حركة ابن المشطوب قد احدثت بلبلة بين صفوف قواته وكذلك اضطراب وفوضى. إلى جانب الهجمات التى كان يشنها الاعراب على المعسكر الاسلامى فى فارسكور حتى ان المؤرخ ابن الاثير يقول بأن هؤلاء الاعراب كانوا أشد على المسلمين من الصليبيين أنفسهم، بعد أن نهبوا وأفسدوا وبالغوا فى الافساد فى البلاد المجاورة لدمياط. هذا كله بالاضافة إلى انتشار الاخبار عن عزم التتار على فتح المشرق الاسلامى وكان مما لا يخفى على أحد أعمال العنف الهمجية التى تتصف بها غارات التتار.

لذلك كله فقد فضل الملك الكامل ان يتفاوض مع الصليبيين عله ينجح فى ابعادهم عن بلاده سلمياً. وقد عرض الكامل على الصليبيين عرضاً سخياً

للغاية مضمونه ان يتنازل لهم عن جميع الاراضى التى كانت تابعة لهم قبل معركة حطين فى ١١٨٧ وما تلاها من فتوحات قام بها صلاح الدين فيما عدا قلعتى الشوبك والكرك، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة وذلك مقابل الجلاء عن دمياط.

وقد تشاور الصليبيون بخصوص هذا العرض وقبله حنا دى برين وأيده الفريق العسكرى فى الحملة، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض ذلك العرض واتخذ جانبه فى هذا الرفض شيعته من رجال الدين وفرسان الداوية والاسبتارية، وقد طالب الفريق الاخير بكافة ممتلكات مملكة بيت المقدس الصليبية بما فيها الكرك والشوبك. فرفض الكامل تحقيق ذلك.

وقد قام الصليبيون بهجوم على معسكر الكامل فى فارسكور، ووقعوا فى كمين أعده الملك الكامل، وكانت النتيجة أن ألحق المسلمون بالصليبيين هزيمة كبيرة وقتلوا منهم ما يقرب من أربعة آلاف جندى. وعقب هذا الانتصار الذى احرزه المسلمون عاود الملك الكامل عرض الصلح مرة أخرى على الصليبيين ولكنهم رفضوه، فعاود العرض للمرة الثالثة وابدى استعداده لتعويضهم مالياً عن قلعتى الكرك والشوبك، واعادة صليب الصلبوت وكذلك اطلاق سراح جميع الاسرى الصليبيين، وقد تكرر ما سبق فوافق الملك حنا دى برين على هذا العرض، فى حين رفض المندوب البابوى بلاجيوس وشيعته، واعلنوا ان انسحابهم من امام دمياط سيصبح عاراً على كل صليبى وانه لابد من استعادة مملكة بيت المقدس بحد السيف.

وقد زادت نتيجة لذلك حدة الخلاف بين الملك حنا دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس، خاصة بعد ان تمادى بلاجيوس فى تجاهل سلطة حنا دى برين وادعى لنفسه الحق كل الحق فى تصريف شئون الحملة الصليبية وحده،

وكان لذلك آثاره السيئة على الجانب الصليبي كما سنرى من خلال عرضنا المقبل للاحداث.

اشتد حصار الصليبيين مدينة دمياط، وكان من الطبيعي ان تحدث مجاعة داخل البلد بعد أن تعسر وصول الامدادات اليها، ولم يترك الكامل وسيلة أو حيلة للاتصال بأهالي دمياط وتهريب المؤن اليهم إلا واستعملها، ولكن وباء الطاعون انتشر بين أهاليها وافنى الكثيرين منهم، لدرجة ان عدد سكانها عند بداية الحصار كان ستون ألف نسمة، ولم يتبق منهم عند سقوطها في يد الصليبيين سوى ثلاثة آلاف نسمة.

وقد استغل الصليبيون هذه الظروف داخل المدينة وقاموا بهجوم مكثف عليها استعملوا فيه السلالم المتحركة والكتل الخشبية ليعبروا الخندق المقام حولها، ووصلوا إلى السور واعتلوه فاصيب الاهالي بالذعر ولم يستطيعوا المقاومة لقلة عددهم ومعاناتهم من طول الحصار. ويقال ان سقوط المدينة كان على مرأى من الملك الكامل الذى لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا سوى أن يبكي بشدة هو وشقيقه المعظم، وكان استيلاء الصليبيين على دمياط الباسلة يوم الثلاثاء الموافق ٥ نوفمبر ١٢١٩ أى بعد حصار استمر تسعة أشهر.

وقد كان حال الاهالي بالداخل يرثى له فمعظمهم قد لقي حتفه بعد أن تفشى مرض الطاعون بينهم ولم تكن جثث الموتى تملأ الشوارع فقط بل كانت في كل مكان بالمنازل وفوق الأسرة، وقد وجد الصليبيون الاطفال الجياع داخل المدينة وهم يبكون ويطلبون الطعام من ابائهم وأمهاتهم الاموات. ورغم هذا فلم ترق لهم قلوب هؤلاء الطغاة وانما أعملوا القتل والأسر في كل من صادفوه من البقية الباقية من أهالي هذه المدينة الباسلة، كما حولوا جامعها إلى كنيسة.

تقدم القوات الصليبية نحو القاهرة وهزيمة الحملة:

اشتد النزاع بين الصليبيين حول ملكية مدينة دمياط، فان ملك بيت المقدس حنا دى برين كان يرى أن دمياط قد اصبحت جزء من مملكة بيت المقدس الصليبية، فى حين كان رأى بلاجيوس ان المدينة يجب أن تخضع للكنيسة، وباعتباره ممثلاً للكنيسة ونائباً عن البابا فى الحملة، لذلك يجب أن تخضع المدينة لسلطته. أما الخلاف الثانى فكان حول تقسيم الغنائم على القوات الصليبية لأن الجنود الايطاليين لم يقنعوا بما منحوه لهم من غنائم وطالبوا بالمزيد وشهروا سيوفهم فى وجه باقى العناصر المشتركة فى الحملة وعلى الاخص الجنود الفرنسيين. أما المشكلة الثالثة التى واجهت الصليبيين فكانت خاصة بتقدمهم نحو القاهرة، لأن المندوب البابوى بلاجيوس صمم على ضرورة الزحف مباشرة ومطاردة الايوبيين فى حين رأى حنا دى برين انه من الواجب زيادة تحصينات مدينة دمياط ومنح الصليبيين قسطاً من الراحة بعد كل ما عانوه فى الشهور الماضية وقبل سقوط دمياط فى أيديهم، وهكذا اشتد الخلاف بين الصليبيين. أما بالنسبة للمشكلة الأولى فتم حلها حين تم عرضها على البابا هونوريوس الثالث وجاء رده بأن تكون دمياط جزءاً من مملكة بيت المقدس وبالتالى تسليمها لحنا دى برين. وأما المشكلة الثانة فتم حلها أيضاً عن طريق اعادة تقسيم الغنائم واعطاء الايطاليون المزيد منها وبذلك عاد الوئام بين عناصر الحملة. أما المشكلة الثالثة فقد كسبها حنا دى برين أيضاً حين تغلب على رأى بلاجيوس. وبطبيعة الحال لم يغفر بلاجيوس لحنا دى برين كل ذلك وانما ظل يتحين الفرص للحط من ارائه وادعاء سلطات لم يخولها له البابا وحال باستمرار الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى الحملة. وقد استاء الملك حنا دى برين من ذلك وانتحل بعض الاعذار وأهمها هجوم المسلمين على الممتلكات الصليبية فى الشام وضرورة تواجده هناك، وغادر دمياط عائداً إلى عكا فى أواخر مارس ١٢٢٠.

وهكذا خلا الجو لبلاجيوس، فأخذ يتصرف في شئون الحملة بمفرده، وأصدر أوامر مشددة للحد من النشاط البحري للصليبيين بين دمياط وعكا، وقد اعطى ذلك الفرصة لسيطرة المسلمين على مياه البحر بين دمياط وعكا وقطع الطريق على السفن "صليبية.

وقد وصلت بعض القوات الصليبية على رأسها دوق بافاريا فتشجع بلاجيوس وقرر في أواخر يونيو ١٢٢١ الزحف على القاهرة، وأرسل إلى الملك حنا دى برين في عكا يطلب منه الحضور للمشاركة في هذا العمل العسكري. وقد رفض الملك في بادئ الأمر العودة إلى دمياط، ولكنه خشي تعرضه لغضب البابا والصليبيين عامة واتهامه بعرقلة جهودهم العسكرية ضد المسلمين، ولذلك عاد من جديد إلى دمياط في الوقت الذي كان الصليبيون قد بدأوا يتقدمون فعلاً بحذاء النيل نحو القاهرة.

أما عن الملك الكامل، فكان قد نقل معسكره من فارسكور إلى المنطقة المقابلة لطلخا وأقام معسكره هناك وأطلق عليها أسم (المنصورة). وقد جاءت إليه الامدادات العسكرية من كل مكان كما وصل إليه أخويه المعظم والأشرف، وهكذا اجتمع الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم والاشرف في المعسكر في المنصورة لوضع الخطط لمواجهة الصليبيين. وقد عرض الكامل على الصليبيين للمرة الأخيرة الصلح على الشروط التي سبق أن عرضها عليهم، ولكنهم أبوا وتكبروا وأصروا على تسليم الكرك والشوبك مع دفع غرامة قدرها خمسمائة ألف دينار ليعمروا بها ما خربه المسلمون من بلادهم. وقد تقدم الفرنج على الشاطئ الشرقي للنيل وبجوارهم سفنهم تسير في النيل، وكان وقت تقدمهم في أوائل اغسطس ١٢٢١، والمعروف أن ذلك هو الوقت الذي يكون فيه فيضان النيل في أعلى مستوى له وذلك يدل على جهل تام من جانب الصليبيين بطبيعة أرض مصر وأمر نيلها.

وقد أرسل الكامل بعض السفن عن طريق فرع رشيد ودخلت إلى فـرع دمياط عن طريق البحر واصبحت خلف سـفن الصليبيين وبذلـك حـالت بينهـم وبين الاتصال بقاعدتهم فى دمياط عـن طريـق النيـل. كمـا أنـزل الكـامل عنـد شارمسـاح (شمال شربين) ألفـى فـارس مـع الآف مـن العربـان ليحولـوا بيـن الصليبيين وبين اتصالهم بدمياط عن طريق البر.

وعندما وصل الصليبيون إلـى المنطقـة المعروفـة باسـم رأس الجزيـرة وهى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر اشموم) من فرع دمياط وهى عبارة عن مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات فرع دميـاط مـن جهـة والبحـر الصغيـر من جهة وبحيرة المنزلة من جهة ثالثة. عنـد وصولهـم إلـى هـذا المكـان أمـر الكـامل بقطـع السدود وفتـح الترع عليهم مـن جميـع الجهـات، فلـم يـدرى الصليبيون إلا والمياه تحيط بهم من كل جانب وقد غرقوا فى الطين حتـى بلـغ ركبهم. ولم يعد امامهم إلا شريط ضيق جداً يستطيعون العودة عن طريقه إلى دمياط. ولكن الكامل كان قد أنزل به الاعراب والفرسان كما سبقت الاشـارة، ليحول بينهم وبين العودة إلى دمياط.

وهكـذا اصبـح الموقـف عسـير جـداً علـى الصليبيين، بعـد أن اصبحـوا محصوريـن فـى هـذه المنطقـة فـلا هـم يستطيعون التقدم خطـوة واحـدة نحـو القاهرة، ولا هم يستطيعون العودة إلى دمياط، ولا هم بامكانهم القتال فـى هـذا المكان الموحل، ولا شك أن ذلك كله يرجع إلى الخطة التى وضعها الايوبيون وعلى رأسهم الملك الكامل واستغلالهم لفيضان النيل ودرايتهـم التامـة بطبيعـة أرض مصـر واختيـارهم المكـان المناسـب لحصـر الصليبيين وفتـح السـدود والقنوات عليهم واغراقهـم فـى الميـاه علـى هـذا النحـو، وبذلـك أثبتـوا تفوقهـم الفكرى والعسكرى على الصليبيين الغربيين.

وقد أدرك الصليبيون أنهم هالكون لا محالة، وفى محاولة لانقاذ أنفسهم أرسلوا على وجه السرعة إلى الملك الكامل الايوبى يعرضون عليه الصلح واستعدادهم للجلاء عن دمياط وتسليمها له والخروج كلية من مصر، وبدون أي مقابل سوى انقاذهم من هذا الموقف الذى اصبحوا فيه.

وقد أراد المعظم والاشرف ان يستغلا هذه الورطة التى وقع فيها الصليبيون للقضاء عليهم، ولكن الكامل رفض ذلك وقبل العرض الذى عرضه عليه الصليبيون. واشترط الكامل على الصليبيين ان يرسلوا اليه رهائن من ملوكهم وأكبر الشخصيات لديهم، فوافقوا وارسلوا إليه الملك حنا دى برين شخصياً والمندوب البابوى بلاجيوس. ومجموعة من كبار امرائهم بلغوا العشرين. وقد أكرمهم الكامل كعادة المسلمين دائماً وبقوا لديه حتى تم تسليم الصليبيين لدمياط فى ٧ سبتمبر ١٢٢١. وقد دخلها الملك الكامل فى اليوم التالى مباشرة، وابرم اتفاقية مع الصليبيين مدتها ثمان سنوات ١٢٢١ – ١٢٢٩ نصت على اطلاق كل فريق ما عنده من الاسرى. وقد ابحر الصليبيون الغربيون إلى اوروبا أما الملك حنا دى برين فقد عاد هو ورجاله إلى الشام يجرون أذيال الخيبة والفشل، وقد شبههم أحد المؤرخين المسلمين بالنعامة التى خرجت تبغى أن تطيل ذيلها، فعادت بلا ذيل على الاطلاق.

وهكذا تم للايوبيين القضاء على الحملة الصليبية الخامسة نتيجة لتعاونهم وخطتهم المحكمة، فى حين أضاع الصليبيون جهودهم كلها والانتصارات المبدئية الى احرزوها نتيجة لخلافاتهم المستمرة وعلى وجه الخصوص الخلاف بين بلاجيوس مندوب البابا والملك حنا دى برين. ومن أسباب الهزيمة كذلك جهل الصليبيين التام بطبيعة البلاد المصرية وميعاد فيضان النيل وهذا ما سيحاول تداركه لويس التاسع فى حملته الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية السابعة، ولكن ورغم ذلك ستفشل هى الاخرى لاسباب يتم شرحها فيما بعد وعند تناولنا لهذه الحملة.

الفصل الثامن

بيت المقدس
بين السلطان الكامل
والإمبراطور فريدريك الثانى

لقد كان الارتباط الذى تم بين ابناء الملك العادل عقب وفاته أحد الاسباب الهامة فى القضاء على الحملة الصليبية الخامسة على مصر، على أن هذا الارتباط لم يلبث ان انفصمت عراه فى نهاية سنة ١٢٢٣ وبداية سنة ١٢٢٤، واشتعل الصراع بين الأخوة الثلاثة الكامل والمعظم عيسى والاشرف موسى.

ذلك أن المعظم عيسى قد طمع فى أملاك ابن عمه ويدعى الناصر صلاح الدين قليج ارسلان الذى كانت له حماه واعمالها، فهاجم المعظم حماه واستولى على بعض اعمالها مثل المعرة وسلمية.

على أن الملك الكامل وأخيه الأشرف موسى لم يوافقا اخيهما على تصرفاته تلك، وكان ذلك مما أثار الخلاف بين الاشقاء الثلاثة الكامل والاشرف من ناحية والمعظم عيسى من ناحية أخرى، خاصة بعد أن أرسل شقيقه الكامل يأمره برد ما استولى عليه من ابن عمهما، وقد نفذ المعظم رغبة أخيه الكامل وانصرف عن حماه وهو حانق ومتذمر.

على أن الظروف لم تلبث أن اضطرت الاشرف إلى ان يلجأ لأخيه المعظم عيسى طالباً منه المساعدة العسكرية من أجل مواجهة خطر الخوارزمية الذين أخذوا يهددون أراضيه فى الجزيرة وخلاط. ذلك أن ملك التتار جنكيز خان كان قد دمر دولة الاتراك الخوارزمية فى ١٢٢٠ - ١٢٢٢، وقد فر ملك الخوارزمية جلال الدين منكبرتى إلى الهند، وحين علم بعودة جنكيز خان إلى بلاده فى جوف آسيا، عاد جلال الدين منكبرتى إلى فارس وألتف حوله الاتراك الخوارزمية من جديد، ونجح فى أحياء دولته مرة أخرى واتخذ من أصفهان عاصمة له. وبدلاً من أن يعمل جلال الدين منكبرتى على توحيد جهود العالم الاسلامى والوقوف فى وجه التتار الوثنيين، أخذ فى مهاجمة والاعتداء على أراضى الخليفة العباسى وطارد جيوشه حتى

قرب بغداد سنة ١٢٢٥. ثم أخذ جلال الدين يهاجم أقليم جورجيا القريب من أملاك الاشرف موسى فى أعالى الجزيرة، مما دفع الاشرف إلى ان يلتمس المعونة العسكرية من جانب أخيه المعظم عيسى.

وقد انتهز المعظم عيسى هذه الفرصة وقبض على أخيه الأشرف موسى، واجبره على أن يقسم له أن يتعاونا معاً فى الاستيلاء على حماه وحمص، ثم مهاجمة شقيقهما الكامل فى مصر.

على أنه ما كاد الأشرف موسى يفلت من يد شقيقه المعظم عيسى حتى رجع عن جميع ما تعهد له به، متذرعاً بانه أكره على القسم، وقد أخبر الملك الكامل بكل ما حدث وأكد له أطماع أخيه المعظم عيسى فى ملكه بمصر.

على أن خطورة هذا الصراع كانت تكمن فى التجاء كل من الطرفين المتنازعين إلى الاستعانة بالقوى الخارجية، فلجأ المعظم عيسى إلى جلال الدين منكبرتى واتفق معه ضد شقيقيه الاشرف والكامل.

أما الملك الكامل فقد راسل الامبراطور الالمانى فردريك الثانى هوهنشتاوفن، وأرسل له مبعوثاً من طرفه هو الامير فخر الدين يوسف، وتعهد الكامل للامبراطور فردريك بأنه اذا بذل له المساعدة العسكرية ضد أخيه المعظم عيسى، فان الكامل سيعطيه بيت المقدس وجميع فتوحات صلاح الدين الايوبى بالساحل الشامى.

وقد استجاب السلطان جلال الدين منكبرتى لنداء المعظم عيسى وارسل له خلعه، لبسها وسار بها فى شوارع دمشق وقطع الخطبة لاخيه الكامل، ولم يسكت الكامل عن هذا فأخذ يستعد للخروج إلى الشام لتأديب شقيقه المعظم عيسى.

أما عن الامبراطور فردريك هوهنشتاوفن، فقد رحب هو الآخر برسول الكامل وتشجع فردريك على الخروج إلى الشام، ورد على سفارة الكامل اليـه، بسفارة مماثلة وارسل للكامل تحفاً وهدايا غريبـة، وقـد استقبل الكـامل رسـول الامـبراطور بالحفـاوة البالغـة وأكرمـه كرمـاً زائداً، وحملـه هدايـا نفيسـة إلـى الامبراطور فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم علـى حد تعبير المؤرخ المقريزى.

وهكذا هيأ هذا الخلاف والصراع الذى اشتعل بين الاخـوة ابنـاء العـادل الفرصـة للامـبراطور فردريـك الثـانى لتحقيـق رغبـة البابويـة والخـروج إلــى المشرق الاسـلامى فـى حملـة صليبيـة جديـدة هـى الحملـة التـى عرفـت باسـم الحملة الصليبية السادسة.

- الحملة الصليبية السادسة

لقد كانت هذه الحملة من أغرب الاحداث فى تـاريخ الحـروب الصليبيـة ذلك ان الامبراطور الالمانى فردريـك الثـانى هوهنشـتاوفن الـذى خـرج علـى رأس تلك الحملة قد تعرض لمواقف صعبة خلقتها له البابويـة، فـى محـاولات دائمـة ومستمرة مـن جانبهـا لحثـه علـى القيـام بهـذه الحملـة الصليبيـة ضـد المسلمين. وقـد استطاع الامـبراطور فردريـك الثـانى أن يسـترد مدينـة بيـت المقدس دون أن يريق دماء جندياً واحداً من جنوده، وكان استعادة تلك المدينـة هـى حلـم البابويـة منـذ أن استردها صـلاح الديـن عقب معركـة حطيـن فــى ١١٨٧، وكان استرداد هذه المدينة من يد المسلمين هو هدف الحملة الصليبيـة الثالثة التى خرج على رأسها أكبر ملوك فى الغرب الاوروبى، ورغم ما سـال من دماء المسيحيين والمسلمين خلال تلك الحملـة ورغـم مفاوضـات ريتشـارد قلب الاسد ملك انجلترا مع صلاح الدين من أجل الحصول على بيت المقدس،

إلا أن هذه الجهود كلها العسكرية والسلمية فشلت فى استعادة هذه المدينة من يد المسلمين. ورغم أن فردريك الثانى قد نجح فى استعادتها إلا أن جهوده هذه لم تقابل بالاستحسان أو الثناء لا من جانب البابا ولا من جانب المسيحيين عامة. ولنتناول الموضوع مستعرضين احداث الحملة الصليبية السادسة من البداية.

لقد كانت هذه الحملة الصليبية السادسة، فريدة من نوعها، فهى من دون الحملات الصليبية التى لم تباركها البابوية، بل صبت عليها لعنتها، وهى الوحيدة من بين الحملات الصليبية التى جرى توجيهها دون أن تقوم بأى عمل عدائى ضد المسلمين. والواقع أن ذلك كله يرجع إلى شخصية فردريك الثانى هوهنشتاوفن الذى كان شيئاً فريداً من نوعه، بل لقد اطلق عليه معاصروه اسم (اعجوبة الدنيا).

فقد ولد فردريك من أب ألمانى هو هنرى السادس ملك ألمانيا وأم نصف ايطالية ونشأ وتربى فى صقلية على مقربة من المؤثرات الاسلامية والبيزنطية، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات، وأجاد ست لغات من بينها اللغة العربية، ونظم الشعر، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم وهو إلى جانب ذلك جندى بارع وسياسى لبق إلى أقصى درجات اللباقة، مع الجرأة التى لا يخشى شيئا والبراعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ. وألف فردريك فى البيزرة (علم تربية الطيور الجوارح وتدريبها على الصيد والقنص) كتاباً يعتبر أصلاً من أصول العلوم التجريبية فى غرب أوروبا. واصطحب فى أسفاره مجموعة من الفيلة والهجائن وعجائب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان. ولم تكن التقاليد المسيحية التى التزمها الناس فى ذلك العصر مما يأبه له فردريك الثانى. وفى الوقت الذى كان للبابا فى الغرب الاوروبى المكانة الرفيعة السامية باعتباره خليفة القديس بطرس، نجد فردريك ينعته بالدجال،

تيزيني أن الامبراطور فردريك قد سأل أحد المسلمين عن الخليفة وما هية الخلافة، فأجابه بأن الخليفة ينحدر من نسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وانه ورث عنه حقوقه فى حكم المسلمين. وعندئذ رد عليه فردريك قائلا ان ذلك هو المنطق السليم، لا مثل البابا الدجال الذى لا تربطه صلة قربى بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق المطلق فى حكم المسيحيين.

وقد عرف عن فردريك الثانى حبه للمسلمين الذين نشأ بينهم فى صقلية، وقد دفع ذلك بعض الكتاب إلى اتهام فردريك بمحاباة الاسلام على حساب المسيحية، فى حين ذهب البعض الآخر مثل فولتير ومونتسكيو، إلى القول بان كراهية فردريك الثانى للبابوية والكنيسة الغربية هى التى دفعته إلى حب الاسلام والمسلمين.

وعلى الرغم من أن فردريك الثانى قد بدأ حياته السياسية بتحالفه مع البابوية وهو التحالف الذى أفاده إلى حد كبير ضد خصومه ومنافسيه فى ألمانيا، إلا أن الامور لم تلبث أن تعقدت بين الطرفين، بعد أن تأكدت البابوية ان فردريك غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه فى شمال ايطاليا، أى فى أقليم لمبارديا، وانه اتخذ ايطاليا وصقلية مسرحاً اساسياً لجهوده والتمكين لنفسه، حقيقة ان فردريك قد حرص آنذاك على احترام مركز البابوية فى ايطاليا، ولكن سيطرته على جنوب ايطاليا وشمالها كان نذيراً بوقوع الاملاك البابوية فى وسط ايطاليا بين فكى الكماشة، مما جعل البابا يرتاب فى سياسة فردريك وينظر إليها بعين ملؤها الشك والخوف.

وفى سنة ١٢١٥ اقسم فردريك للبابا اينوسنت الثالث ان يقوم بحملة صليبية ضد المسلمين، ولما كان فردريك الثانى يميل للمسلمين ويعطيهم حقهم من الاحترام والتقدير، لذلك لم يجد الدافع الذى يدفعه للخروج من بلاده على

رأس حملة صليبية ضدهم، ومن ثمة فقد أخذ يعتذر للبابا مرة بعد مرة، والبابا يقبل عذره، وبعدما أصاب الحملة الصليبية الخامسة من الفشل، حاول البابا هونوريوس الثالث ان يوجد الدافع لدى فردريك للخروج فى حملة صليبية ضد المسلمين، وان يزيد فى توطيد صلة فردريك بالاراضى المقدسة فى فلسطين، فرتب البابا زواج فردريك من يولاند ابنة حنا دى برين، ووريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، واشترط البابا أن يتم الزواج فى الشام، وقد نفذ فردريك رغبة البابا وتم زواجه من يولاند، ولكن بدلاً من أن يذهب فردريك إلى الشام ويتم الزواج هناك، استدعى عروسه إلى صقلية. وعقب هذا الزواج اتخذ فردريك لقب ملك بيت المقدس باعتباره من حقوق زوجته.

وعلى الرغم من أن البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعناً فى السن، الا انه امتاز بإرادة حديدية لا تفل فلم يقبل الاعذار التى دأب فردريك الثانى على ابتكارها من أجل تأجيل حملته الصليبية، واصر على ضرورة رحيل الامبراطور إلى الشرق فوراً، وإلا تعرض لعقوبة الحرمان. ولم يجد الامبراطور فردريك الثانى مفراً من الخروج فى خريف سنة ١٢٢٧ قاصداً بلاد الشام، خصوصاً بعد ان اتصل به الملك الكامل الايوبى وارسل له سفارة على النحو الذى سبق توضيحه، ووعده بتسليمه مدينة بيت المقدس مقابل بذل المساعدة العسكرية له ضد شقيقه المعظم عيسى. وبذلك أوجد للامبراطور الدافع الذى يخرج من أجل تحقيقه وفى نفس الوقت لا يتعارض مع ما يشعر به من محبة وود نحو المسلمين فهو لا يخرج عدوا لهم، وانما كصديق وحليف للسلطان الملك الكامل الايوبى.

على أن الامبراطور ما كاد يبحر من برنديزى، حتى خر مريضاً، نتيجة الحمى التى تفشت فترة من الزمن فى صفوف جيشه أثناء انتظارهم عبور البحر إلى بلاد الشام. وكان من نتيجة ذلك أن عاد فردريك إلى اوترانتو حتى يستعيد صحته. لكن البابا جريجورى التاسع اعتقد ان فردريك

عاد من جديد إلى التسويف والتأجيل، واعتبر مرضه تمارضاً واصدر ضده قرار الحرمان بالفعل.

ورغم ذلك فان فردريك قد خرج على رأس حملته الصليبية فى صيف عام ١٢٢٨، فعرض بذلك على اوروبا التى استبدت بها الدهشة، صورة محارب قطعته الكنيسة، خلف وراءه املاكه التى تعرضت لغزو جند البابا الذين أعلن البابا جريجورى التاسع اعتبارهم محاربين صليبيين يقاتلون ملكاً غير مسيحى، ومن أجل ذلك جبى ضريبة العشر من سائر كنائس أوروبا. والواقع أن ما اشتهرت به حملة فردريك من التناقض كان موضع الدهشة، اذ أننا ازاء محارب صليبى، تقرر اعلان الحرب الصليبية على املاكه. ومهما يكن فحين وصول الامبراطور فردريك الثانى إلى عكا فى سبتمبر ١٢٢٨، كان الموقف بين أفراد البيت الايوبى قد تغير. ذلك أن المعظم عيسى كان قد توفى فى نوفمبر١٢٢٧، وخلفه ابنه الناصر داود، وهو شاب صغير السن فى العشرين من عمره ليست له خبرة ولا قوة ولم يلبث ان اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة، وبذلك زال الخطر عن الملك الكامل ولم يعد فى حاجة إلى مساعدة الامبراطور فردريك الثانى، بعد ان اقتسم الكامل والاشرف موسى املاك شقيقهما المعظم عيسى، وقد احتل الكامل بيت المقدس ونابلس فى صيف عام ١٢٥٨.

وهكذا اصبح الموقف حرجاً، لأن الملك الكامل هو الذى استدعى الامبراطور فردريك إلى الشام لمساعدته، حقيقة ان هناك عوامل خاصة بالغرب الاوروبى والبابوية التى دأبت على حث فردريك على الخروج فى حملة صليبية ضد المسلمين، ولكن لا نستطيع اغفال استدعاء الكامل للامبراطور ووعده بتسليم بيت المقدس له وهو ما شجع الامبراطور على الخروج إلى الشرق على رأس خمسمائة فارس فقط معتمداً على وعد الكامل بتسليمه بيت المقدس سلمياً. لذلك فقد شعر الملك الكامل بالحرج ويصور

المقريزى الموقف أصدق تصوير حين يقول: "تحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لما كان تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله ولاطفه".

أما عن موقف الامبراطور فردريك الثانى فلم يقل حرجا عن موقف الكامل، لأنه خرج من بلاده وهو محروم من رحمة الكنيسة ومغضوبا عليه من البابوية، معتمداً على وعد الكامل له ولو كان فردريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لاستعد استعداداً طيباً واحضر معه جيشاً كبيراً يساعده على حماية مصالح الصليبيين بالاراضى الشامية، خاصة وانه لا يمكنه الاعتماد على تعاون الصليبيين بالشام معه لأن أى مسيحى مخلص يرفض التعاون مع شخص محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس.

ولو عاد فردريك إلى الغرب الاوروبى دون أن يحصل على بيت المقدس، ازدادت الامور سوءاً بالنسبة له، وسيكون ذلك سلاحاً جديداً فى يد البابوية تحاربه وتشنع عليه. فالموضوع بالنسبة لفردريك كان موضوع مستقبل عرشه فى الغرب ومصير المعركة بينه وبين البابا، وليس موضوع استرداد بيت المقدس من يد المسلمين فى حد ذاته. والدليل على ذلك ما قاله فردريك للملك الكامل من أنه " ماله غرض فى القدس ولا غيره، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج" وكان البابا يدرك كل ذلك جيداً، لذلك فقد أخذ يراسل الملك الكامل ويحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك، لأنه لو قدر له استرداد بيت المقدس فان ذلك سيكون انتصاراً له على البابوية وسيعتبره المعاصرون حكم الله العادل لصالح الامبراطور فردريك. ومن ذلك يتضح تناقض موقف البابوية التى ملأت العالم الغربى صراخا وعويلاً على ضياع بيت المقدس ودعت للحملة تلو الحملة لاسترجاعها من يد المسلمين، وها هى ذى الآن تحث الملك الكامل وتحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك وهذا يوضح ان البابوية لم يكن يهمها استرجاع المسيحيين لبيت المقدس بقدر ما يهمها مصالحها الخاصة

فى حربها ضد الامبراطور فردريك ورغبتها فى عدم احرازه لأى نصر يعزز موقفه أمام العالم الغربى المسيحى.

على أية حال، فبمجرد وصول الامبراطور فردريك إلى عكا ارسل سفارة إلى الملك الكامل الايوبى تحمل له الهدايا النفيسة من المنسوجات الحريرية والاوانى الذهبية والفضية وتلتمس منه تحقيق وعده وتسليم الامبراطور بيت المقدس.

لكن الملك الكامل اعتذر عن عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور مما دفع الامبراطور لفتح باب المفاوضات بعد أن علم أن البابا اصدر ضده قرار الحرمان للمرة الثانية وانه أباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته، كما أخذ البابا فى نشر الاشاعات ضد الامبراطور وكان آخرها أن الامبراطور قد مات وادعى البابا لنفسه حق الوصاية على الامبراطورية.

وقد آثرت هذه الأخبار تأثيراً سيئاً على نفسية الامبراطور، وقد دفعه كل ذلك إلى ارسال رسالة للملك الكامل أوضح فيها موقفه توضيحاً تاماً فقال: "أنا مملوكك وعتيقك، وليس لى عما تأمره خروج وأنت تعلم انى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فان رجعت خايباً انكسرت حرمتى بينهم .. وهذا القدس فهى أهل اعتقادهم وضجرهم والمسلمون قد اخربوها فليس لها دخل طائل، فأن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر" وقد تأثر الملك الكامل تأثراً بالغاً بنغمة الاستعطاف هذه التى سار عليها الامبراطور، بالاضافة إلى ما سبق توضيحه من انه خشى ان رفض تسليم القدس واتفق الامبراطور مع الصليبيين بالشام ضد الكامل فان موقفه سيكون سيئاً للغاية. أضف لذلك ان الملك الكامل بطبيعته كان متسامحاً اكثر من اللازم ولعل ذلك يبدو واضحاً فى عرضه على الصليبيين - أثناء الحملة الصليبية الخامسة على

مصر أكثر من مرة تسليمهم بيت المقدس ـ وكذلك ارساله السفارة إلى الامبراطور فردريك فى الغرب الاوروبى ووعده بتسليمه بيت القدس، وهذا يدل على تسامح بل واستهتار من جانب الكامل فى حق هذه المدينة المقدسة التى عانى عمه صلاح الدين أشد المعاناة وأقصاها حتى تم له استردادها من يد الصليبيين. على أية حال انتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد اتفاقية يافا فى ١٨ فبراير ١٢٢٩، التى نصت على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا. واشترط أن تظل بيت المقدس على ما هى عليه من الخراب ولا يجدد سورها وان يكون للمسلمين سائر قرى القدس، وكذلك يكون للمسلمين المسجد الاقصى يقيمون فيه شعائر الاسلام من الآذان والصلاة ولا يدخله الصليبيون إلا للزيارة فقط. كذلك نص على أن تكون مدة الهدنة بين الطرفين عشر سنين. وقد كان لهذه الاتفاقية صدى عميق عند كلا الطرفين المسلمين والصليبيين، أما بالنسبة للمسلمين فقد آلمهم كثيراً ان يفرط الملك الكامل بهذه السهولة فى تلك المدينة المقدسة ويصور المؤرخ المقريزى صدى ذلك عند المسلمين بقوله: "فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الائمة والمؤذنون من القدس، إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير وقت الآذان.. فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء، واشتد الانكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار".

والغريب أن الصليبيين أيضاً لم يعجبهم استرداد الامبراطور فردريك الثانى لمدينة بيت المقدس وأخذوا يعبرون عن غضبهم بشتى الصور، فقال البعض منهم ان كرامة المسيحية كانت تحتم ان تؤخذ بيت المقدس بحد السيف وليس بطريق الاستجداء والبكاء كما فعل فردريك الثانى. أما البعض الآخر فأخذ يوضح ان لا أهمية لبيت المقدس بدون حصنى الكرك والشوبك وهذا ما جعل الصليبيين يرفضون عرض الملك الكامل عليهم بتسليمهم القدس أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر. أما البعض الثالث فقال بانه لا قيمة لأى كسب أو انتصار يحققه امبراطور محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس

بطرس. وقد أوقع بطريرك مملكة بيت المقدس قرار الحرمان على مدينة بيت المقدس نفسها وعلى كل من فيها من المسيحيين اذا استقبلوا الامبراطور فردريك الثانى فى مدينتهم.

وقد سارع الامبراطور فردريك بالتوجه إلى بيت المقدس عقب ابرام اتفاقية يافا، ودخلها يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩ وتسلمها من يد القاضى شمس الدين قاضى نابلس الذى خصصه الكامل لخدمة الامبراطور. وقد دخل فردريك كنيسة القيامة وتوج نفسه بيده، وقد فسر المؤرخون تصرفه هذا عدة تفسيرات، فمن قائل انه فعل ذلك بعد أن رفض رجال الدين تتويج امبراطور محروم من الكنيسة، وقال البعض بانه فعل ذلك عن قصد حتى يثبت للبابا ولرجال الدين انه تسلم التاج فى هذا المكان البالغ الاهمية وهو كنيسة القيامة، من الله مباشرة دون حاجة لرجال الدين أو للبابا، وهو الذى ملأ الدنيا صياحاً بأن التاج الامبراطورى ما هو إلا منحة من البابا للامبراطور، أو اقطاع يمنحه للامبراطور، وعلى الامبراطور أن يكون فصلاً تابعاً للبابا يؤدى له ما للفصل من واجبات نحو سيده.

وقد قام الامبراطور وهو فى بيت المقدس بزيارة المسجد الاقصى وكان الملك الكامل قد منع اقامة الآذان به طيلة وجود الامبراطور بالمدينة اعظاماً واحتراما له، ولكن فردريك غضب لذلك التصرف من جانب الكامل واوضح بأنه كان يود أن يسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل. وقد دعى ذلك بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بان فردريك كان مسلماً ويتلاعب بالنصرانية على حد تعبير المؤرخ العينى.

وأثناء وجود الامبراطور داخل بيت المقدس وصلها بطرس اسقف قيسارية ليوقع قرار الحرمان على المدينة، وقد استاء الامبراطور لذلك واعتبرها اهانة كبيرة لحقت بشخصه، وغادر القدس إلى يافا، ثم إلى عكا

فوصلها يوم ٢٣ مارس ١٢٢٩، وقد غادرها فى أول مايو ١٢٢٩ بحرا الى قبرص حيث قضى بها عدة أيام ثم تركها إلى ايطاليا فوصلها يوم ١٠ يونيو ١٢٢٩.

وهكذا انتهت هذه الحملة التى اتسمت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها. ويعقب المؤرخ أرنست باركر على هذه الحملة بقوله:

"لم تتخذ الحملة السادسة صفة الحرب المقدسة، انما الذى حدث فعلاً، هو نوع من المساومة الحقيرة، مثلما يجرى عادة فى أى سوق من أسواق الشرق، بين ملك صقلية المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق، وبين سلطان مصر. والواقع ان فردريك انما تصرف بروح ملك صقلية لا بروح ملك بيت المقدس، وهذا ما كان لابد أن يقوم به. فمن اسلافه الصقليين، الذين عقدوا معاهدات تجارية مع مصر، تعلم فردريك ان يجعل من الحرب، وان كانت صليبية، مسألة معاهدة، فعلى الرغم من ان الفرع النورمانى الذى انحدر منه ملوك صقلية كاد يختفى، فان سياسته بقيت من بعدهم، عند من خلفهم من ملوك أسرة هوهنشتاوفن، تلك السياسة التى اسهمت فى تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية هدف النورمان من قديم الزمن، والتى امعنت فى أن تجعل للحملة السادسة مظهرها الدنيوى والدبلوماسى، المجرد من الدين".

أما المؤرخ فيشر فانه يختلف فى نظرته للحملة الصليبية السادسة عن نظرة باركر، حين يقول:

"عقد فردريك البعيد النظر مع صديقه السلطان الكامل ابن العادل الايوبى معاهدة تبيح للحجاج المسيحيين زيارة الاماكن المقدسة مدة عشر سنوات، وذلك دون ان يضيع وقتاً، أو ينفق مالاً او يهدر دماً. تلك هى ثمار المهارة السياسية، حين تحل الانسانية والادراك السليم محل الحقد الاعمى الذى ينجم عن التعصب الدينى والكراهية بين اجناس البشر".

ومهما كان حكم المؤرخين على الحملة الصليبية السادسة وما حققته من استعادة بيت المقدس دون اراقة دماء. فالذى لا شك فيه ان الملك الكامل الايوبى قد فرط تفريطاً كبيراً بالتنازل عن بيت المقدس هكذا وببساطة. وكان الواجب يقتضى منه أن يحارب الصليبيين ويدافع دفاع المستميت عن هذه المدينة المقدسة، وكان من الخير له وللمسلمين ان تقع بيت المقدس فى يد الصليبيين بعد حرب وقتال، لا أن يسلمها لهم دون اراقة دماء. لذلك فقد استحق الملك الكامل غضب المسلمين وثورتهم عليه، أو كما قال المؤرخون المسلمون : "قامت القيامة فى جميع بلاد الاسلام، واشتدت العظايم، بحيث ان اقيمت المآتم". وقد كان من نتيجة ذلك ان ادرك الكامل مدى الورطة التى وقع فيها وندم على تسليم بيت المقدس ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان.

الفصل التاسع

مصـــــــر

والحملة الصليبية السابعة

رأينا كيف تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس إلى الامبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن وصدى ذلك عند كل من المسلمين والصليبيين، على أن هذه المدينة لم تلبث أن خرجت من يد الصليبيين وإلى الأبد هذه المرة.

وتتلخص ظروف ذلك فى أنه بعد وفاة الكامل فى أوائل مارس ١٢٣٨، خلفه ابنه العادل الثانى، الذى صارت له السلطنة والسلطة العليا فى الدولة الأيوبية، على أن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، استولى على دمشق سنة ١٢٣٩، مما أوقعه فى نزاع مع شقيقه العادل، وقد استعان كل من الشقيقين بأنصار من أبناء البيت الايوبى نفسه، فضلاً عن استعانتهما بجموع الخوارزمية الذين تفرقوا فى بلاد الشام وآسيا الصغرى بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى.

على أن كبار الامراء بالدولة الايوبية بمصر قد استاءوا من الملك العادل الثانى لانشغاله باللهو عن تدبير مصالح الدولة فقبضوا عليه فى نهاية مايو ١٢٤٠ وعزلوه واستدعوا شقيقة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فدخل القاهرة فى ١٩ يونيو ١٢٤٠واصبح سلطان مصر (١٢٤٠ - ١٢٤٩). على أن الخلاف الذى كان بين الصالح نجم الدين وبين عمه الصالح اسماعيل، الذى سبق له طرد نجم الدين أيوب من دمشق واستولى عليها، لم يلبث هذا النزاع ان أشتد وتطور بصورة خطيرة بعد أن استعان الصالح اسماعيل بالصليبيين واتفق معهم على غزو مصر، ولم يجد الصالح نجم الدين ايوب عندئذ بدأ من الاستعانة بالخوارزمية، الذين لم تكد تصلهم دعوته حتى اندفع عشرة الآف منهم فى فرحة كبرى نحو بلاد الشام فأغاروا على المدن والقلاع الصليبية حتى وصلوا إلى بيت المقدس، التى كانت بدون ملك أو قائد يحميها ويدافع عنها، فاستنجد الصليبيون الموجودون بها بأمير انطاكيةوملك ملك

قبرص وحلفائهم من الحكام المسلمين أمثال ملكا دمشق وحمص، ولكن أحدا منهم لم ينجدهم لانشغالهم بمشاكلهم الخاصة.

وهكذا اندفع الخوارزمية واقتحموا بيت المقدس فى ١١ يوليو ١٢٤٤ واستولوا عليها فى سهولة، وقد اعملوا السلب والنهب والتدمير فى المدينة وخاصة ضد اهاليها من الصليبيين، وعلى هذا النحو عادت بيت المقدس إلى قبضة المسلمين ولم يقدر لجيش مسيحى ان يقترب منها بعد ذلك حتى الحرب العالمية الاولى.

وبعد ان قام الخوارزمية بعمليات نهب واسعة النطاق فى بيت المقدس وضواحيها، اتجهوا صوب غزة للاجتماع بالجيش الذى أرسله السلطان نجم الدين أيوب فى اكتوبر ١٢٤٤ وكان هذا الجيش بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس وفى ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامى - الصليبى قد اتجهت هى الاخرى إلى غزة فى طريقها إلى مصر للاستيلاء عليها واخراج الصالح نجم الدين أيوب منها، وقد التقى الطرفان الجيش المصرى والخوارزمية من جهة وجيش الصليبيين وجيوش حمص ودمشق والاردن من جهة أخرى. وفى ١٧ اكتوبر ١٢٤٤ اشتعل القتال بين الطرفين فى موقعة غزة، وفيها حلت الهزيمة الساحقة بجيوش الصليبيين وحلفائهم حتى قدر عدد قتلاهم بأكثر من ثلاثين ألفا، غير الأسرى الذين سيقوا إلى مصر وكان عددهم يقارب الألف.

وقد كانت هذه المعركة أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين ١١٨٧، حتى اطلق المؤرخون المسلمون على معركة غزة هذه اسم (حطين الثانية).

وقد أدت كل هذه الظروف التى احاطت بالصليبيين فى الشام وفلسطين وما ترتب عليها من ضياع بيت المقدس من جهة والكارثة التى حاقت بهم فى معركة غزة من جهة أخرى إلى قلق الغرب الاوروبى وخوفه من ضياع

البقية الباقية من الممتلكات الصليبية فى الشام وبالتالى التفكير فى ارسال حملة صليبية كبيرة لتثأر مما نزل بالصليبيين وتستعيد بيت المقدس لقبضتهم مرة أخرى. وكان أكثر الذين تأثروا بأوضاع الصليبيين فى الشام ملك فرنسا لويس التاسع الذى عرف باسم القديس لويس.

وكان عرش فرنسا قد آل إليه فى ٢٩ نوفمبر ١٢٢٦ بعد وفاة والده لويس الثامن، وكانت والدته هى الملكة بلانش ابنة الفونس التاسع ملك قشتالة، التى عرفت بالتقوى والتفانى فى خدمة الكنيسة المسيحية، والتى عنيت بتنشئة ابنها نشأة دينية صارمة.

وقد دعا الملك لويس التاسع إلى حملة صليبية ضد مصر[١] من أجل الاستيلاء عليها ثم عن طريقها يمكنه استخلاص بيت المقدس. وكانت دعوته تلك أثر مرض خطير ألم به فى أواخر عام ١٢٤٤، أشرف فيه على الموت كما يذكر مؤرخ حياة القديس لويس وهو جوانفيل، ويستطرد جوانفيل قائلاً ان احدى السيدات اللائى كن يمرضنه ظنت ذات مرة انه قد قضى عليه فارادت تغطية وجهه بغطاء، فعارضتها سيدة أخرى كانت تقوم على الجانب الآخر من الفراش، لم تحتمل رؤية هذا المنظر فقالت انه لايزال حياً.

وبينما هاتان السيدتان فى جدلهما حول فراشه، اسبغ عليه الله عز وجل الصحة وانطقه بعد سكوت، وبث فيه القدرة على الكلام، فطلب اليهما أن تأتياه بالصليب ففعلتا ما طلب.

---

[١] هذه الحملة هى المعروفة بالحملة الصليبية السابعة، ومن أحسن الكتب التى تناولتها كتاب الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف، وهو دراسة قيمة مفيدة قائمة على اساس الدراسة التحليلية المتعمقة المتميزة بالاصالة العلمية، انظر جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى على مصر، هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور، الطبعة الاولى، ١٩٦٩.

وقد تعهد لويس منذ ذلك الحين ان يحمل الصليب ويذهب إلى الاراضى المقدسة ويستعيد بيت المقدس ليد الصليبيين من جديد، ايماناً منه ان الله منّ عليه بالشفاء من مرضه لكى يقوم بهذه المهمة التى كرس حياته من أجلها.

اذن فهذه الحملة الجديدة كان ملك فرنسا هو أول من دعا إليها ولم يلبث الباب اينوسنت الرابع ان دعا مضطراً لهذه الحملة بعد أن ارسل بطريرك بيت المقدس إلى الغرب الاوروبى سفاره على رأسها واليران اسقف بيروت، وقد عقد البابا اينوسنت الرابع مجمع دينى فى مدينة ليون فى الفترة من ٢٨ يونيو وحتى ١٧ يوليو ١٢٤٥. وبعد ان اتخذت قرارات هامة فى هذا المجمع سمح لواليران بالتحدث فأخذ يفيض فى وصف الحالة السيئة التى اضحى فيها الصليبيون بالشام وكيف فقدوا بيت المقدس، وكيف سقطت زهرة فرسانهم فى معركة غزة، كما أفاض أيضاً فى وصف الفظائع التى ارتكبها ضدهم الخوارزمية. وقد تأثر الحاضرون أيما تأثر، ولم يجد البابا اينوسنت الرابع بداً من الاشتراك فى الدعوة للحرب الصليبية وبذل الامتيازات الروحية للمشتركين فيها، وهو ما جرت عليه عادة البابوات فوعد كل من يشترك فى هذه الحملة الجديدة بالغفران التام عن خطاياه وذنوبه بمجرد اتخاذه شارة الصليب ومن الاهمية بمكان ان نشير هنا إلى ان البابا اينوسنت الرابع قد اضطر للدعوة لهذه الحملة على عكس البابوات الذين سبقوه ونادوا بالحروب الصليبية ضد المسلمين، أما هذا البابا فقد كان الخلاف بينه وبين الامبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن مشتعلاً على أشده فى الغرب الاوروبى وذلك فى حلقة من حلقات الصراع المرير الذى قام بين البابوات من ناحية والاباطرة الالمان من ناحية أخرى حول المبدأ الذى ينادى بسمو البابوية وسيادتها على الاباطرة والملوك وكافة الحكام العلمانيين والذى استمر لمدة قرنين من الزمان. وكان البابا اينوسنت لا يهمه ارسال حملة صليبية ضد المسلمين ولا استرداد بيت المقدس بقدر ما يهمه انتصاره على الامبراطور فردريك الثانى، وقد عقد البابا مجمع ليون من أجل توقيع قرار الحرمان على الامبراطور

فردريك الثانى أولا وقبل كل شئ. وقد حاول مندوب الامبراطور فردريك الثانى فى مجمع ليون ان يوفق بين البابا والامبراطور ووعد البابا ان الامبراطور سوف يساهم بجهوده فى توحيد الكنيستين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وهو الحلم الذى ظل يراود البابوية، وكذلك استعداد الامبراطور لمحاربة الخوارزمية والمسلمين واعادة الاستقرار والأمن إلى ربوع الممتلكات الصليبية فى الاراضى المقدسة، ولكن البابا رفض ذلك كله. وقد توسط القديس لويس ملك فرنسا بين الطرفين أكثر من مرة والتمس من البابا رفع قرار الحرمان عن الامبراطور فردريك، ولكن جهوده باءت بالفشل ورفض البابا رفضاً باتاً التماس لويس.

ولذلك كله فان البابا اينوسنت الرابع لم يترك وسيلة إلا واستخدمها من أجل احباط مشروع الحملة الصليبية أو على الأقل العمل على تعطيلها وتأخير قيامها حتى يتسنى لـه استخدام القوات الصليبية ضد عدوه اللدود فردريك الثانى الذى كرس البابا جهوده كلها من أجل القضاء عليه ولم يترك سلاحا دينياً كان أم دنيوياً إلا واستعمله لخدمة هدفه هذا.

وهكذا يمكن القول بأن البابا اينوسنت الرابع اضطر للدعوة للحملة الصليبية الجديدة حتى لا يثير ضده شعور المسيحيين فى الغرب الأوروبى بعد أن أوضح واليران مدى حاجة الصليبيين فى الأراضى المقدسة إلى نجدة عاجلة. وإن كان البابا فى قراره نفسه لا يريد قيام هذه الحملة.

وقد أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يحث البابا اينوسنت على ارسال مندوبين عنه للتبشير بالحملة فى ربوع اوروبا، فأرسل البابا مندوبا عنه يدعى ادون دى شارتر للتبشير بالحملة فى فرنسا، كذلك انتشر بعض الدعاة للحملة فى مختلف انحاء اوروبا داعين لها. وقد كانت الاستجابة فى فرنسا أكثر من أى بلد أوربى آخر. خاصة وأن ملكها لويس أخذ يدعو بنفسه لهذه الحملة،

وكان أول من أدرج اسمه فى سجل الحرب الصليبية الجديدة. وحذا حذوه أشقائه الثلاثة وهم روبرت كونت أرتوا والفونس كونت بواتييه، وشارل كونت أنجو وكذلك اشترك فى هذه الحملة جون لورد جوانفيل الذى أرخ لهذه الحملة وكان أحد فرسانها.

ويقال أن الملك لويس قد لجأ إلى حيلة طريفة من أجل أن يكسب فى هذه الحملة أكبر عدد ممكن من نبلاء وبارونات مملكته. فقد كان من عادة لويس أن يقدم الهدايا إلى كبار رجال دولته فى عيد الميلاد من كل عام. وفى ليلة عيد الميلاد لسنة ١٢٤٥ دعاهم كعادته فى كل عام واهدى كلا منهم وشاحا كان قد أمر أن يحاك عليه علامة الصليب، وحين ارتدوا هذه الاوشحة شاهد كل منهم علامة الصليب على كتف زميله، فغمرهم السرور ولم يجدوا بدا من تنفيذ رغبة مليكهم وانخرطوا جميعا فى سلك الحملة الصليبية الجديدة.

وقد اخذ لويس فى توفير احتياجات الحملة من السفن البحرية، ولما كان لا يملك شيئا منها فقد استعان فى ذلك بسفن جنوا ومرسيليا التى تم استئجارها منها، اما البندقية فقد رفضت ان تمده بأية سفن نظرا لعلاقاتها الطيبة بمصر. كذلك ارسل لويس قبل خروجه على رأس الحملة بحوالى عامين جماعة من رجاله إلى قبرص لشراء واعداد ما يحتاجه جيشه من المؤن والنبيذ وغيرها مما يحتاجون إليه، وكانت قبرص قد اتخذت كنقطة تجمع للصليبيين المتوجهين إلى مصر.

أما عن توفير المال اللازم للانفاق على الحملة فقد تم جمعه من الضرائب التى فرضت على الاكليركيين والعلمانيين الذين لم يشتركوا بشخصهم فى الحملة.

وبعد أن نظم لويس أمور الحملة من حيث النفقات اللازمة لها ومن حيث المؤن، قام بتنظيم شئون مملكته وأناب عنه والدته الملكة بلانش صاحبة قشتالة لتدير شئون المملكة أثناء فترة غيابه، كما اقسم له كبار رجال مملكته يمين الولاء ومراعاة حقوقه والاخلاص له ولابنائه الصغار وعدم القيام بمحاولات لاغتصاب ملكة اثناء تغيبه فى مهمته المقدسة فى الشرق.

وبعد ثلاث سنوات منذ الدعوة لهذه الحملة فى عام ١٢٤٥، وبعد ان تم اعداد كل شئ، غادر لويس باريس فى ١٢ يونيو ١٢٤٨ وكان بصحبته زوجته مرجريت وشقيقيه شارل وروبرت، أما شقيقة الثالث الفونس فقد ظل بفرنسا يقوم بجمع جموع أخرى ووعد باللحاق بالحملة فيما بعد على رأس هذه الجموع.

وقد مر لويس بمدينة ليون حيث كان البابا اينوسنت الرابع موجودا بها، فافضى اليه لويس باعترافه وحصل منه على صك الغفران التام من خطاياه، ولم ينس لويس ان يتوسل إلى البابا من أجل الصفح عن فردريك الثانى هوهنشتاوفن ولكن البابا رفض. ومن ليون اتخذ لويس طريقه إلى ميناء أجمورت فى جنوب فرنسا، ومنه ركب السفن ومن معه فى ٢٥ أغسطس ١٢٤٨ متخذين طريقهم إلى قبرص. وفى ١٧ سبتمبر ١٢٤٨ وصلوا إلى ميناء ليماسول فى قبرص حيث نزل الملك لويس ومن معه إلى أرض الجزيرة التى اتخذت نقطة تجمع للجيوش الصليبية المشتركة فى هذه الحملة كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

وكان الرجال الذين ارسلهم لويس إلى قبرص قبل وصوله إليها بعامين قد نجحوا فى تكديس المؤن التى سوف تحتاج إليها الحملة. ويصف جوانفيل ذلك فيقول "حين وصلنا قبرص الفينا الملك بها، ووجدنا كميات ضخمة من الذخيرة الرائعة، وأعنى بها ما نحتاجه من المئونة والطعام والمخازن، وكانت

حوانج الملك موضوعة وسط الحقول وعلى ساحل البحر، حيث كدس رجاله براميل كبيرة من الخمر دأبوا على شرائها مدة عامين قبل وصول الملك، وكانت البراميل تعلو الواحدة الأخرى، فاذا ما نظرت اليها من بعد خيّل اليك انها بيوت كبيرة. وكدسوا أكوام القمح والشعير وسط الحقول، فاذا نظرت إليها خيل اليك أنك ترى جبالا، ذلك لأن الامطار التى طال سقوطها عليها جعلتها تتفتح فتبدو جوانبها لمطالعيها كأنها الحشائش الخضراء، فلما عمدوا إلى أخذ ما يحتاجونه منها فى مصر، قطعوا الطبقة العليا المعشوشبه، ووجدوا الحنطة والشعير جديدين، كما لو كان قد جمعا منذ أمد قريب".

وكانت جزيرة قبرص تخضع وتتنذ لاسرة لوز جنان منذ ان باعها الملك ريتشارد ملك انجلترا إلى جاى لوز جنان، كما سبقت الاشارة إلى ذلك وفى ذلك الوقت كان حاكمها يدعى هنرى الأول، لوزجنان الذى تلقى لويس وحملته بالترحاب فى عاصمته نيقوسيا، وقد امضت الحملة فى قبرص مدة ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩) والواقع أن هذه الشهور الثمانية التى قضتها الحملة فى قبرص قد اساءت اليها اكثر مما أفادتها، ذلك ان الصليبيين قد استهلكوا معظم المؤن التى تم جمعها لتزويد الحملة اثناء هجومها على مصر، لذلك استدعى الأمر تدبير مؤن جديدة لامدادها بها، كذلك فان الصليبيين أخذوا فى انفاق الأموال التى كانوا قد تزودوا بها من أجل الانفاق على فرسانهم أثناء الحرب مع المسلمين، وقد أخذ الفرسان يهددونهم بالعودة إلى الغرب الأوروبى إذا لمْ يستمروا فى دفع رواتبهم، وكان أن اضطر الملك لويس إلى تزويد بعضهم بالمال اللازم للانفاق على فرسانهم. أضف إلى ذلك أن اخبار الحملة وصلت إلى سلطان مصر واعطت فترة الثمانية أشهر التى قضاها الصليبيون فى قبرص الفرصة له لمواجهة الحملة الصليبية وتحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمقاتلة والمؤن نظرا لتوقعه أن تكون دمياط هى المدينة التى سيبدأ الصليبيون بالهجوم عليها.

وكان يجلس على عرش مصر فى تلك الفترة الملك نجم الدين أيوب، الذى كان سياسياً محنكاً، وامتاز باشرافه الدقيق على جميع شئون الدولة والبت بنفسه فى جميع أمورها وقد تهيأ لمصر خلال حكمه الأمن والاستقرار الداخلى.

وساعد ذلك على ازدهار التجارة، التى امدت خزينة السلطان بمورد لا ينضب من المال، أنفق معظمه على البحرية والجيش وبناء الاستحكامات والقلاع مما كان له ابعد الاثر فى دفع عدوان الصليبيين عن ارض مصر.

ويوضح لنا بعض المؤرخين المسلمين أن أخبار حملة لويس التاسع كانت تصل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب عن طريق الامبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن، الذى ظل على علاقات الود والصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب كما كان من قبل مع والده الكامل. وكما يذكر المقريزى والعينى ارسل الامبراطور فردريك إلى الصالح نجم الدين برسول متنكر فى زى تاجر يخبره أن لويس التاسع عازم على السير بجحافله إلى ارض مصر لامتلاكها. وكان الصالح نجم الدين ايوب موجوداً بدمشق، فأسرع بالعودة إلى مصر، ونزل باشموم طناح فى ١٨ مايو ١٢٤٩. وأخذ فى العمل على تحصين مدينة دمياط لعلمه إنها كانت هدف الصليبيين فى حملتهم السابقة (الحملة الخامسة) وخوفه من أن يجرى عليها مثل ما جرى أيام والده الملك الكامل وقد زود دمياط بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب، كما عهد إلى طائفة من عرب بنى كنانة وهم قوم مشهورون بالشجاعة والاقدام، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد الصليبيين. وقد عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى الامير فخر الدين يوسف بن الشيخ وكان مقدم العساكر بالدفاع عن دمياط، فنزل الأمير فخر الدين بعساكره على البر الغربى لدمياط حتى يقابل الصليبيين عند وصولهم ويحول بينهم وبين النزول على ارض مصر.

وفى يوم السبت ٢٢ مايو ١٢٤٩ أبحر الملك لويس من ليماسول بقبرص ميمماً وجهه شطر مصر ويصف جوانفيل منظر إقلاع الملك وجيوشه التى بلغ عددها ٥٠,٠٠٠ جندى فيقول: "فكانت سفرته يوم السبت وبصحبته الجميع، وما كان أبدع منظر البحر وهو يبدو للعيان على امداد البصر، مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة".

على أن ريحاً عنيفة هبت من ناحية مصر شتتت السفن الصليبية ودفعتها دفعا نحو عكا وغيرها من البلاد القريبة من قبرص، وكان من نتيجة ذلك أنه لم يتبق مع الملك لويس من فرسانه البالغ عددهم الألفين والثمانمائة سوى سبعمائة فارس فقط.

وبعد سكون العاصفة تابعت الحملة رحلتها صوب مصر، ووصلت أمام الشاطئ الغربى لفرع دمياط يوم الخميس ٣ يونيو ١٢٤٩ وهو الشاطئ المعروف باسم جيزة دمياط. وقد ابصر الصليبيون أمامهم على الشاطئ كتائب السلطان. ويقول جوانفيل عنها انها "كتائب يستحب النظر اليها، فقد كانت اسلحتها من الذهب اذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى سامعيها".

وقد بادر الملك لويس بمجرد رسوهم امام شاطئ جيزة دمياط بارسال رسول إلى السلطان الصالح نجم الدين ايوب ليسلمه رسالة من الملك لويس يطلب فيها من السلطان الاستسلام ويستعرض فيها قوته من قبيل التخويف والارهاب وكانت رسالة لويس إلى السلطان كما يلى:

"بسم الله الفصيح صاحب الدين الصحيح عيسى بن مريم المسيح، أما بعد، فانه لم يخف عليك ولا على كل ذى عقل ثاقب انك امين هذه الملة

الحنيفية، وانا أمين هذه الملة النصرانية وليس يخفى عنك ما فتحنا من بلاد الاندلس، واخذنا النساء والعذارى وفرقناهم على ملة النصارى، وجعلنا رجالهم أسارى، ونساءهم عليهم حيارى وقد علمت ما نحن فيه من حق الرعية لما فتحنا بلاد المهدية وعتونا على ثغر الاسكندرية فلا تلجئ العالم إلى العسف ولا تسمهم بسيماء السخت، نقتل العباد، وندوس البلاد، ونطهر الأرض من الفساد فان قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ورميتهم فى أسر الوبال، ويكثر فيهم العويل ولا يرمم عزيز ولا ذليل، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية، ان تنقل إلى عندنا ما عندك من الرهبان، وتحلف لنا بعظائم الايمان، أن تكون لنا نائبا على مر الازمان. وتعجل لنا بما عندك من مراكب وطرائد وشوان ولا تكون فيك فترة ولا توان لتكون قلوبنا راضية عليك، ولا تسوق حتفك اليك، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت، وتعود تقول ياليت، وتضع الحرب اوزارها وتشعل نارها، ويتعالى شرارها ويقتم فنارها، وتأخذ منكم بنارها، فسيوفنا حداد، ورماحنا مداد وقلوبنا شداد، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد. فان كانت البلاد لك فهدية ألقيت بين يديك، وان كانت لنا فيدنا العليا عليك، إذا استحققنا امارة الملتين وحكم الشريعتين وبيد الله تعالى السعادة وهو الموفى للارادة".

فلما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب لم يأبه لتهديد لويس له ورد عليه برساله استخف فيها بتهديداته ونعته بالمغرور، وأخذ يستعرض ويشيد ببطولات المسلمين وقوة بأسهم، وكان رد السلطان علي رسالة لويس كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على القوم الظالمين، من عند الزائد عن حرم المسلمين، والقا كتاب رب العالمين المنزل

على خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الانصار والمهاجرين، صلاة دائمة إلى يوم الدين. أما بعد فقد وصل كتابك، وفهمنا لفظك وخطابك، وها أنا قد اتيتك بالخيل والرجال، والخزائن والأموال، والعساكر والاثقال، والقيود والاغلال، فان كانت لك فانت الساعى وقد آمنت الناعى، وان كانت عليك فانت الباغى لحتفك والجادى انفك بظلفك، فان رأيت الا تقيم بين الفئتين ضغنا، فلذلك من الله علينا وعليك مننا، وان غير ذلك فقد قال الله تعالى: ﴿افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ ولما وصل ألينا كتابك أعطيناك جوابك، ومن يهديه الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن يجد له وليا مرشدا. وفى كتابك تهددنا بجيوشك، وابطالك وخيلك ورجالك، او ماتعلم انا نحن ارباب الحتوف وفضلات السيوف ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ولا عدم منا فارس إلا جددناه، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه، فلو نظرت - أيها المغرور - جد قلوبنا وحد حروبنا، لرأيت فرسانا اسنتهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل، ولعفيت عن يدك بسن الندم ولأحزت تحزيك قدم عن قدم، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك، إذا اتاك كتابى هذا فلتكن منه بالمرصاد على أول سورة النمل وآخر سورة ص: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾. هنالك تطاول نحوك الاعناق، وتشخص صوبك العيون، ويشوبك الويل وتسوء بك الظنون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾."

وهكذا يتضح من هذا الرد أن الملك الصالح نجم الدين ايوب لم يهاب الجيوش الصليبية وعلى رأسها ملك فرنسا كما أنه لم يأبه لتهديداته.

وبعد أن وصل هذا الرد للملك لويس جمع باروناته للتشاور فيما يفعلون، فأشار عليه الكثيرون منهم بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله

الذين شتتهم العاصفة، لا سيما وانه لم يبق منهم معه إلا الثلث فقط. لكن هذه المشورة لم تصادف قبولا عند الملك لويس، وقد رفض رأيهم هذا وكانت حجته فى ذلك أن كل تأخير من جهتهم يقوى ساعد المسلمين، كما أنه لا يوجد ميناء آخر قبل دمياط يستطيع الملك أن ينتظر فيه رجاله، وبناء عليه فان أية رياح قوية تهب قد تدفع سفنهم إلى بلاد اخرى كما حدث لهم من قبل أمام قبرص. وقد تغلب رأى لويس وتقرر أن يبدأ الصليبيون فى النزول على الأرض المصرية يوم السبت ٥ يونيو ١٢٤٩.

أما عن المسلمين بمصر فان قواتهم كانت مرابطة على شاطئ جيزة دمياط تحت قيادة الامير فخر الدين كما سبقت الاشارة إلى ذلك، وحينما رأوا سفن الصليبيين تقترب من الشاطئ ارسلوا أربعة سفن حربية من أجل الاستكشاف ومعرفة مدى استعدادات الصليبيين، وقد اشتبك معها الاسطول الصليبى وتمكن من اغراق ثلاثة منها أما الرابعة فنجحت فى الافلات وعادت إلى الشاطئ لتخبر الامير فخر الدين بضخامة استعدادات هذه الحملة الصليبية.

ووفقا لما تم الاتفاق عليه بين الملك لويس وقواته فقد بدأو ينزلون على الشاطئ ولما كان الشاطئ ضحلا لم تتمكن السفن الكبيرة من الاقتراب منه وظلت فى عرض البحر وركب الصليبيون الزوارق الصغيرة كما خاض بعضهم فى المياه بنفسه ومن بينهم الملك لويس واشتبكوا مع المسلمين فى القتال، وقد حاول الفرسان المسلمين اعاقة نزول الصليبيين على الشاطئ واستماتوا فى القتال. ورغم ذلك تمكن الصليبيون من النزول على الساحل ونصبوا خيامهم.

وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الطرفين الاسلامى والصليبى استمرت من الصباح الباكر حتى الظهيرة، وانتهت بانتصار الصليبيين وقتلوا عدد من الامراء المسلمين البارزين.

وقد حدث حادث عاد بأسوأ النتائج على الجانب الاسلامى وان كان نفس الحادث قد افاد الصليبيين وكسبوا عن طريقه امتلاك مدينة دمياط بلا ادنى حصار أو ادنى قتال، ويتلخص ذلك الحادث فى أن الأمير فخر الدين مقدم العساكر الاسلامية قد أرسل ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذى كان معسكراً عند اشموم طناح، يخبره بنبأ نزول الصليبيين على ساحل جيزة دمياط، ولما لم يتلق الامير فخر الدين جوابا على رسائله الثلاث، ولما كان يعلم ان السلطان مريضا، فقد اعتقد أنه مات، ويقال ان الامير فخر الدين كانت له اطماع فى الملك فخشى ان يختار المماليك سلطانا آخر غيره، فبادر بالانسحاب من جيزة دمياط هو وقواته حتى لا تفوته الفرصة لتحقيق اطماعه وكان انسحابهم اشبه بالفرار وعبروا جسرا كان يصل بين جيزة دمياط ومدينة دمياط ذاتها، وفى عجلتهم نسوا أن يقطعوا ذلك الجسر، وحين رأى أهالى دمياط أن الأمير فخر الدين قد فر، تركوا هم الآخرون مدينتهم وفروا، وحذا حذوهم بنى كنانة الذين وكل اليهم السلطان مهمة الدفاع عن دمياط، وقد اشعلوا النيران فى سوقها حتى لا يقع فى يد الصليبيين ما يحتويه السوق من بضائع ونفائس يفيدون منها واتجهوا جميعهم إلى اشموم طناح حيث المعسكر الاسلامى.

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة، وقد شعر الصليبيون بخلو المدينة من الأهالى ووسائل الدفاع، وفكروا فى أنها ربما تكون خدعة، فارسل لويس بأحد فرسانه لاستطلاع الأمر، فعاد الفارس مؤكداً له خلوّها من أهلها، وقال انه جاس خلال بيوتها.

وقد دخلت جيوش لويس التاسع مدينة دمياط فى سهولة بالغة فى ٦ يونيو ١٢٤٩. وقد وجدوا المدينة خالية من البضائع ويقول جوانفيل فى هذا الصدد أن المسلمين "كبدونا خسارة جمة باشعالهم النار فى سوق المدينة الذى كانوا قد جمعوا به كل أنواع البضائع وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه، وكانت الخسارة التى نجمت عن هذا العمل كبيرة لا تعادلها - لا قدر الله - سوى أن يقوم أحدهم باشعال النار فى الجسر الصغير بباريس".

وقد ألقى المؤرخون المسلمون مسئولية دخول الصليبيين دمياط على عاتق الامير فخر الدين واتهموه بالخيانة والجبن وسوء التصرف، وكان تصرفه هذا سببا فى تحقيق الحملة الصليبية السابعة نجاحاً كبيرا باستيلائها على دمياط دون ان تراق دماء جندى واحد من جنودها أو كما قال المؤرخ المسلم المقريزى أن استيلاء الصليبيين على دمياط كان "صفوا عفوا" "بغير كلفة ولا مؤنة حصار". وإذا قارنا سقوط دمياط على هذا النحو بعد يوم واحد من نزول الحملة إلى الشاطئ وما حدث اثناء الحملة الصليبية الخامسة التى لم تستطع الاستيلاء على دمياط الباسلة إلا بعد حصار دام اشهر طويلة، رغم أن دمياط وقتها لم تكن على نفس الدرجة من الحصانة والاستعداد للحصار مثل ما كانت عليه وقت استيلاء الحملة الصليبية السابعة عليها، أدركنا على الفور مدى الجرم الذى ارتكبه الامير فخر الدين الذى اعتبر بعض المؤرخين تصرفه هذا وصمه عار فى تاريخ حياته.

ولم تغب هذه المقارنة عن المؤرخ المقريزى الذى يعجب من ذلك ويقول "وقد كانت دمياط أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعدداً منها فى هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، وعندما فنى أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة ايضا جماعة من شجعان بنى كنانة فلم يغن ذلك شيئاً".

أما المؤرخ أبو المحاسن فقد اعتبر سقوط دمياط فى يد الصليبيين بهذه السهولة "مصيبة لم يجر مثلها" وقد كانت بالفعل، وقد اشتد حزن وغضب الملك الصالح نجم الدين أيوب ورغم مرضه إلا أنه أمر بشنق كبار أمراء بنى كنانة، وعبثا حاولوا الدفاع عن انفسهم وتبرير فرارهم والقاء المسئولية على الأمير فخر الدين، ولكن الملك الصالح أصر على تنفيذ الشنق فيهم وكان عددهم حوالى الخمسين أميرا، وقد عزز عقابه هذا بفتوى من العلماء ورجال الدين. وبعد أن تم شنق هؤلاء الأمراء أمر بصلبهم على النخل كما هم بثيابهم ومناطقهم، أما المماليك والأمير فخر الدين فقد أخذ الملك الصالح يؤنبهم على فعلتهم هذه وقال لهم "ما قدرتم تقضون ساعة بين يدى الفرنج". ويقال أن الملك الصالح اراد أن يقتل الأمير فخر الدين ولكنه خشى من ثورة المماليك خاصة وأنه فى موقف حرج والعدو يهدد بالزحف صوب القاهرة وامتلاك كافة الديار المصرية، وقد كتم غيظه وحنقه فى انتظار انتهاء الغمة وتتاح له الفرصه لعقابه. وقد تخوف منه المماليك وارادوا القضاء عليه ولكن الامير فخر الدين نهاهم عن ذلك وقال لهم أن السلطان على وشك الموت، فان مات فقد استراحوا منه وان لم يمت فهو بين ايديهم يفعلوا به ما يشاؤون.

وقد أخذ المرض يشتد على الملك الصالح يوما بعد يوم، وبعد سقوط دمياط فى يد الصليبيين نقل معسكره من اشموم طناح إلى المنصورة، ونزل بقصر كان للملك الكامل يطل على النيل، وأخذ الجند يعملون على زيادة تحصينات المدينة وأقاموا الأسواق بها. كما جاءت سفن الاسطول المصرى وعليها المقاتلين وعسكرت فى النيل أمام المنصورة كذلك اجتمع بالمدينة اعداد كبيرة من المتطوعة والعربان وعامة الناس للجهاد ضد الصليبيين والحيولة بينهم وبين الوصول إلى القاهرة.

أما الصليبيون فى دمياط فانهم قد استولوا على كل ما وجدوه فى المدينة من الاسلاب والغنائم كما حولوا جامعها إلى كنيسة اطلقوا عليها اسم

كنيسة العذراء، وعينوا لها بطريركا كاثوليكيا. والملاحظ أن الصليبيين لم يستغلوا انتصارهم هذا ويواصلون فتح باقى البلاد المصرية خاصة بعد أن أصيب المسلمون فى مصر بالذهول والارتباك نتيجة لضياع دمياط، ولكنهم ظلوا حوالى الخمسة أشهر فى حالة جمود عسكرى بدمياط، وكان السبب فى ذلك كما يذكر جوانفيل أن الملك لويس اراد الانتظار حتى وصول أخيه كونت بواتييه على رأس النجدة التى أخذ فى جمعها من فرنسا، وربما ارادوا بهذا الانتظار ألا يقعوا فى نفس الخطأ الذى ارتكبته الحملة الخامسة عندما زحفت وقت فيضان النيل، ولما كان الفيضان وشيكا فقد آثروا الانتظار حتى ينتهى.

على أن هذه الأشهر التى قضاها الصليبيون بدمياط فى حالة خمول وركود عسكرى، قد افادت المسلمين، الذين عملوا على تنظيم انفسهم وتقوية استحكامات مدنهم، كما أخذوا يشنون الغارات الليلية ويتخطفون الجند الصليبيين، هذا فى الوقت الذى أخذ فيه الصليبيون يفرطون فى اللهو سواء الأمراء منهم او البارونات أو عامة الجيش، ويصف جوانفيل هذه الأمور فيقول:

"أما البارونات الذين كان عليهم واجب الاحتفاظ بما لهم للتصرف فيه فى الوقت المناسب والمكان الملائم فقد أقاموا احتفالات ضخمة، وأفرطوا افراطا جما فى تقديم اللحوم.

أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات، حتى لقد حدث بعد عودتنا من الأسر، ان عزل الملك الكثيرين من رجاله، فلما سألته عن الدافع الذى حمله على ذلك أنبانى أنه وجد ـ بالتأكيد ـ أن الذين عزلهم قد أقاموا اماكن اجتماعهم الخبيثة على رمية حجر من فسطاطة، وأن ذلك العمل منهم كان فى الوقت الذى كان فيه الجيش يكابد أشد ضروب الشقاء والألم".

ولم يكن هذا فقط ما عانت منه الحملة فى دمياط ولكنها عانت كذلك من المشاحنات العديدة التى قامت بين العناصر المختلفة فى الحملة وعلى سبيل المثال كان الفرنسيون يعادون الانجليز، وكانت جماعات الرهبان المسلحين المشتركين فى الحملة مثل جماعات الداوية والاستبارية دائمى النزاع والاختلاف فى الرآى.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل لقد أخذت المون تنفذ، كما أخذت العواصف العنيفة تجتاح الوجه البحرى، وتسببت فى تحطيم ٢٤٠ سفينة للصليبيين.

وأخيرا وفى يوم ٢٤ أكتوبر ١٢٤٩ وصل كونت بواتييه مع باقى الجيش وقد اجتمع الملك لويس مع كبار رجال الحملة للتشاور فى موضوع الطريق الذى ستسلكه الحملة، وهل سيكون طريقهم إلى القاهرة عاصمة البلاد المصرية، ام إلى الاسكندرية، وكاد الاجماع أن يكون تاماً بينهم على سلك الطريق إلى الاسكندرية، ولكن روبرت كونت ارتوا عارضهم وأصر على الزحف على القاهرة أولاً على اعتبار ان سقوط العاصمة يعنى سقوط مصر كلها فى يدهم، وعزز رأيه بقوله أن من يريد أن يقتل الافعى لابد له أن يبدأ برأسها. وقد لقى هذا الرأى تأييد الملك لويس. وفى يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ غادر الصليبيون دمياط فى طريقهم إلى القاهرة سالكين نفس الطريق الذى سبق أن سلكته الحملة الصليبية الخامسة على مصر. وتركوا مدينة دمياط فى ظل حراسة قوية، وبقيت بها الملكة مرجريت زوجة لويس التاسع.

فى ذلك الوقت أخذ المرض يشتد على السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وفى ليلة الاثنين ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ توفى السلطان. وكان للسلطان أربعة ابناء توفوا جميعا فى حياة والدهم فيما عدا واحدا فقط هو الملك المعظم غياث الدين توران شاه، وكان وقتذاك خارج البلاد المصرية يحكم نائبا عن

ابيه فى حصن كيفا، وهنا برزت زوجـة السلطان الصـالح نجم الدين ايـوب، لتقوم بدور بارز سجله لهـا التـاريخ، وكـانت مـن الممـاليك اعتقها نجم الديـن وتزوجها وانجبت له ابنا يدعى خليلا مات فى حياة ابيه، واصبح يطلق عليهـا اسم "ام خليل" وان كان اسمها الاصلى هو شجر الدر.

لقد اظهرت شجر الدر حكمة ومقدرة كبيرة وبعد نظر إذ ادركت انه إذا تم اعلان نبأ وفاة زوجها سـلطان مصـر الصـالح نجم الديـن ايـوب فـان ذلـك سيحدث بلبلة وتشتيتا لقوة الجند وربما صراعا بين الامراء على الحكم، لذلـك فقد اخفت هذا النبأ إلا عن اثنين من الرجـال كانـا موضـع ثقتهـا وهمـا الأمـير فخر الدين يوسف ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسن وكان اقرب الناس إلى السلطان نجم الدين أيوب. وقد وضعت جثة السلطان فى تـابوت وتـم نقلـه فى سفينة نيلية ليلاً من المنصورة إلى القاهرة حيث تم دفنه فى القلعـة القائمـة فى جزيرة الروضة حيث توجد ثكنات المماليك البحرية. وحرصت شجر الدر على أن يستمر كل شئ على ما هو عليه وكأن السلطان حـى يـرزق، فاستمر الاطبـاء موجـودون بقصـر السـلطان حتـى يظـن النـاس أن السـلطان لا يـزال مريضا، وظلت المكاتبات الرسمية تصدر باسـم السلطان وتوقيعـه، ويقـال أن شجر الدر كانت بارعة فى تقليد توقيع السلطان.

كذلك فان شجر الدر أبدت مـروءة واخلاصـا يفـوق الحـد لابـن زوجهـا المعظم توران شاه، فقد جمعت الامراء وطلبت منهم باسم الصالح نجـم الديـن ايوب ان يحلفوا له ثم من بعده لأبنه المعظم توران شـاه المقيم بحصـن كيفـا، وكتبت إلى نائب السلطان بالقاهرة تخبره بذلك، وقد نفذ الأمراء والجند رغبـة السلطان وحلفوا له ولابنه المعظم توران شاه، واصبح يخطب له على المنـابر بعد ابيه ونقش اسمه على سكة الدراهم والدنانير بعد ابيه. وبعد ذلك اسـرعت شجر الدر إلى مكاتبة توران شاه وارسال الرسل واحدا تلو الأخـر لاسـتدعائه إلـى مصـر. لكـن الاحـداث اثبتـت ان المعظـم تـوران شـاه كـان شـخصا سـئ

الاخلاق بدلا من أن يحفظ لزوجة ابيه هذا الجميل ويكرمها، فانه أخذ يسئ اليها كما سنرى فيما بعد.

نترك السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه فى طريقه إلى مصر، ونرى ما فعله الصليبيون بعد مغادرتهم دمياط قاصدين القاهرة، فقد وصلوا إلى قرية فارسكو يوم الخميس ٢ديسمبر ١٢٤٩ دون أن يواجهوا مقاومة تذكر من جانب المسلمين. وواصل الصليبيون زحفهم مسرعين تارة ومتباطئين تاره أخرى وقد حدث اشتباك عنيف بين مقدمتهم وكانت من الفرسان الداوية ومع قوات المسلمين فى منطقة تقع بين فارسكور وشارمساح، وقد انتهى هذا الاشتباك بانتصار الصليبيين الذين واصلوا تقدمهم حتى وصلوا إلى شارمساح ثم إلى البرامون ومنها وقفوا عند منطقة شمالى بحر اشمون واصبح لا يفصل بينهم وبين القوات الإسلامية غير بحر اشموم. وقد استقر الصليبيون فى هذه المنطقة وأقاموا معسكرهم فيها وحصنوه عن طريق بناء المتاريس والخنادق، واستعدوا لمنازلة المسلمين.

أما القوات الاسلامية فكانت تحت قيادة الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ وهو نفسه الذى تسبب فى الكارثة التى حلت بدمياط ورغم ذلك، فانه ظل محبوبا من الناس فعهد إليه بقيادة الجيوش ومواجهة الصليبيين إلى أن يصل المعظم توراه شاه.

وقد عسكرت القوات الاسلامية على الضفة الأخرى المواجهة للصليبيين وأصبح يفصل بينهما بحر اشموم، وكان من الطبيعى أن يحدث مناوشات واشتباكات بين الطرفين، وحاول الصليبيون أن يردموا مجرى بحر أشموم ويقيموا جسرا يتمكنوا عن طريقه من العبور للضفة الأخرى والالتحام مع المسلمين وجها لوجه، وقد امضوا ثلاثة اسابيع وهم يعملون فى اقامة هذا

الجسر حتى انتهوا منه، وبمجرد انتهائهم قام المسلمون بتخريبه فى يوم واحد، ويصف جوانفيل هذه الحادثة بقوله:

"ورأى الشرقيون افساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم لا تكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا انفسنا ثلاثة اسابيع فى عمله، وذلك أنه كلما رد منا قسما من المجرى من ناحيتنا كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها" وقد فاجأ المسلمون الصليبيين بسلاح جديد لم يعرفه الغرب الاوروبى فى تلك الفترة وأن كان البيزنطيون قد عرفوه منذ زمن بعيد منذ القرن السابع الميلادى ومنهم انتقل إلى المسلمين، وكان هذا السلاح هو النار الاغريقية، وهى عبارة عن مركب من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ قابل للاشتعال يدفع فى ماسورة المدفع فى اتجاه المكان المراد احراقه وعند سقوطه ينتشر فى انحاء المكان فلا يتركه إلا بعد أن يصبح رميما، وأول من اخترع هذه النار هو مهندس اغريقى اسمه كالينيكس من مدينة هليوبوليس بالشام.

وقد انزعج الصليبيون أيما انزعاج عند رؤيتهم لهذا السلاح الجديد الذى فاجأهم المسلمون به، ولنرجع إلى جوانفيل ايضا لنستقى منه المعلومات عن مدى الفزع الذى أصاب معسكرهم وعلى رأسهم الملك لويس من جراء الخسائر التى انزلتها بهم هذه النيران يقول جوانفيل:

"حدث فى ذات ليلة من ليالى حراستنا الابراج المشرفة على الطرق المقفلة أن جلب المسلمون آلة تعرف "بالمقلاع" لم تكن لديهم قبل ذلك الحين، ووضعوا النار الاغريقية فى حمالة الآلة، فلما طالع لورد وولتر الفارس الطيب الذى كان معى قال: أيها اللوردات: اننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن، ذلك أنهم إذا اضرموا النيران فى ابراجنا وبقينا حيث نحن فلابد

اننا هالكون بالحريق، وإذا غادرنا اماكن دفاعنا هذه التى وكلت حراستها الينا فقدنا شرفنا، ولن يدفع عنا الخطر سوى الله وحده، لذلك فان النصيحة والرأى عندى ان ننطرح على ايدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران، وندعو مخلصنا ان يقينا شر هذا الخطر.

فلما أخذ وافى اطلاق النار انطرحنا ارضا على معاصمنا وركبنا كما علمنا، وسقطت القذيفة الأولى بين برجينا القائمين بحراسة الطرق المقفلة، واستقرت امامنا فى الحفرة التى كان الجيش يعمل على اطفاء النار بها، وكان المسلمون لا يستطيعون اصابة هدفهم مباشرة لوجود جناحى الجيش اللذين أمر بهما الملك، فكانوا يطلقون قذائفهم نحو السحاب فتسقط القذائف على رأس رجال المطافئ.

وكانت النار الأغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من النار، ذات ذنب يقارب الرمح طولاً، وكان يصحبها صوت هائل كدوى الرعد، وكأنها طائر فى الجو تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شئ وكأنه فى وضح النهار، وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة.

وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الاغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا " أيها الرب السيد الحنون احفظ لى شعبى". واننى لمعتقد حقا أن صلواته قد اسعفتنا فى شدتنا وكان كلما وقعت قذيفة بالليل أرسل إلينا أحد حجابه يسألنا كيف أصبحنا وعما إذا كانت النار اصابتنا بضر ما".

وإزاء هذا السلاح الجديد الذى انزل ابلغ الضرر بالمعسكر الصليبى، بعد أن راح المسلمون يستعملونه فى الليل وفى النهار، احتار الصليبيون ماذا

يفعلون وراح الملك لويس يجتمع مع امرائه وباروناته للتشاور فيما ينبغى عليهم أن يفعلوه، دون أن يصلوا لحل هذه المشكلة.

لكن بعض الخونة من الأعراب وربما كانوا من غير المسلمين قد دلوا الصليبيين على مخاضة سرية يستطيعون عن طريقها عبور بحر اشموم والوصول إلى معسكر المسلمين خارج المنصورة، وقد رحب الصليبيون بهذا العرض وبالفعل اتفقوا على خوضها وكانت أول فرقة من الفرسان تخوض تلك المخاضة وتصل إلى معسكر المسلمين فى يوم الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ تتألف من الداوية ورئيسهم وفرقة اخرى بقيادة روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس وفرقة انجليزية صغيرة، وقد هجمت هذه الفرقة على معسكر المسلمين على حين غرة ففوجئ المسلمون بهم وتشتت شملهم ولكن الامير فخر الدين قائد القوات الإسلامية اندفع بين صفوف الصليبيين مستميتاً فى الدفاع، ولما كان قد نسى فى عجلته أن يرتدى درعه، فقد اصيب فى جنبه وتلقفته سيوف الصليبيين واجهزوا عليه، وهكذا سقط هذا الامير شهيدا فى ميدان القتال ومحى عن نفسه العار الذى لحقه بعد فراره وتسببه فى سقوط دمياط فى يد الصليبيين.

وهكذا تم للصليبيين احراز هذا الانتصار على المسلمين الذين فروا إلى المنصورة، واحتموا فى داخلها. وقد اصر روبرت كونت ارتوا على اقتحام مدينة المنصورة مع قواته وعدم انتظار وصول قوات باقى الجيش الصليبى ومعهم الملك لويس. وقد نصحه من معه بالتمهل دون جدوى، وهكذا سعى لحتفه، ذلك أنه اقتحم المنصورة مع قواته مطارداً قوات المسلمين وتوغلوا داخل شوارع وازقة المنصورة، وكان الجيش الإسلامى قد استرد شجاعته واستجمع قواه خارج المدينة وكان من حسن الحظ أن وجد فى شخصية ركن الدين بيبرس البندقدارى رئيسا قديراً، جمع القوات الإسلامية المشتتة وتعقب الصليبيين داخل المنصورة منزلا بهم اشد أنواع القتل، فلما لاذوا بالبيوت

يريدون الاحتماء بها انهال عليهم سكانها بالضرب والرمى بالحجارة والطوب. وقد وصف هذه المعركة أحد المؤرخين المسلمين فصورها تصويرا دقيقا فقال: " قال بعض من حضر هذه الوقعة: والله كنت اسمع زعقات الترك كالرعد القاصف، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف، فلله درهم لقد احيوا فى ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الحديد. فلم تكن إلا ساعة واذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين".

وهكذا انتهت معركة المنصورة هذه بانتصار المسلمين والقضاء على افراد هذه القوة التى كانت بمثابة مقدمة للجيش الصليبى الزاحف صوب المنصورة. وكان بين القتلى روبرت كونت ارتوا شقيق الملك لويس. ولم يعلم الملك لويس بأمر هذه الهزيمة التى لحقت بمقدمة قواته، وقد عبر هو وباقى الجيش مخاضة بحر اشموم وانتقلوا إلى الضفة الجنوبية التى يرابط فيها المسلمون، وقد وقع اشتباك عنيف بين الطرفين وكان القتال يدور وجها لوجه بحيث انه اشتبكت الاجساد واختلطت السيوف بعضها ببعض. وقد احرز المسلمون انتصاراً كبيراً، وان كان القتلى من كلا الجانبين عددهم كبير. وقد انسحب الصليبيون بقيادة الملك لويس وكانوا فى طريقهم إلى معسكرهم شمال بحر اشموم حين جاءته الانباء بان شقيقه كونت ارتوا يقاتل المسلمين داخل المنصورة وحده وانه فى حاجة إلى نجدة سريعة، فعاد الملك وحول اتجاهه قاصدا المنصورة ولكن فرسان المسلمين لم يمكنوه من ذلك واشتبكوا مع جيشه فى القتال من جديد مما زاد فى كثرة الخسائر فى الارواح فى الجانب الصليبى ولما وجد الملك لويس استحالة ذلك، عاد بالبقية الباقية من رجاله إلى معسكرهم شمال بحر اشموم، واثناء عبورهم هذا البحر فى طريق عودتهم طاردهم المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا كما سقط عدد آخر غرق فى البحر. ورغم هذا كله إلا أن الصليبيين نجحوا فى الاحتفاظ بمعسكر المسلمين جنوبى بحر اشموم وسيطروا عليه.

ثم حدث اشتباك آخر بين الصليبيين والمسلمين في يوم الجمعة ١١ فبراير، وقاد المعركة من الجانب الإسلامى بيبرس البندقدارى ومن الجانب الصليبى الملك لويس، وقد الحق المسلمون بالصليبيين خسائر فادحة في الأرواح، ولم يجد الصليبيون طريقه يتخلصون فيها من جثث قتلاهم سوى أن يلقوا بها فى مياه بحر اشموم وفى نهر النيل، ولكن بعد وقت قصير بدأت الجثث تطفوا على سطح الماء، فأمر الملك لويس بجمعها ودفنها فى باطن الأرض. وقد ادى كل ذلك إلى تفشى الوباء فى المعسكر الصليبى بشكل خطير حتى كان موتاهم يومياً لا يقلون عن العشرين شخصاً.

وفى ٢٥ فبراير وصل الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة وبعد أن درس الموقف وعلم بموقع معسكر الصليبيين، لجأ إلى نفس الخطة التى سبق أن لجأ إليها جده الملك الكامل وكانت سببا فى القضاء على الحملة الصليبية الخامسة، فأصدر أوامره بان تقطع السفن الإسلامية الاتصال البحرى بين سفن الاسطول الصليبى وقاعدتهم فى دمياط. وقد اتيح لهذه السفن الإسلامية ان تشتبك مع سفن الصليبيين المملوءة بالمؤن والتى كانت فى طريقها من دمياط إلى معسكر الصليبيين شمال بحر اشموم، وتمكنت سفن المسلمين أن تستولى على ٥٢ سفينة منها. بينما وقع قرابة الألف صليبى بين قتيل واسير، واقتيد الأسرى على الجمال إلى القاهرة.

وفى يوم الثلاثاء ١٥ مارس ١٢٥٠ حدث اشتباك آخر بين سفن الفريقين واستولى المسلمون على اثنتين وثلاثين سفينة من السفن الصليبية.

وكان من نتيجة قطع المسلمين الطريق على السفن الصليبية ومنع وصولها بالمؤن إلى المعسكر الصليبى شمالى بحر اشموم ان كاد الصليبيون ان يموتوا جوعا. ويقول جوانفيل "أدت هذه الأمور جميعا إلى أن عم الغلاء المعسكر، فما وافى عيد الفصح حتى بيع الثور بثمانين جنيها ورأس الغنم

بثلاثين والخنزير بثلاثين، وبلغ ثمن البيضة الواحدة عشـرة دنيـة، وبيـع كـأس الخمر بعشرة جنيهات".

ومع ادراك الملك لويس للظـروف السيئة التـى اضحـوا فيهـا، بعـد أن نفذت مؤونتهم وتحطمت عدتهم ونقص عددهم، فإنه فتح باب المفاوضـات مـع المسلمين وعـرض عليهـم تسـليمهم دميـاط ومغـادرة البـلاد المصريـة مقـابل تنازلهم عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى فلسطين للصليبيين. وكـان من الطبيعى أن يرفـض المسـلمون ذلـك العـرض لأنـه لـم يكـن يخفـى عليهـم الموقف السئ الذى امسى فيه الصليبيون.

وهكذا اصبح أمام الصليبيين أحد أمرين، فأما أن يظلوا فى معسـكراتهم شمالى وجنوبى بحر اشموم وفـى هـذا هلاكهـم بعـد أن نفـذت المـؤن وتفشـت الامراض بينهم، بما فيهم الملك لويس نفسه الذى اصيـب بالوبـاء الـذى تفشـى فى الجيش إلى جانب اصابته بمرض الدوسنتاريا الحادة، حتى كان يغمى عليه فى الليلة الواحـدة عـدة مـرات. وبيـن أن يعـودوا ادراجهـم إلـى مدينـة دميـاط للتحصن بها. وقد اختار لويس الحل الثانى للمشكلة التى امسوا فيهـا، واصـدر أوامره بانسحاب قواته من معسكر المسلمين الذى احتلوه جنوبـى بحـر اشـموم ولفت نظرهم إلى ضرورة تدمير الجسر الذى يصل بين شمالى وجنوبى بحـر اشموم بعد أن يعبروا عليه، ولكنهـم فـى عجلتهـم وارتبـاكهم نسـوا قطـع ذلـك الجسر. فعبر المسلمون عليه وركبـوا اقفيتهـم واخـذوا فـى مطـاردتهم مكبديـن اياهم خسائر فادحة فى الأرواح حتى وصلوا إلى قرية فارسكور هنـاك كـانت خاتمة المطاف والكارثة الأخيرة التى حلت بالصليبيين على يد المسـلمين، فقـد أوسع المسلمون الصليبيين قتلا وذبحا وأسرا، وقيل أن خسارة الصليبيين عنـد فارسكور وحدها بلغت ثلاثين الف رجل، فى حين لـم يستشـهد مـن المسـلمين سوى عددا ضئيلا لا يربو على المائة نفس.

وبعد هذه الكارثـة التى حلت بالحملـة الصليبيـة، وبعـد أن هلـك معظـم افراد الفرقة التى كان يقودها الملك لويس، انضم هذا الملك إلى فرقة عسكرية أخـرى مـن جيشـه وانتهـى المطـاف عند قريـة تدعـى منيـة أبـى عبـد اللـه. "فوضعوه فى منزل وسجوه كأنه ميت، بعد أن وضعوه فـى حجـر امـرأة مـن باريس وظنوا انه لن يبقى حياً حتى الليل".وذلك على حد تعبير مؤرخ الحملـة جوانفيل.

وحين تاب الملك لويس إلى رشده، ارسـل رسـولا مـن قبلـه إلـى أقـرب قائد مسلم يخبره برغبة الملك فـى ايقـاف القتـال واقـرار الصلـح. وفـى الحـال احدق المسلمون بالملك لويس ومن كان معـه مـن الفرسـان الصليبييـن، الذيـن ارادوا مقاومة المسلمين دفاعا عن الملك، ولكن المسلمين قاتلوهم واشتدوا فـى قتالهم حتى ابادوهم عن آخرهم، ثم القوا القبـض علـى لويـس واقتـادوه اسـيرا إلى مدينة المنصورة، حيث انزلوه هو وشقيقيه كونـت انجـو وكونـت بواتييـه، فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان. وقد اكرمهم السلطان توران شاه ورتـب للملك من يقوم على خدمته. وقد اشاد المؤرخون الصليبيون الذين اشتركوا فى هذه الحملة بالمعاملة الطيبة التى عومل بها الملك لويس مـن جـانب المسـلمين وقد ارسل له السلطان خلعه نفيسه ودعاه لحضور حفل كبير اقامــه لـه، ولكـن لويس رفض الخلعة كما رفض حضور الحفل ظنا منـه أن السلطان مـا دعـاه لهذا الحفل إلا لكى يسخر منه ويمتهن كرامته على مرأى من الجميع.

ولم تمضـى ايامـا قليلـة علـى وقـوع الصليبييـن فـى الأسـر حتـى طلـب السلطان المعظم توران شاه فتـح بـاب المفاوضـات مـع الملـك الفرنسـى، وقـد حاول المعظم تـوران شـاه أن يجـبر الملـك لويـس علـى الموافقـة علـى تخلـى الصليبيين عن بعض ممتلكاتهم فى فلسطين أو الشام ولكن لويـس رفـض ذلـك موضحا انها ليست فى قبضته ولا تخضع لسلطته وبالتالى ليس لـه الحق فـى

التنازل عنها، وفى النهاية تم عقد الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات وكانت شروطها تتضمن النصوص التالية:-

١- تسليم مدينة دمياط للمسلمين فدية عن الملك لويس.

٢- يدفع الملك لويس مبلغ ثمانمائة ألف بيزنط (وهى عملة ذهبية بيزنطية وهذا المبلغ يساوى ٣٦٠,٠٠٠ جنيه مصرى). فداء عن باقى الاسرى الصليبيين.

٣- اطلاق سراح جميع الاسرى المسلمين الموجودين فى أسر الصليبيين.

٤- أن يعمل المسيحيون على حفظ الأمن واقرار السلام فى جميع البلاد التى يحتلونها فى فلسطين.

٥- اطلاق سراح الاسرى الصليبيين الموجودين فى أسر المسلمين.

٦- أن يقوم السلطان بالعمل على حماية وحراسة عتاد الصليبيين واثقالهم الموجودة بمدينة دمياط بعد رحيلهم عنها إلى أن تسنح الفرصة لنقلها إلى البلاد المسيحية.

٧- أن يمنح المرضى المسيحيون وغيرهم ممن سيبقون فى دمياط الأمان حتى يبيعون ما يمتلكونه، إلى أن يرحلوا عن البلاد المصرية.

وقد اقسم الطرفان على احترام شروط هذه الهدنة والمحافظة عليها وعدم الاخلال بها.

وعقب التصديق على هذه الهدنة، رحل لويس عن الأراضى المصرية متخذا طريقه إلى الشام وعلى هذا النحو انتهت احداث الحملة الصليبية السابعة على مصر، بعد أن أصيبت بكوارث وتعرضت لمحن شديدة، انتهت بوقوع زعيمها وقائدها ملك فرنسا لويس التاسع اسيرا فى يد المسلمين، ولم تحقق هذه الحملة سوى الفشل الذريع الذى أكد مهارة المسلمين العسكرية

وبلاءهم الحسن فى القتال ورد المعتدين عن أراضيهم وتكبيدهم الخسائر الجمه فى المعدات والأرواح على النحو الذى تم عرضه خلال سرد احداث هذه الحملة.

نهاية الدولة الايوبية:

لقد مر بنا كيف حافظت شجر الدر على ملك زوجها الصالح نجم الدين ايوب بعد وفاته وأرسلت فى طلب ابنه توران شاه الذى كان مقيما فى حصن كيفا، الذى أسرع بإتخاذ طريقه إلى مصر ووصل إلى المنصورة، والاجراءات التى اتخذها وكان لها أثرها فى فشل حملة لويس التاسع على مصر وأسر الملك الفرنسى.

على أن توران شاه لم يحفظ هذا الجميل لزوجة أبيه شجر الدر التى كانت قد غادرت البلاد بعد وصوله إليها وذهبت إلى بيت المقدس. فأرسل إليها مهددا متوعدا يطالبها بأموال أبيه، فأرسلت شجر الدر إلى زعماء المماليك البحرية وأخبرتهم بتهديد توران شاه لها وكيف أنه لم يحفظ جميلها ويطالبها بما ليس عندها. ولم يكن زعماء المماليك البحرية فى حاجة إلى تحريض، بعد ما أساء إليهم جميعاً توران شاه وتنكر لهم، وقد أساء السيرة وأخذ ينصرف إلى الفساد، وقد رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد أخرى حتى تنقطع ويقول "هكذا أفعل بالبحرية"، ويسمى كل واحد من زعماء المماليك البحرية بأسمه.

أضف إلى ذلك أن الفارس أقطاى الذى كانت شجرالدر أرسلته لاحضار توران شاه من حصن كيفا، قد أخذ وعدا من توران بأن يمنحه حكم حلب، ولكن توران شاه تنكر لوعده له، فأضمر له أقطاى الشر.

وفى يوم الاثنين ٢٨ المحرم ٦٤٨هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م، مد السماط للمعظم توران شاه فى سرادقه المقام على ضفة النيل فى فارسكور، وبعد أن تناول الطعام مع بعض أمرائه ذهب إلى خيمته، فدخل عليه أحد الامراء وهو بيبرس البندقدارى، وضربه بالسيف، فتلقى توران شاه الضربة بيده مما تسبب فى قطع بعض اصابعه، فثار واتهم المماليك البحرية بمحاولة قتله وأقسم على أن يفنيهم ولا يبقى لهم أثراً. عند ذلك اجتمع رأيهم على التخلص منه قبل ان يتخلص هو منهم. وقد ذهب توران شاه إلى برج خشبى نصب له فى فارسكور ليضمد جرحه، ولكن المماليك أحاطوا بالبرج وطلبوا منه النزول إليهم فرفض واحتمى بأعلى البرج فرموا البرج بالنار الاغريقية، وكان البرج مصنوعاً من خشب الشربين والقطن وسرعان ما إحترق البرج، ويقول جوانفيل الذى كان شاهد عيان لكل ما حدث أنه لم ير فى حياته قط لهباً أجمل مرآى وأقوى شدة من هذا اللهب.

عند ذلك رمى توران شاه بنفسه من أعلى البرج إلى النيل فرموه بالسهام ولحقوا به فى النيل حيث قتله الفارس أقطاى وانتزع قلبه من بين ضلوعه، وحسب رواية جوانفيل، فأن اقطاى دخل على الملك لويس ويداه ملوثتان بالدماء وقال له: "ترى ماذا تعطينى إذ قتلت عدوك الذى لو عاش لقتلك؟ " فلم يجبه لويس بأية كلمة، وربما ارتعد من الخوف، لئلا يجرى عليه مثل ذلك.

وقد بقيت جثة توران شاه ملقاه على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يجرؤ أحد على دفنها حتى شفع فيه رسول خليفة بغداد، فحمل إلى الجانب الأخر من النيل ودفن هناك.

وبمقتل توران شاه فى ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) انتهت الدولة الايوبية بعد حكم استمر لمدة أكثر من سبعة عقود ، حققت خلال هذه الحقبة الزمنية الكثير

من المجد والانتصار على العدو الصليبى الذى جثم على أنفاس الوطن الاسلامى فى الشرق الادنى واضطلعت هذه الدولة بعبء مكافحته والنضال ضده مسجلة بذلك أروع صفحات الجهاد التى حفظها لها التاريخ.

ثم جاءت دولة المماليك وكان لها دور هام فى القضاء على بقايا الصليبيين بالشام، فقام السلطان الظاهر بيبرس (ت ١٢٧٧م.) بنصيب وافر فى هذه الحروب حتى توجت جهوده بالاستيلاء على إمارة انطاكية الصليبية فى سنة ١٢٦٨م. تلك الامارة التى كانت ثانى امارة بعد الرها اسسها الصليبيون فى الشرق فى عام ١٠٩٧م. وقد غنم المماليك من انطاكية غنائم هائلة حتى بلغ من كثرتها ان (قسمت النقود بالطاسات) أما الاسرى فإنه (لم يبق غلام إلا وله غلام ... وأبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم)[1] . وقدر عدد الأسرى من انطاكية بمائة ألف أسير.

واستطاع السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م.) ان يستولى على طرابلس فى ٢٦ ابريل ١٢٨٩م. وهى رابع إمارة اسسها الصليبيون فى الشرق[2] . وانتهت أخر المعاقل الصليبية بالشام على يد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون، باستسلام مدينة انطرطوس فى ٣ أغسطس ١٢١٩م، ومدينة عثليث فى ١٤ أغسطس ١٢١٩م وبذلك (تكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام)[3] .

---

[1] النويرى: نهاية الأدب فى فنون الأدب ، جـ ٢٨، ورقة ٣٠٨ (مخطوط).

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ، ص ٥٦٨.

[2] المقريزى : السلوك، جـ ١ ، ص ٧٤٧.

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٢١.

[3] ابو الفدا : المختصر، حوادث سنة ٦٩٠هـ

وهكذا دالت دولة الصليبيين بالشام بعد قرنين مـن الزمـان وانتهـى أمـر هؤلاء الغزاة الغربيين إلى حيث لا رجعة وعادت بلاد الشام من قيليقية شـمالا حتى غزة وحدود مصـر جنوبـا إلـى ابنائهـا الحقيقيـون وارتفـع صـوت الآذان ينطلق من مآذن المساجد فى هذه البقاع بشهادة أن لا إلـه إلا اللـه وان محمـدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية

- ابن ابى الفضائل: مفضل
النهج السديد والدرر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جزءان باريس، ١٩١٢.

- ابن الأثير: عز الدين على بن محمد الجررى
(أ) التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل حققه ونشره عبد القادر احمد طليمات القاهرة، ١٩٦٣.
(ب) الكامل فى التاريخ، ١٢ جزءاً، القاهرة ١٣٥٧هـ

- ابن اياس: ابو البركات محمد بن احمد
بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ٣ أجزاء بولاق، ١٣١١ - ١٣١٢هـ.

- ابن ايبك: الدرر المطلوب فى اخبار بنى أيوب، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية.

- ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى
تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار، باريس ١٩٢٢.

- ابن جبير: محمد بن احمد الاندلسى
رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٤٩.

- **ابن الجوزى:** عبد الرحمن بن على
المنتظم فى تاريخ الملوك والامم طبعة الهند ١٣٥٩هـ

- **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء بولاق، ١٢٨٤هـ

- **ابن خلكان:** شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم الشافعى، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، نشره محى الدين عبد الحميد، ٦ اجزاء، القاهرة، ١٩٥٠.

- **ابن دقماق:** ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى
الانتصار بواسطة عقد الامصار، بولاق ١٨٩٣م.

- **ابن شداد:** بهاء الدين يوسف
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، نشر د.جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤.

- **ابن شداد:** محمد
الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة، جزءان، نشر سامى الدهان، دمشق، ١٩٥٦.

- **ابن واصل:** جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم الشافعى
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب، نشر د. جمال الشيال.

- **ابن مماتى:** الأسعد
قوانين الدواوين، نش عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣.

- **ابو شامة:** عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب الدين
(أ) كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، القاهرة ١٢٨٧هـ .
(ب) الذيل على الروضتينن نشر عزت العطار الحسينى الدمشقى، القاهرة ١٩٤٧.

- **ابو الفداء:** اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه
المختصر فى اخبار البشر، القسطنطينية ١٢٨٦هـ

- **ابو المحاسن:** جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى
(أ) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣.
(ب) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى محفوظ بدار الكتب المصرية ، ٣ أجزاء

- **المقريزى:** تقى الدين احمد بن على
(أ) الالمام باخبار من بأرض ملوك الاسلام، ليدن ١٧٩٠
(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك
حققه ونشره محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤ - ١٩٥٨.

(جـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، بولاق ١٢٧٠.

- النويرى: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب
نهاية الارب فى فنون الادب اجزاء من ٢٥ - ٣٠ مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية.

- النويرى: محمد بن قاسم الاسكندرى
الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية فى واقعة الاسكندرية، مخطوطه فى جزئين بدار الكتب المصرية.

- ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب
حققه ونشره جمال الشيال فى ثلاثة اجزاء

- ابن الوردى: ابو جعفر زين الدين عمرد
تتمه المختصر فى اخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردى، القاهرة ١٢٨٥هـ .

- ياقوت: شهاب الدين ابو عبد الله الحموى
معجم البلدان، ٥ مجلدات، بيروت ١٩٥٥.

- يحيى بن سعيد الانطاكى: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جزءان بيروت، ١٩٠٩.

ثانياً ـ المراجع العربية

- **احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم:** دكتوران

تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، بيروت ١٩٧٢

- **إسمت غنيم:** دكتور

(أ) معركة متريكرت فى ضوء وثائق بسيللوس، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الأسكندرية عام ١٩٨١.

(ب) الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية إنحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢.

(جـ) العلاقات البيزنطية الألمانية أثناء الحملة الصليبية الثانية فى ضوء وثائق كيناموس، الفنية للطباعة والنشر، ١٩٨٨.

(د) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧.

- **جمال الدين الشيال:** دكتور

مجموعة الوثائق الفاطمية، المجلد الاول، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٦٥.

- **جوزيف نسيم يوسف:** دكتور

(أ) العدوان الصليبى على مصر، هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور، دار الكتب الجامعية، ١٩٦٩.

(ب) تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها، الاسكندرية ١٩٨٤.
(جـ) تاريخ الدولة البيزنطية، الاسكندرية ١٩٨٤.

- **حسن ابراهيم حسن**: دكتور
(أ) تاريخ الاسلام السياسى ، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٥.
(ب) تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٥٨.

- **حسن حبشى**: دكتور
(أ) الحرب الصليبية الاولى، القاهرة ١٩٤٧.
(ب) نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨.

- **سعيد عبد الفتاح عاشور**: دكتور
(أ) اوروبا العصور الوسطى، جزءان، الطبعة الثانية، ١٩٦١ - ١٩٦٣.
(ب) قبرص والحروب الصليبية، ١٩٥٧.
(جـ) الحركة الصليبية، جزءان، الطبعة الثانية، ١٩٧١.
(د) مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت، ١٩٧٢.

- **عماد الدين خليل**: دكتور
عماد الدين زنكى، الدار العلمية، بيروت.

- **عمر كمال توفيق**: دكتور
مملكة بيت المقدس الصليبية الاسكندرية ١٩٥٨.

- محمد مصطفى زيادة: دكتور
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، القاهرة، ١٩٦١.

- محمد جمال الدين سرور: دكتور
مصر فى عصر الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٠.

- محمود سعيد عمران: دكتور
الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دى برين على مصر، الاسكندرية، ١٩٧٨.

ثالثاً ـ المصادر والمراجع الاجنبية

- Besant & Plamer: Jerusalem, The City of Herod and Salhdin, London 1899.

- Brehier (L.): L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Groisades, Paris 1928.
  -:Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.

- Cahen (C.): La Syrie du Norde a L'EPoque des Croisades, paris 1940.

- Cambridge Medieval History, Cambridge 1957.

-Chalandon (F.): Histoire de la Premiere croisade, paris, 1900.
  :Les Comnenes

- Gibbon (E.): Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1957.

- Grousset (R.): Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, (3 Vols) Paris 1943 - 46.

- Iorga (N.): Histoire de croisades,Paris, 1924.
: L'Armenie Cilicienne.

- Joinville: Histoire de Saint Louis,ed. de wailly, Paris, 1874.

- La Monte (J.): Feudal Monarchy in the Lalin Kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932.

- Laurent (J.): L'Armenie entre Byzance et L'Islam, Paris, 1919.

- Mas Latrie: Histoire de L'ile de Chypre, (3 Vols), Paris 1851.

- Michaud (J.F.): Histoire de croisades,5 Vols, paris, 1817-22.

- Munro (D.C.): The Kingdom of the Grusades.
New York, 1936.

- Norgate: Richard the Lion Heart, London 1924.

- Ostrogorsky (G.): History of the Byzautine State, Oxford 1956.

- Recueil des Historiens des croisades, Publ. A cademie des inscription et Belles Lettres paris 1841-1906.

- Documents Arminiens, 2 Vols.

- Historiens Grecs, 2 Vols.

- Historiens Occidentaux. 5 Vols.

- Historiens Orientaux, 5 Vols.

- Riant (P.): Expeditions et Pelerinages des Scandinaves en Terre - Sainte, Paris, 1865.

- Richard: le Royaume Latin de Jerusalem, Paris, 1953.

- Rousset (P.): Les origineset les caracteres de la premiere croisade. Neuchatel 1945.

- Runciman (S.): A History of the Crusades 3 Vols, Cambridge 1957.

- Schumberger (G.): La Numismatique de L'orient Latin, Paris, 1878.

- Schumberger (G.): Recits de Byzance et des croisades, 2 Vols, Paris 1917-22.

- Schumberger (G.): Renauld de chatillon. Paris, 1898.

مصادر ومراجع
خاصة بالحملة الصليبية الثانية

- Anna Comnena: Alexiadis, C. S. H. B., ed. Weberi. Bonnae, MDCCCLXXVIII.

- Bailly A. Byzance, Paris.

- Brehier L. le monde Byzantine, 3 Volumes, Paris, 1947-1950.

- Bury Y. B.: A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

- Bury : The Imperial Administrative Systeme in the Nintenn Century, London,-911.

- Cahen C. : La Syrie du Nord a lepoque des Croisades, Paris, 1940.

- Cambridge Medieval History. Vols IV, V, ed Bury, Cambridge, 1926.

- Cambridge Medieval History, Vol, IV, 2 Parts ed Hussey, Cambridge, 1975-1976.

- Cinnamus: Historiarum, in C. S. H. B. Bonnae, ed. Meineke, CXXXIII.

- Chaduick: The Celtic Realms, 1967.

- Chalandon, les Comnene, Etudes Sur l'Empire Byzantin au XI et XII Siecles Vol. II, Paris,1912.

- Curtis : Roger II of Sicily and Normans in Louier Italy 1016-1154.

- Dictionnaire de Theologie Catholique, Sous la Direction de Vacant et Mangenton, Neivieme edition, paris, 1922.

- Diehl, Ch. : Byzance, Grandeur et decadence, Paris, 1919.

- Diehl: Histoire de L'empire Byzantin, Paris, 1920.

- Diehl et Marcais: le mond Oriental de 395 a 1081, Paris, 1936.

- Encyclopedia Britannica, Fourteenth Edition. 12 vol, London, 1929.

- Encyclopedia des L'Islam, Par Hautsana, Basset ea Arnold, II Volusnes, E.K. 1927.

- La Grande Encyclopedie, Inventaire Raisonne des Sciences, des Lettres, des arts, parune Societe de Savants et de gens de letters, 31 Volumes, paris.

- Filip : Celtic Civilization, London.

- Finlay G. Lan, Celtic Art, 1973.

- Finlay G. History of the Byzantine Empire from DCXIV to MLVII, London 1856.

-Finlay G. : History of Greece, ed. Tozer, Oxford, 1877.

- Gibbon: The History of the decline and Fall of the Roman Empire, ed Bury. 6Vols. London.

- Grousset: Histoire de Croissades et du Royaume France de Jerusalem, Paris, 1946.

- Haskins : The Normans in European History.

- Hussey, J. : The Byzantine World, London, 1955.

- Hussey : The Later Macedonians, The Comneni and the Agneli, 1925-1204. in C. Med. H. Vol. IV part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.

- Kugler : Studien Zur Geseluchte des Zweiten Kreuzzuges, Stuttgart.

- Norwich : The Kingdom of the Sun, 1970.

- Oman : The Byzantine Empire, London.

- Oman : The Darke Ages, London.

- Ostrogorsky G : History of the Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1956.

- Painter : A History of the Middle Ages, London, 1979.

- Rambaud A. : Etudes Sur l'histoire Byzantine, Paris, 1912.

-Runciman : History of the Crusades, The Kingdom of Jerusalem and the Frankish east, 1100 - 1187, Cambridge., 1952.

- Seelinger : Conquests and Imperial Coronation of Charles The Great, in C. Med. H. ed. Bury, Vol. II, Cambridge, 1926.

- Vasiliev A.: Histoire de L'empire BYZ antin, Traduit du Russes far Bourguina, 2 Vols, paris, 1932.

مصادر ومراجع
خاصة بالحملة الصليبية الرابعة

- Barrachough (g): The Medieval Papacy, London, 1975.

- Brehier (L) :Vie et mort de Byzance, ed. Albin Michel. Paris, 1969.
  : La Civilisation Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.
  : L'Institutions L'Empired Byzantine, ed. Albin Michel, Paris, 1970.

-Choniates(N):Historia, ed Bekker, incorpus Scripturm Historiae Byezantinae, Bonn,1835.

- Clari ® :La conquete De constantiople, Editee par lauer, paris, 1924.

-Diehl(CH) :Une Republique Patricienne, Venise, (Bibliotheque de Philosoph et Scientirique), 1928.

- Foord : The Byzantine Empire, London, 1911.

- Gibbon(E) :The decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6, New York, 1976.

- Grousset ®:Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1956.

- Guillon (A) :La civilsation byzantine, Arthand, Paris, 1974.

- Hanotoux (g): les venitiens ont-ils trahi la chretiente en 1202? Dans la Revue Historique, vol. IV, 1877.

- Hopf : Geschchte grcehenlandz von Beg nn des Mittelalters lis unsere zeit, in Eresch-gruber Encyclopedia, vols. 85-86. 1867-1868.

- Hussey (J): The later Macedonians, The Comneni and the Angeli, 1025 - 1204, inc M. H., Vol. IV, part 1, ed. Hussey, Cambridge, 1975.

- Innocentii III: Epistolae, in Patrologia Latian, ed Paris, 1855.

- Jacob(E) :Innocent III, in C. M. H. Vol, VI, ed, Hussey, London, 1975.

- King (E) : The Kinghts Hospitallers in The Holy Land, London, 1931.

- Kinnamos (J): Deeds of John and Manual Comnenus. Translated to English by Charles M. Brand, Columbia University Press, New York, 1976.

- Labise : Histoire de France, Paris, 1911.

-Luchaire(A) :Innocent III, La question d'orient, paris, Hachette, 1907.

- Mas-Latrie(L):Histoire de L'ile de Chypre sousles princes de la maison de Lusignan, 3 vols, Paris, Imprimerie Imperiale, 1852 - 1961.

- Miller : Imperial Constantiople, U. S. A. 1969.

- Nicol :The Fourth Grusade and The greek and Latin Empires, 1204-1261, in C. M. H, Vol. IV. part, 1, ed. Hus sy, Cambridge, 1975.